منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

كلمة
KALIMA
Publishing

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING

خضير فليح الزيدي

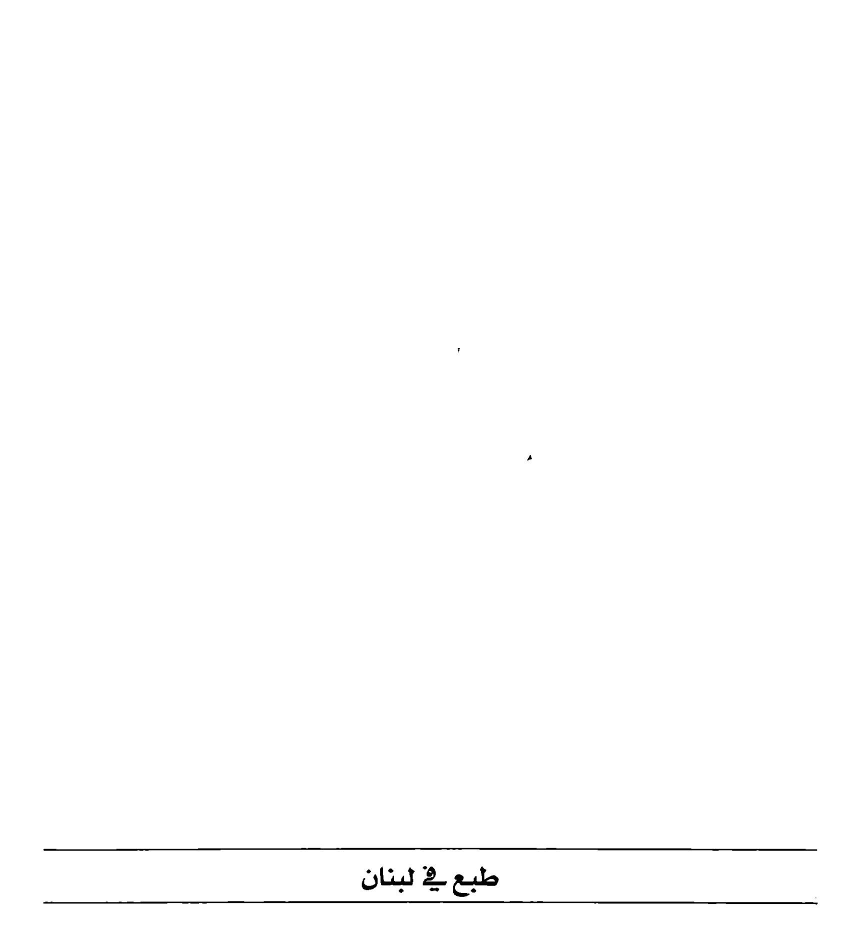
# فاليوم عشرة

# VALIAPM 10



رواية

طبع في لبنان



طبع في لبنان

# فاليوم عشرة

## VALIAPM 10

رواية

خضير فليح الزيدي

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef




منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING

**الطبعة الأولى: 1437 هـ - 2016 م**

**ردمك 978-614-02-1433-0**

**ردمك 978-9938-902-82-2**





كلمة للنشر والتوزيع

12 نهج بيروت، 2080 أريانة - تونس

الهاتف: 0021671703355 - الفاكس: 0021671706253

البريد الإلكتروني: info@kalima-edition.com

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

149 شارع حسيبة بن بوعلي

الجزائر العاصمة - الجزائر

هاتف/فاكس: 21676179 213+

e-mail: editions.elikhtilef@gmail.com

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING

هاتف بيروت: 9613223227+

editions.difaf@gmail.com

((من العقل أن أصبح مجنونا وأنا أسير
في شوارع بغداد الآن)).

# 1

# لعبة الرئيس المفضّلة

**:2014/6/10**

**بسم الله الرحمن الرحيم: أيها السيدات والسادة سنُذيع بعد قليل الخطاب التاريخي للرئيس، إلى ذلك نسترعي الانتباه.**

**بسم الله الرحمن الرحيم: إلى المؤمنين كافة.. هلموا للصلاة خفافا إلى جامع النوري الكبير، سيخطب الخليفة – أطال الله في عمره – في الجمع المؤمن بعد قليل.**

## الخطاب يقرع الأبواب..

لم يشر المقطع الوحيد من الفلم الوثائقي الذي عرضته قناة "**france24 arabic**" الفرنسية بشكل واضح إلى خطاب **الرئيس** في ذلك اليوم، لقد تطرق الفلم بشيء من الإسهاب لشخصيات عامة من الشارع لأسباب غير معلنة، من دون أن يتوغّل في تفسير أو نقل خطاب الرئيس الذي بُثّ عقب الانسحاب. في المقابل أفرد مساحة جيدة بغزل واضح لخطبة **الخليفة** في مسجد المدينة المحتلة، كما عقّب مُعلّقه عن لغز العرج الواضح في ساقه اليمنى أثناء صعوده المنبر، وعن

طول "السواك" وصلاحه لتطهير الفم قبيل الصلاة، وإلى حقيقة ارتداء الساعة السويسرية في يده اليمنى، إلى نـوع القمـاش الإنكليـزي المستورد للعمامة الملفوفة بعناية، إلى جلدة الحذاء المدبوغة لشخصـه، إلى العباءة العباسية السوداء واللحية الكثة التي يجمّلها خيط الشـيب بضربة لون ساحر. ألم يكن خيط التغزّل واضحا فيما سبق؟

يصعد المنبر بتمهل عجيب ثم يخطب بلغـة مرتّلـة مضـبوطة الحواف. كذلك نقل الفلم شذرات مختارة بدقة من خطبـة الخليفـة الطويلة.. الناس المؤمنون بقوة الجَلد والترهيب الصارم تحـت منـبره ينصتون إلى موسيقى خطابه التاريخي بلغة فخمة مستلّة مـن مـنجم الفحم الحجري. لكن الفلم لم يكشف عما كان يفعله الرئيس أثنـاء لحظة الصدمة.

ضحى ذلك اليوم العصيب ظلَّ الناس نياما إلى ساعة الظهـيرة، حدث الذي حدث في شهر حزيران توأم النكسات المتعاقبة. الرئيس في قصره المنيف، المكيّف تكييفا فائق الجودة. بالضبط كان في غرفـة نومه قبيل خروجه إلى منصّة الخطابات، هكـذا أتخيلـه في تلـك اللحظات، ينشغل كالعادة بترتيب قيافة العمل الرئاسي الملهمة له.

الخطبة المنتظرة له تبدو طازجة هذه المرة، تلك مصيبة أخـرى تتقدم بثبات ونشاط. لا يخطب في الناس إلا وهناك كارثة جديـدة تقع على رؤوس الجميع، فخطاباته تعـوّدت المشـي والتبختـر ثم الانقلاب، بساقين ويدين نشيطتين هكذا "يس – يم"، بثبات جندي مستجد.

سأكمل ما خُرِم من الفلم.. يضع الآن عطرا مكيّا، مستخلصـا من المسك الأصلي ليعطّر فيه بدلته الكحلية، يمرر أصابعه برقّة وحنان

على ربطة عنقه الحريرية مفرطة النعومة، ليدرك في اللحظات الأخيرة عظمة أناقته في المرآة الطويلة، يعود ليتأمل نفسه المتعاظمة قرب النافذة المطلة على حديقته الرئاسية وارثا إياها من الأنظمة المُبادة. بعد ذلك تلفت يمينا وشمالا ثم راح يمسح حذاءه الأسود الرئاسي من ماركة (timberland) الشهيرة، بخرقة رطبة من دون مساعدة حاشيته المخلصة في فروض الطاعة والمحتشدة خلف الباب في تلك اللحظات، حتى بانت صورته مقّعرة في بوز الحذاء، غير أن حارسه الشخصي أوشى بوشاية لزوجته سرعان ما انتشرت بين رجال الحمايات ومن ثم إلى نساء المسؤولين، ما يشغل الرئيس أثناء الخبر الصاعق في غرفته، قال: "كان منشغلا بمداعبة بيضة خصيته ليتركها تعود لكيس الصفن في كل مرة". لعبة شُغف بها منذ طفولته المستلبة، لم يتخلص من تلك العادة وهو يعيش أيامه في عنفوان الرئاسة وذاته المتعاظمة. تلك مشكلة ستؤثر حتما على نسق الخطاب وبلاغته.

خارج غرفة نومه، ثمة ضجيج لهدير صوت جماعي طاغٍ، يعكّر صفو الصباح البغدادي ويشغل حيز المكان.. نشيد حربي متواصل، تلك علامة أولى من علامات ساعة الخطاب.. يعتقْد العوام أن النشيد الوطني سيكون ساخنا وجديدا هذه المرة، الغرض منه شحن بطارية الوطنية المستهلكة، يُعاد على مدار الساعة، نشيد يبحث عن بقعة وطن له بحجم حبة عدس شاحبة. يصدح في أذني الآن ويتردد صداه في الأفق الضيق من حولي.

كانت الأجواء في الضحى حارقة مثل لهب تنور الطين، ومذلّة ككف عزيز القوم، بل خارقة وقاتلة للغاية كطلقة نزقة من مراهق مخمور يطلق الرصاص في الشوارع فوق الرؤوس.. أما اللعنة التي

حلّت فقد كانت عراقية محمّصة وملفوفة بخرقة مستلّة من الماضي السحيق، بينما القدر الحاسم فقد كان مغمّسا بنكهة بغدادية خالصة منقّعة برائحة خناجر التأريخ الصدئة، حتى الأهوال كانت مكتوبة ومحفوظة عن ظهر قلب على ألسن رجال الدين، كالأقدار المنزلة تترادف على بقعة منحرفة من الأرض لترقص ردحا عنيفا فوقها المصائب واحدة تلو أخرى.

اوووووووووووووووه حرب مرة أخرى. **جيب ليل وخذ خطابات.**

كنت نائما ومتوغلا في العمق الواجب للنوم المكثف والثقيل، المزاج حاد ودرجة الحرارة لهذا اليوم فوق معدلاتها المعتادة، إذ ذكرت النشرة الجوية إلى تعرّض حبّة العدس إلى منخفض جوي ينحسر تدريجيا **بعد حين،** لتتأثر عموم المنطقة بهبوب رياح عنيفة مصحوبة بموجة حر موغلة في الحقد، وثمة رياح قادمة من الصحارى ومناطق أخرى تدعى "**رياح الخماسين**" كانت بُعيد موسمها المعتاد، لتؤثر على مناطق منتخبة من البلاد، فترتفع درجة الحرارة فوق معدلاتها تدريجيا لينتحر المقياس في نكسة حزيرانية أخرى.

إنه لم يستعد بعد لتلاوة الخطاب التاريخي الذي ختم صياغته النهائية بالصلوات الواجبة، قبيل منتصف الليل بقليل، وبكلمات مذيّلة بتوقيعه الرئاسي، وهو يردد "على بركة الله"، بعد أن حذف منه فقرة واحدة، كانت شِعرية محضة وحادة الحواف، مطعّمة بتوابل من بلاغة الويلات، ستكون ثقيلة الظل حتما، ثم شطب بقلمه الأحمر من الفقرة ذاتها جملتين ركيكتي الصياغة فاقدتين للإنشاء الرئاسي المتمّم للخطاب.

كذلك أتخيله يدخل إلى المطبخ الرئاسي قبيل أوان لحظة الخطاب في أيام خوالٍ من شهر شعبان، وهو يردد مع نفسه ليختار نبرة الصوت المؤثرة في الجملة الاستهلالية على الأنفس (**أيها الشعب العظيم**). قضم كعكة دائرية مغمّسة بقشطة خامه الإيرانية وشرب الشاي المُحلّى وقوفا، ثم ذهب بعد ذلك مسرعا إلى الحمام ليتمّ (بولته) الأخيرة، وقوفا أيضا ب"خرطات تسع مباركات" حسب ما نقلته كاميرا الوشاية السرية للحارس الشخصي، وفي ذلك المكان بالضبط توقف تدفق التفاصيل وانقطع البث، لحجب ما تبقى من نقل حكايته في داخل قصره المُحصّن. يُحكى أنه عاد للمداعبة في لعبته المفضّلة.

*

## صباح المشي سيدي العقيد:

لم أكن معه في اللحظات العصيبة تلك في سَاعات مشيه المارثونية.. لكني أتلمّس خطواته بأصابع التخيل التي ابتدعتها لترميم الفجوات في الفلم الوثائقي للقناة الفرنسية..

(غاق غاااق غاااااااق نعقت طيور الغاق الرشيقة في البرية **نغم صبا** حزين، بصيحات محذّرة فوق رأس العقيد، غادرتْ منذ الأمس مكانها في الأنهر والمستنقعات، ونعقت لتحثّه أولا لسماع الخطاب، ثم تعود من جديد لتحذّره بنعيقها المتقطّع بعدم التوغّل كثيرا في عمق البرية، هكذا فسّر النعيق، فلم يبالِ أول الأمر لصراخها الحاد، كأنها تنذره من السير وحيدا على هذه الأرض الملعونة وبساطها الكالح، بعد أن عَبَر مساحات متعرّجة وشاسعة منها، تلال ووديان ثم

منخفضات وبرك مياه ومقابر ومواضع جند خالية ومقرات عسكرية يبيض فيها "الططو" وسيطرات محروقة خالية أخرى، حتى لاحت له عن بعد، شوارع معبّدة خالية من السيارات وأخرى ترابية موحشة تتبّول عليها كلاب سائبة من دون أن ترفع ساقا للتبول الحر.

في ساعة المشي المنحوسة أدركَ أن الأرض ليست كروية أو باذنجانية، بل كانت منبسطة كل البسط في لوحة من الانبساط العجيب، وعندما تطاير التراب عنها بانَ هيكلها العظمي وكشف كامل عورتها. كذَبَ العِلم والعلماء عليه طوال عمره، فلا الشمس تدور ولا فلك مرسوم للأرض تحوم حوله طيور الغاق ولا هم يحزنون.. القمر الطالع في الليلة الفائتة هو كذبة العلم أيضا، ما هو إلاّ مصباح رومانسي جميل، انقطع عنه التيار الكهربائي وقد شُمِل بالقطع المبرمج المعلن. القمر معلّق في سقف خادع معمول بعناية من قماش "الشيفون"، تتحكّم فيه قوة سريّة خفية. يخفي وجهه بغيمة لعوب خوفا من وصول الشظايا وتخرّب طلّته.

هذه الشمس لم تكن كما صوّرتها له أكاذيب نظريات العلم، إنها مجرد قنبلة موقوتة مزروعة في حافلة أطفال روضة الينابيع، تهدّده كل حين بلعبة الانفجار، ومن بعده الفناء في قيامة أرضية مخصوصة إلى أرض **حبة العدس**.

في تلك الساعة المنحوسة كان "مبسوطا بسطة عراقية خالصة"، أدرك ذلك أثناء مسيرته الطويلة مشيا على الأقدام بدموعه المنهمرة كمطر تشرين.. نفسه مهشّمة وشهقته المحشورة متكسّرة في صدره، يتجرّع من جديد وبقسوة كأس سمّ "هزيْمة" خالته ونكسة ثانية لحزيران.

ترك المدينة بسهلها المنبسط العريض وصوبيها الأيمن والأيسر، كلها الآن خلف ظهره ومن دون وداع يليق به، خلع ملابسه العسكرية كلها مضطرا ومختنقا بالعبَرات، استلّ النسر الذهبي من "بيريته" وشدّه بقيطان بسطاله الصحراوي ووضعه تحت إبطه الأيمن، ثم واصل المسير راجلا، وحيدا لا سماء فوقه ولا قمر يحرسه ولا شمس تنير له الطريق. أنفه دليله يدلّه على طرق يكتشفها لأول مرة، ودمعته تنير له الطرقات الملغومة.

كانت تنظر له غير مبالية لرحيله عنها بعد سنتين من العشق المتناهي والذوبان التام. إذ مدّت المدينة يدها في لحظة صلف وأخرجت نهدها من صدرها وعَصَرتْ حلمتها على فوهة إناء ذهبي لتطعم القادم الجديد من حليبها الطاعن في البياض. ثم بالت في كف يدها واغتسلت ببولها.

هو آخر المنسحبين من سور المدينة الكبيرة، إذ بقي ليلتها ثابتا في مكانه حتى بوادر تباشير الصباح الأولى من يوم 6/10 لتفضح الشمس ما حصل، مدركا أن لا أحد غيره كان موجودا في جواره. لم يتوقع منها هذا الجحود فقد أحبّها بعنف وخبل عظيمين، لكنها وضعت يديها على ظهره ودفعته بعيدا عنها، عاد من حيث أتى سائرا يجرجر خطاه في تيه ملغوم، صامتا وحزينا لا يقوى على فك لغز ما حصل، مذهولا بقوة الصدمة، يمشي وحيدا بعيدا عن رهط تجمعات الجند المنسحبين في ذلك اليوم).

*

الفلم الوثائقي الذي عُرِضَ بعد لحظة الانكسار التاريخية، هو عبارة عن "**ريبورتاج**" لقصة الانسحاب معمولا بسياسة خبيثة، إذ يشير شريط الفلم بلغة سينمائية رومانسية إلى "**العقيد غسان**" في رحلة خروجه من المدينة بعد سقوطها بساعات حتى وصوله إلى العاصمة بغداد. ثم انحرف مسار الفلم تاركا العقيد وموضوعة الهزيمة المرة، لينتقل مباشرة لكشف أسراري أنا شخصيا، وقد حاولتُ جاهدا تفريغ هذا المقطع على الورق من خلال المشاهدة البصرية لأكثر من مرة.

كانت المساحة المتبقية من شريط الفلم مخصّصة لي وحدي، أنا بدمي ولحمي بطل الفلم المغفّل كما خُطِط لذلك في قصدية واضحة، إذ استدرجتني شركة الإنتاج لقول عبارات مرتبكة ومفكّكة عبر أسئلة معدّة للغرض الخبيث هذا.. كان لرعب الكاميرا تأثيره عليّ في انحراف سير الحديث، أصابني بنوع من الذهول والهذيان بصورة مقرفة، حتى غدوت ضحية سوء التفكير وفقدان صفة البديهية التي تنقصني أصلا. كم تمنيت أن أكون سريع البديهية في التعامل مع الذئاب؟ لستُ غبيّا إلى هذه الدرجة، لكن يمكن أن أكون طيّب القلب، فالثقافة جعلتني منطويا لائذا بين طيّات الكتب غير مكترث لما يحصل، الآن أعترف بذلك.. لستُ مغفلا، لكن يمكن أن أكون غير مبالٍ لما يدور حولي من مؤامرات تُحاك في ليل بهيم. ما نفع العين وهي ترنو للنجوم الكاذبة، وأنا مأكول من الخلف على هذه الأرض الرخوة؟ هل كنت كلبا أجربَ ليحدث كل ما حدث؟ لا طبعا.. يبدو أنني بومة عمياء مجرّدة، لست فقيها بما يجري، ولست مدركا كل الكلام الذي يقال عنّي في الظلام.

كل هذا حدث بصفقة مالية مربحة بين وكالة **جوو الفرنسية** وهذه القناة، عبر وسيط منتج آخر، حيث بثّت القناة وعبر إفادات الشخوص المحيطين بي شريطا وثائقيا عن حياتي الشخصية وأهملت عن قصد واضح قصّة انسحاب آخر المدافعين عن المدينة. أظهرني الشريط كـ "قرقوز طائش"، كنت أشاهد نفسي كمريض يعاني من مرض ذهان، حاول الفلم التركيز على تلك النقطة بالذات، بعدسة الكاميرا وهي من النوع الذي تشوّه الوجوه المقرّبة. خصّص الفلم الدقائق الثلاث الأولى فقط للمناديل التي لم تحتضن الدموع المنهمرة للعقيد في مسيرة يوم الانسحاب، عبر تصوير سريع للطريق الذي مرّ منه الجنود المنسحبون، وتركوا مخلفاهم على جانبيه.

"**بارتريك سيمونان**" معلّق الفلم بصوته الموسيقي الساحر كان يغرّد بلغة رومانسية مثيرة للحواس، حوّل قصة المناديل التي أخفت دموعه بعد تيهه في متاهات البرية إلى دراما مشوّقة، بدت كمفارقة غير مجدية ومناسبة حزينة.

المفارقة الأخرى كانت المقابلة التي أجريت معي عبر الفلم، متحدثا عن نفسي بشيء من الكبرياء الفارغ كعادة أقراني العراقيين، تمّ قطع الحديث المخصص عن العقيد تماما، تبيّن أن وكالة جوو قد ركّزت في الشريط عن شخصيتي أكثر من حديثها عن سقوط المدينة لأسباب مبيّتة وسرية، الوكالة باعت الفلم الوثائقي على شركة إنتاج فرنسية، وهذه الشركة تدّخلت على مادة الشريط بالحذف والإضافة بما يتواءم مع سياستها السرية، ثم باعته على هذه القناة بصفقة بدت لي كبيرة، حيث كانت القناة تعلن لمدة أسبوع كامل عن موعد بث الفلم الوثائقي" **لا مناديل لدموع العقيد**".

وقبل الشروع بحكايتي التي جرت تفاصيلها في بغداد خارج إطار الفلم، أكون مضطرا لكشف جوانب مهمة مما جاء في شريط الفلم عبر الحوار التالي المفرّغ عبر هذه الورقة وبتصرف، سأكون أول المتحدثين:

**س: مَنْ أنت؟ حدّثني عن قضية مجيئك لبغداد في هذا الوقت بالذات.. تفضّل:**

- أنا سلام.. سلام محمد عبدالله الوافي، أنا الأخ الأصغر للعقيد، بطل الانسحاب الأكبر.. جئت إلى بغداد في يوم 14 حزيران من عام 2014، بعد خطاب الرئيس بثلاثة أيام، صادف أنه يوم سبت، بعد غربة قاسية، مبتعدا عن همّوم وطن حبة العدس، استمرت لثماني عشرة سنة بالتمام. جئت بعد سقوط الموصل ومدن أخرى مباشرة على يد برابرة جدد.. برابرة يتحركون "بريموت كونترول" عن بعد، حيث صادف مجيئي المباغت عن إعلان موت باهت الطعم لخالتي هزيْمة..

وصلتُ في ساعة غروب موحشة من ذلك السبت الكئيب. منذ زمن بعيد كنت أكره يوم السبت، فهو اليوم العراقي الاستثنائي، تركته قبل هجرتي يوم عمل ونشاط، ووجدته في العودة المنحوسة يوما زائدا عن الحاجة، تتوقف الحياة فيه، يوم عطلة رسمية مضافا إلى عطلة يوم الجمعة، وغالبا ما يبعث فيّ غروب يوم السبت الخوف والكآبة.. عندما ينشر قرص الشمس صبغته الحزينة على مساحة الأرض بعد موجة بكاء عارمة. كان يوم السبت في ظل حرب

الثمانية أعوام يوم نشاط في مراكز التدريب الحربية، لا غياب ولا مساعدة ولا حتى مرضية، كل شيء يلمع، من البسطال الأسود حتى قِدر الشوربة العظيم.

ورثتُ من "هزيْمة" خالتي الحزن الأسطوري المركّب، ففي قمة الضحك والفكاهة يدق الحزن بابي وينصب مناحته.. في كل مساء تنتابها رغبة البكاء في ساعة الغروب الكابية على عتبة الدار لأشاطرها بشغف نوبة البكاء المزدوجة هذه، في كل غروب تجلب ذكرى كل الميتين المنسيين تحت ركام الأرض وتندهم جميعا، ومن دون سبب واضح للنعي والنواح والدموع. اسطورتها البكاء بلحن دون ايقاع ولعبتها المسلية شهقات الفواصل.

عندما وصلت، وجدتُ الناس يتخبطون فيما يفعلون، لا يعرفون ما تؤول إليه الأمور بعد ضياع الموصل، والبرابرة على الأبواب يتلذذون في قضم ثلث حبة العدس.. هل ستعود؟ أم يبتلعها الحوت، هل هي لعبة الثعلب بسبع لفات طوال؟ ربما سيتقيأ البرابرة فتيت الحبة بعد حين.. أنا لا أفهم في السياسة سيدي.. كنت شاعرا وضيّعت مفتاحه في الغربة.

إنهم "في حالة ذهول رهيبة إثر صدمة دراماتيكية" كما يصفهم مذيع قناة "**فوكس نيوز**"- جاك ميشو-: "حدث ويحدث من تتابع سريع يسابق الزمن في سير الأحداث وتواترها. إنها لحظة سقوط تاريخية مدوّية من دون معرفة التفاصيل، الجميع يمتنع عن التصريحات".

تزاحمت جموع كبيرة على أبواب مكاتب الخطوط الجوية للخروج السريع من العاصمة المهدّدة.. ازداد الإقبال على تخزين المواد

الغذائية بشكل لافت. وعادت من جديد هواجس مخيفة من انتهاء وقت الاستراحة واحتمال عودة فصل جديد من حرب الأهل للمناطق المسيّجة بالكونكريت.

ضجيج مهول في الطائرة وأدعية محدّثة بلغة العصر، لغط وخيبة كما في صالة المغادرة الكبرى، حديث صاحب التكسي الثرثار عن استمرار المؤامرة، كذلك أعادت القنوات المحلية الهائجة إنتاج أغان وطنية قديمة وبثها بثوب جديد.

البلد في حالة إنذار قصوى، مع العلم أن هذا الإنذار قديم جدا على هذه الأرض، يتجدد كلما هبّت **رياح الخماسين** اللعينة. كل مَنْ صادفتهم وجدهم يتحدثون عن مأساة كبرى غير متوقعة حصلت في يوم الانهيار العظيم. الأرض مع مواطنيها تتقلّص لتنضغط بشكل مفزع، المحافظات الملونة والمرسومة على الخريطة في ذاكرتي تتبخّر تحت أشعة شمس نووية في صيف سريالي بطبيعته الصمغية، وفي لحظة الغروب الخادعة لغياب الشمس تحدث المفاجأة التاريخية لتبخّر المدن. إلى أين ذاهبون؟ لا من مجيب مطلقا على أسئلتي. فالكل يمشي من دون هدف واضح الملامح. بلاد المشي أوطاني، رنّ هذا النشيد في رأسي سيدي.

بالنسبة لي شخصيا كانت الرحلة شاقة جدا، بعد أن امتنعت بعض شركات النقل الجوي من الهبوط في مطار بغداد لكثرة التحذيرات الدولية، وإلزام كوادر السفارات العاملة في بغداد بالحيطة والحذر حتى ينجلي غبار ما يحدث. وأمام عيني ألغيت الكثير من الحجوزات المسبقة لتذاكر السفر من كافة البلدان. حتى الطائرة التي أقلتني كانت شبه فارغة.

أنا وزوجتي وابني الرضيع سراج. اضطررنا في ليلة الوصول للمبيت في "**فندق بغداد**" وسط شارع السعدون، بعد أن تركنا صاحب التاكسي الثرثار على الرصيف ليعود إلى بيته بعد حلول ظلام مجحف ومخيف، لا نعرف أين نذهب في فضاء داكن من الفزع الرمادي.

كان الفندق محاطا بحزمة طارئة كما يبدو من الحرس المدجج على بوابته الخارجية والداخلية، خوفا من المجهول وحفاظا على سلامة النزلاء ولإشاعة الأمن وسط العاصمة المهدّدة كضحية جاهزة لذئاب جائعة، رغم جعير صفارات سيارات الشرطة كل حين المارقة في الشارع.

في الصباح رحت أبحث عن مكان مستقل للسكن قريبا من المباني الحكومية الرسمية مفضلا الشقة السكنية على المبيت بالفنادق وتعليماتها القسرية، حتى عثرت على هذه الشقة في كرادة مريم في اليوم التالي.

لم أكن مريضا نفسيا كما قيل عنّي كثيرا، ولم أعش يوما في حالة ذهان سلوكي حاد مثلما يتقوّل عنّي أطباء آخر زمن. كل ما في الأمر أني غير متوائم مع المحيط الخارجي، هذا باختصار شديد هو تقريري عن نفسي. عندما يتوفر لي الظرف الطبيعي سأكون حتما سويا مثل خلق الله. هذا والسلام.

بعد مضي ربع مساحة الفلم تقريبا، تبدأ جملة استجوابات وإفادات لدائرة المقربين مني، يدلون بجملة فكاهات عني:

**ماذا تعرف عن سلام الوافي؟**

- خالو.. أنا يصيحون لي "**أبو العوف**" عادي جدا، صيدلاني شوارع و"بندرجي كبسلة" وتربية الباب الشرجي، مضغوط من

القشرة إلى اللب. للأسف لا اعرف أن أحكي مثلكم.. بخصوص السؤال عن سلام الوافي فهو زبون "بلاّع توب" يدفع بالنقدي والناشف.. "أيوب الأبتر" هو الذي جلبه لي عندما كان تائها في الباب الشرجي، اعتبرته صديقا.. هو ضلعي وتاج رأسي، والصديق لوقت الضيق، لكنه صديق مصلحة فقط. يشتري مني كل أسبوع شريطا أو شريطين أو ثلاثة حسب الوجبة، إذا كانت قبرصية أم الختم فيكتفي بالشريط، أما إذا كانت "دكس" يزيد الطلب ثم يختفي. من خلال قناتكم أقول للزبائن الكرام الذين لا ينامون جيدا مع البلع، من الطبيعي تغيير نوع الحبة كل شهر تقريبا. أما سلام هو "عادي جدا"، يحتاج فقط إلى **خمسين سنة** ليعتاد على الوضع. الوضع العراقي صعب في البداية "اغاتي"، لكنه بعد ستين سنة يصبح عاديا جدا على الوافي وأمثاله "شغلة مجرّبة" وباليد. حبيبي بصراحة إذا أردت اعتياد الوضع هنا أما أن "**تبلع أو تشلعْ**". شعار المرحلة "نعم خالو وداعتك". أعطي الحبّة الواحدة لمجنون مستشفى الرشاد فيخفّ جنونه، وأعطيها للمستجدين المنسحبين فيخلعوا ملابسهم، وينسوا خالاتهم ويلفون رؤوسهم ويشبعوا نوما هنيا.

"الباب الشرجي" مكاني المفضّل لبيع بضاعتي. تعرّفت على سلام في فترة الهرج العظيم ما بعد الموصل في "دربونة أيوب الأبتر" قرب "**سينما الحمراء**" السفري، هل سمعتم في بلدكم عن سينما سفري؟ مكتوب على جبهتها "ستة أفلام ببطاقة واحدة" ومع الحبة تكون مدة العرض ست ساعات مع فسحة نوم مجاني، هي ليست فندق ولكنها سينما لقنص الغلمان الطائشين أو المُكبسلين. أما غسان الذي تسأل عنه فلا أعرفه.. صحيح أن صديقي الأبتر يلبس نظارة (كعب استكان)،

لكنه يلتقط الحلوين من الغلمان التائهين بخفّة ورشاقة "الأسطه" يتــذوق جمال مؤخراتهم بالنظرة الاولى.. حبيبـــي بلد تعبان، "يتلّغِهم بالراحة"، يراهم واضحين في اللبن الرائب في لعبة الغَــزَل. خـــالي هـــو خـــبرة عُمر.."أبو مصلحة" للعثور على "الغلمان الطعشيين" بس.

في تلك الأيام حدثت أزمة حادة في استيراد الأنواع الجيــدة مــن كافة حبوب البلع التي يتقّوت عليها الشباب. الطرق الخارجيــة كلـــها تعرّضت إلى الغلق. الحمد لله كان الخزين متوفّرا عنـــدي، اســـتطعت بخبرتي المتواضعة من تغطية السوق المحلية رغم الطلـــب المتزايـــد. بعـــد اكتشاف الخلطة العجيبة المعجونة بترتيب من نصف حبة ماويـــة مـــع نصف حبة أم الحاجب قبرصية مع حبة مغاويرة5، أما **(VALIAPM 10)** فهو حرام ثم حرام إلى يوم الدين يقولون هناك فتوة، ثم بعدها يبلع حبـــة دكسن ينتعش بلاّعها ويحلّق وينسى الموصل والبصرة معـــا.. و" اللـــي شبكنا يخلصنا".. حصل على الكمية المطلوبة للبلع اليومي بعد أن جرّب كل واحدة لقياس مفعولها. هو بلاّع مضبوط يعتبر من الخـــط الثـــاني حسب معرفتي بالخطوط لأنه لم يتخرّج من مقهى "عصمان الســـوداني" في بلع الخلطة.. و لم يختم على مؤخرته "أيوب الأبتر" للتزكية. يقول عنه الأبتر – خوش ولد بس ما ينفع لا للعلس ولا البطح–. بصراحة هـــذه المعلومات المتوفرة حاليا عن سلام الوافي، والبقية من أســـرار العمـــلاء محفوظة في جيبـــي، في أمان الله. هسه اشطح خالو لو بعد؟.

**ماذا تعرفين عن هذا الرجل؟**

– أنا **سليمة حنظل**، "عيوني أنت" نعم أعرفه. أعتبره نعِـــمَ الأخ والصديق رغم كل ما قيل عنه. لا أعرف شيئا عن وضعه النفسي، لكنه

مزاجي جدا. نحن في الغربة نعاني كثيرا من تقلبات المزاج. بالنسبة إلى سلام كان يزورني إلى شقتي كلما حنّ لبغداد ليشرب الشاي العراقي وكعك السيد، أو نلتقي أحيانا في مكان عام لنتحدث في أمور كثيرة ومنها نتذكر بلدنا العراق ومدينتنا بغداد في أيام زمان. يصفن كثيرا قبل الإجابة وينسى الأحداث بسرعة، هذا كل ما أستطيع قوله عنه. حياته الداخلية ملك له لا يحق لي ولغيري الحديث عنها. "عيوني أنت".

**تكلم لنا عما عرفته عن سلام الوافي؟**

- أنا **هاتف الصراف**.. تربطني علاقة محدودة معه، ومعرفتي به تمتد لسنتين تقريبا. تعرفت عليه من خلال الفيس بوك. هو شخصية خشن الملمس غير راكزة حسب تحليلي المنطقي. ولديه شرود ذهني، لا يعرف ما يريد بالضبط. ساعدته كثيرا في محاولة إنقاذه من إدمانه أو إفراطه في تناول حبوب الهلوسة ومحاولتي معه في العمل المنتج. الغريب في القضية كان يعتقد أن لا أحد يعرف بأمره. عندما حضر إلى باريس للعمل الإعلامي من العام الماضي اتضّحت الكثير من صفاته الغامضة، غالبا ما يدور وجهه عني كي لا أراه يبتلع الحبّة بخفة وسرعة. عندما يتحدث معي يبدو كلامه غير مترابط. مسكين سلام كان مشروعا لمواطن طبيعي لكن الظروف المحيطة به كانت تعيسة. والغربة زادت من مرضه النفسي. ضغطته الظروف حتى جعلته بتلك الوضعية، وأصبح ضحية من ضحايا "البندرجي".

**ماذا تقول عن علاقتك السريّة بسلام الوافي؟**

- أنا **أصيل يوسف** أو قلْ أصيل عبد الحميد سابقا لا فرق

عندي بعد اليوم. لا أعرف ما أقوله أمام الكاميرا سيدي.. بصـــراحة التصوير يرعبني ويتطاير الكلام المترابط من رأسي.

لكني بصراحة أعتبر سلام هو الأخ الكبير لي، وهـــو الصـــديق الموجّه في الأيام التي كنت فيها أعاني من العزلة والخوف من المجهول. لا أصدق أن سلام كان شخصا مريضا.. من المســـتحيل أن يكـــون الرجل الطبيعي في بلد غير طبيعي بالمرة. هو مضغوط بنســـبة عاليـــة بصراحة. أما غسان فلا أعرفه مطلقا.

**عفوا سيدي، لو تكرّمت وأفدتنا عمّا تعرفه عنه:**

- أنا **الدكتور**........ معرّف لـــديكم. لقبـــــي في حقـــل السياسة الداخلية أو في الشارع العراقي "**دكتور ناعم**" لا يهـــم. أن أحد مقدمي البرامج الفضائية "بعثي طبعا" أطلق هذا اللقب، وليست لي بصراحة شهادة مكتملة واضحة الملامح أو وثيقة دامغة عن هـــذا المدعو سلام الوافي. لا أعرفه تماما. أعتقد سمعت عنه مرة من صديق مشترك بيننا هو هاتف الصراف، تحدّث عنه بنوع من كسر الخـــاطر لكونه مريضا نفسيا عاد إلى بغداد من كندا لأمور شخصية. هذا كل ما أستطيع قوله عن الرجل.

**لو تفضلت أخي "جاد" وتحدثت عن جارك بما تعرفه عنه:**

- أنا "**جاد الله**" كندي من أصول صومالية. والله سلام العراقي "ولد جيد" جار وصديق هواية، يتناول حبوب مهلوسة كثيرة. هـــو مغرم في تجريب الأنواع الجديدة، لا أعرف عنه المزيد بصراحة فأنـــا اقضي أغلب وقتي في النوم، عندما أصحو أعود مباشرة للنوم.. سلام

كعصير الفاكهة طبيعي جدا. لكن الوحشة قاتلة وعلاجها حسب علمي هو النوم الطويل. تصبح على خير صديقي. لا تنس.. فالنوم الطويل هو الحل.

ينتهي الفلم الوثائقي الذي حال بيني وبين "وكالة جوو"، في العودة إلى اللقطات الأولى من الفلم، طيور الغاق تنعق قرب رأس العقيد في رحلة الانسحاب.

وقعتُ في الفخ المنصوب، حيث تصرّفتْ الوكالة بثعلبية ومكر، لبيعها الفلم إلى قناة "فرانس 24"، بدت معظم أسرار الفلم محض أكاذيب خالصة عن خالتنا هزيْمة، كانت محض أوهام لم ترد في معرض سيرتي الذاتية، تحدّثت الوكالة عن حياتي الشخصية بما لا يجوز لها. ولم يتحدث الفلم عن فحوى خطاب الرئيس، فيما كانت الحياة خارج شريط الفلم مغايرة تماما لما حصل لي شخصيا في بغداد. مثبتا بالقرائن ما مرّ بي أثناء عودتي لها.

على العموم سأغض الطرف عن وكالتي التي أعمل فيها، ففي فقرة في نهاية العقد المبرم بيننا، وبعد مراجعته تبّين أنه يجوز لها، التصرف الكلي في المواد الخام المرسلة من قبل الطرف الثاني وفق ما يناسب سياسة الوكالة، كذلك يحق لها بيعه على القنوات المرئية. ومازال العقيد يمشي في الشريط من غير مناديل لدموعه.

***

## 2

# سلام/2..

كرر المذيع "على الصبح" جملة الرئيس الأثيرية: (**أيها الشـــعب العظيم**) و لم يقل (أيها السيدات والسادة) لكنه تابع تكراره: سنذيع عليكم بعد قليل الخطاب التاريخي للرئيس، إلى ذلك نسترعي الانتباه.

لم نزل نرفل في عزّ انتظار خطابـــي الرئيس والخليفة، والمـــذيع المتجهّم يكرر في كل لحظة تمر عن ليلة قدر أخرى تنتظرنا في ثنايـــا الخطاب.

*

خرج موكبه مزدانا بالأبهة الرئاسية التقليدية، بأطقم محدودة – هذه المرة – من خطوط الحمايات لقرب المسافة الواجبة، في المركبـــة الأمريكية السوداء المدرعة – شبه الفضائية – أعاد تلاوة الخطاب مع نفسه، يفكر باختيار النبرة الصوتية اللازمة مع كل جملة، يتخيل تدفق الصور الحماسية من بين الكلمات لضبط إيقاع الهزيمة.

اختار الوقفة الفاصلة التي سينقر بأصابعه فيها على خشب المنصـــة محذّرا اللعب بالنار، من أطراف المؤامرة التي سيعلن عنـــهم في الوقـــت

المناسب، ثم تحقق من الجملة التالية (إنها المؤامرة) التي يقف عندها قبل النطق، ليترقرق الدمع من عينيه، حسب توجيهات المستشار السياسي له.

يصل موكبه في هذه الساعة إلى بناية المكتب الإعلامي الملحق بقصر الضيافة الرئاسية المنيف، ليطّلع على عجل إلى آخر المستجدات على الساحة المحلية والعربية والعالمية بتقرير مكثّف من السكرتير الأول، آخذا بنظر الاعتبار فرق التوقيت الزمني لبث الخطاب، والعالم الآخر نائم في العسل.. فالبيت الأبيض ما زال مُسدلَ الستار لغاية هذه الساعة، وحراسه يتناوبون الحراسة الليلية بميكانيكية مذهلة.. أعضاء الاتحاد الأوربي ما زالوا نائمين وملائكتهم تحرس المقر، بعد أن أكثروا من أنخاب شرب "الواين الأحمر" في الليلة الفائتة على شرف الرئيس اليوناني "بافلوبولوس" آملا في تعافي اقتصاد بلده المهلهل.. أما الأخ الحبيب والمضغوط "بان كيمون" فمازال في الحمام يمارس لحظة الاستحمام الأممي، وعندما خرج عبّر عن قلقه كالعادة في بيان مقتضب عن احتلال المدينة. "القلق الكيموني" هو جرعة دواء انتهت صلاحيتها منذ "**زمن حسقيل**". هكذا لخّص موقف الشرعية الدولية.

يجلس الرئيس الآن مع كوكبة من المريدين السياسيين والمستشارين ورجال الدين لحسم توقيت ساعة الخطاب المناسبة.. يخرج مسبحته من جيبه ويهزها ذات اليمين والشمال ثم قال: "بعد صلاة الظهر مباشرة على بركة الباري"، أذن تم الاتفاق على موعد بث الخطاب المباشر.. أخيرا خرج الناطق الإعلامي ليؤكّد لجمهرة الصحفيين: "هل سيخطب الرئيس بعد قليل!؟"

**– نعم.. إلى ذلك أسترعي الانتباه.**

*

## انهض..

صوت من الأعماق السحيقة يصيح بـــي: أنهض يـــا كلـــب يا ابن ستة عشر كلبا عراقيا. ألا تسمع النشيد الوطني؟ إنـــه يمهّـــد لخطاب الرئيس يا..........

- أنا؟؟
- نعم أنت.
- أنا نائم سيدي. أتلذذ في صياغة حلــم تــاريخي جديــد، متحسّسا خنجر جندي الخليفة فوق رقــبتي يداعبــها. في الحلم أدرك تماما أنه حلم ليس إلاّ فأبتسم، فلا خوف على رقبتي، مازالت منتصبة لترفع رأسي.
- الرئيس يقف الآن خلف المنصة، صلّى صلاة الظهر في بداية الرواق المؤدي إلى المنصة، يؤم ثلاثة أفراد من رجال حمايته المقربين وخلفهم السكرتير لم يصطف معهم للصلاة، يمسك هواتف الرئيس المحمولة ويرد باسمه على الضروري منـــها كردّه على قائد العمليات البرية المنسحب أيضا.. إشـــارة البث الحي انطلقت، والناس تترقّب ما سيدلي به في لحظـــة تاريخية من حياة الأمة. وأنت نائم.
- يا أمة تقصد، عربية أم إسلامية سيدي؟
- أمك أو خالتك هزيْمة. قمْ به فأنت عراقي.
- أنا كندي مطعّم بعراقي لم اعتد القيام به من قبل.

*

إنه كما يبدو صباح يوم جديد يطلُّ بصعوبة بالغة ومازلتُ حيا. اليوم يترّتب عليّ العمل الكثير لإنجازه، رغم أني أكره العمل فهو عبودية مذلّة، كما يعرّفه صديقي "جاد الله" وضـريبة مجحفة للبقاء على حد قول "هاتف الصراف"، وكما يعبّر عنه "أبو العوف" أنه عادي جدا. أكره خطابات الرئيس كلها لأنها عبارة عن اختصار مجحف لكتاب فلسفي عميق ومشفّر بلغة منقرضة، معذرة سيدي الرئيس لا أستطيع إدراك محتوى خطابك. دماغي في الصباح لا يستوعب فلسفتكم عن سقوط المدينة. ليس لي قاموسا لفك طلاسمه، والمدينة ليست تفاحة نيوتن سيدي الرئيس.

*

أعيش كحيوان منشطر الذنب بهوية مزدوجة عراقية/كنديـة.. سلام الاسم لا يطابق الواقع.. حيث لم يبق من اسمي سوى حروفه المتنافرة، و لم أذق طعم "السلام" مطلقا، خضتُ مجرورا من أذني كالتيس الأخرق حروبا قاسية قبل الهجرة، غيّرت مزاج حياتي كليا. نصفي النائم ينغمس في خطاب الخليفة المفعم بتطريزات منمنمة في اللغة الثرّة، والآخر يترقب خطاب الرئيس في تلك الساعة.

أنا في بغداد الآن بكامل أطرافي في مصادفة غريبة، ربما أموت فيها على نفقتي الخاصة هنا، لا يهم ما دامت مسبحة الرئيس سالمة قبل أن تنفرط حباتها.. أو ذبحا في سيف جند الخليفة. أحدق ما وراء سقف غرفة النوم.. عين واحدة لا تكفي لاستيعاب المشهد ككل.. عينان لا تكفيان لاستيعاب فكرة العالم المحيط من حولي بمخالبه

الفولاذية. في ضحى ذلك اليوم الحارق الخارق، ورياح السموم تكشّر عن أنيابها، حيث يكون النوم غيبوبة مقنّعة، أتمدّد كجثة هامدة على فراشي المبلّل، أنزُّ عرقا نقيا أكثر نقاوة من ماء الشرب هنا، يبدو أن الحر هذا الصباح نسخة جديدة مصوّرة عن حرائق الجحيم الموعودة، بفعل فاعل وليس كما شاع الماديّون أنه بفعل تماس وشحنة سالبة.. الحل الوحيد أمامي في التخلّي عن سماع الخطاب والأخبار المشوّشة، وتعويضها بسماع ما هو تافه وبسيط.. التفاهة علاج مؤقت لعصاب العصر، تقودني إلى الاسترخاء، تعود ضربات القلب إلى معدلاتها المعتادة بالتفاهة الفائقة..

المزاج متعكّر جدا. أقلبُ جسمي الناحل إلى الجهة الأخرى، زوجتي هي الأخرى ممدّدة بقربي.. كائن آخر مزروع عنوة في حياتي.. "تدردم" في نومها بكلمات غامضة، لقد أدركت مؤخرا بأني لا أحبها ولا أكرهها.. مشاعري غامضة نحوها، لا أفهم كثيرا مما يجول في داخلي، فكيف تدركني؟ أتحلم هي الآن؟ نعم.. ذلك واضح من غمغمتها.. طيّب، بماذا تحلم؟ لا أحد يدرك تفاصيل حلمها مطلقا. ليست لي القدرة على وضع التفسير المناسب لكلماتها المبهمة فهي من النوع الواقعي المقيت.. لكن الذي أعرفه أنها لا تحلم بي، ربما تحلم بسراج.. ابني الرضيع مثل يرقة سرو ملتوٍ على نفسه، يتعرّق هو الآخر بفراشه المزخرف بخرائط بول مرسومة بعفوية تشبه خريطة البلد – ما بعد الموصل-. بلد مُهشّم ب"فؤوس الشرعية" ويأكل من وجبات سريعة بصلاحية منتهية.

والآن في هذه اللحظة الصباحية لا من هواء قط ينسّم في غرفة النوم الضيّقة والمزدحمة بالأثاث، قطع الأثاث المتراكمة فوق بعضها

تساعد على طغيان أجواء الكآبة الرمادية وتخلّف صعوبة في التنفس الحر.. أنا في كرادة مريم. صاح بي مرة أخرى:

- **انهض من فراشك الآن يا سلام**.. الرئيس خرج من الحمّام منذ ساعتين تقريبا، وشرب شايه المُحلّى، ومسح حذاءه وقضم كعكته وبال وقوفا في الحمّام فهو مكانه المفضّل لجلد الأفكار المدوّرة وتنقيح عبارات الخطاب، ثم ترأّس اجتماع خلية الأزمة وصلّى الظهر ووصل المنصّة، وأنت تغط في نومك! كارثة أخرى.

سيصل المنصة بعد خطوات قليلة، هذه إشارة أخرى من مدير كادر البث يخبر القناة بأنه أصبح جاهزا الآن للنقل المباشر، انهض.. يكرّر صياحه بما يشبه برنامج المحمول في التنبيه المزعج.

لا وجود لصياح ديكة بغداد الرشيقة على الأسيجة الواطئة للبيوت كما في سالف الأزمان، أخذها غفوة عن إدراك الصباح حتى غدت فيلة كسولة.. جهازي المحمول هو الذي يعزف كبديل عن كل الديكة الكسولة التي بدت غافية في ساعة الفجر وتناست واجبها الوطني في الصياح الحر..

- **انهض**.. يا سلام يا وافي، الرئيس يتحنحن الآن، ها هو ينش ذبابة طنّانة فوق أنفه الأفنص. والخليفة يكفّر بالثلاث المطرب المرحوم داخل حسن وسيهدم قبره في القادم من الأيام إذا لم تنهض الآن.

كان أحد أفراد التشريفات يرتّب أعلام الجمهورية خلفه نافخا طيّاها، وآخر يعيد رأس شعار النسر الجمهوري في مقدمة المنصة الرئاسية إلى وضعه العمودي في منتصف الفراغ.

- ما أنا بناهض قطّ، (زين!؟)..

خارج غرفة النوم يزعجني صهيل سيارات الشـرطة الجامحة وصراخ رجالها بمكبرات الصوت في مناداهم لفتح الطريق، كيف تفتح الطرق في لجّة أكوام السيارات المختنقة عند التقاطعات وسيطرات التفتيش المُرابطة؟ لا جواب قط، الحياة البغدادية أكثر غموضا من فلم رعب "هتشكوكي". ملتبسة ككرة خيوط الصوف، لا تفاسير ميسّرة عمّا حدثَ ويحدث.. النوم فقط هو وحده ما يجعلني أتحمّل مرغما رعب "بغداد السلام" المحيط من حولي..

- **انهض**.. هو النداء الأخير وإلاّ سيزعل الرئيس عليك....... سيعاقبون كل من "غلّس عن سماع خطابه"، سيوصف بجريمة التخاذل والعمالة والبعثية والداعشية.

إنه يقرض الصفحة الأولى من الخطاب بسلام و لم يلحن في تفاصيل لغة البيان الشائكة، سيصل قبل انقضاء النهار- بعونه تعالى- لعقدة سقوط المدينة، سيوجزها في سطرين كما هي العادة. ويتوقع أيضا "المنجمون الستراتيجيون" أنه سيحذر "نيوتن" من مؤامرة السقوط ويدمغه بالخيانة العظمى.

أخيرا نهضت من كابوس مرعب، مضطرا خائفا مرتبكا عمّا سيحدث لي في الساعات القادمة بعد خطاب الرئيس.. رفعت رأسي محدّقا في صورته البهية:

- الكهرباء مقطوعة سيدي الرئيس معذرة.

*

## اليوم 2014/8/1

بمناسبة مرور خمسين يوما على الخطاب رفعوا الأعلام وعادت الأناشيد الوطنية من جديد:

من النوم أصحو، وقد ولّى اليوم الأخير من أيام تموز، في شهر تموز تساقطت مدن وبلدات أخرى بيد صنّاع المؤامرات كما يقولون، بعد أن صدقت المقولة العجائزية التقليدية "تموز ينشّف ماء الكوز" حيث نشّفت روحي الذائبة معه، **والخليفة وصحبه من الجند والأمراء لا يشعرون في الحر الجحيمي**.. الساعة الثامنة صباحا تقريبا، أنهض بتثاقل المنسحبين من الفرش.. هرب النوم وحلّ النهار في صحوه المباغت. في أول يوم من شهر آب. "حرّ آب يخلع المسمار من الباب". ماذا أفعل؟ الحر الصمغي يتفاقم، يذيبني كقالب ثلج على الرصيف فتتبخّر روحي الملتاعة..

واجهة المحمول تشير إلى أن درجة الحرارة في بغداد لهذا اليوم (49) مئوية قابلة للزيادة كلّما توغلت في غابة النهار المتصحّر.. حتى هذا المحمول يكذب هنا قبل أن ينفجر.. بدت لي الأجواء أكثر حرارة حتى من لهيب الجحيم المحتمل والموعود لأمثالي، مقياسي البايلوجي يشير إلى ذلك، واضح جدا في لزوجة التعرّق بفضاء صمغي.. تيبّس شعرات الرأس المتبقية.. تهدّل الخصيتين، انخفاض ضغط الدم.. انقطاع الكهرباء.. الحاجة إلى شرب الشاي القاتم فهو ترياقي المفضل.. صخب التظاهرات وجنون باعة المفرد في المناداة لبيع قوالب الثلج المنصهرة.. كلها تشير إلى حرارة متزايدة في الأجواء. غالبا ما تفضح الشمس الساطعة عيوب النهار بوقاحة في قدرتها على اللعب والمخاتلة. الحر يبالغ برعونته والمزاج الحاد يدفع للقتل، كما

فعلها غريب كامو" ميرسو" سألته المحكمة عن دافع القتل فأجـــاب: "كان الحر شديدا جدا والشمس حارقة". ربما سيقتلني أما الرئيس في زمنه أو الخليفة العائد بقوة من بطن التأريخ.

في طريقي إلى الحمّام اصطدم بدمية طفلي الوحيـــد "ســـراج" ملقاة في الممر الضيق كالمصطدم بجثة هامدة في ظلمة لزجة.. دميـــة ساذجة وغبية بشعر أصفر مهلوس وعينين مسدلتين، الدميـــة تعـــاني مثلي من خسارة موجعة متتالية في ضياع ذراعها المنفلت في زحمـــة أثاث شقتي الصندوقية، الحمّام بائس ومقرف برطوبتـــه وروائحـــه الثقيلة، كآبته المتكلّسة على الجدران وأنابيبه الصدئة حوّلته إلى شـــبه محجر لسجن أزلي.. يوشوَشَ الماء من الصنبور بتكاسل ليندلق بـــبطء على المغسلة العاجية المتسخة، الماء يترنح كراقصة باليه خائفـــة مـــن السقوط، رغوة صابون (LUX) برائحته المشّعة تشعرني بالانتعـــاش المؤقت مرة أخرى وبالعودة مجددا إلى قعر قِدر الحياة شـــيئا فشـــيئا، مغادرا لجّة الكوابيس الثقيلة ولزوجة التفكير القيري..

تبيّن أنه كابوس ثقيل، أدركت ذلك عندما صـــحوت.. لقـــد وصلت بعد أيام من الخطاب، فمن يا ترى ذلك الذي وســـوس في أذني أثناء نومي؟ شيطان رجيم ربما بعثه الرئيس. ربما هـــو رســـول الخليفة.. احتمال قائم. والأفضل في العودة للنوم مجددا ذلك أفضـــل حالا.

*

**:8/2**

مضت الأيام الماضية ثقيلة على وجودي في بغداد، لم أفهم محتوى خطاب الرئيس بخصوص المدينة المسلوبة. لكني لم أصرّح بذلك، رغم محاولتي في التلصص على الفضائيات في تحليل محتوى الخطاب الستراتيجي والتكتيكي، وبصراحة شديدة أمقت هذين المصطلحين التافهين.

على العموم اليوم لديَّ جملة التزامات عليّ الإيفاء بها في تلك الأجواء الجحيمية، ومتابعة أعمالي الذي جئت من أجلها، ففي العاشرة صباحا يتوجّب عليّ لقاء "أصيل عبد الحميد" إذ طلبني لأمر هام.. هذا المسكين الذي لعبت فيه الحياة ككرة بين أقدام جند الخليفة.. بعد ذلك أذهب لمتابعة الموعد المؤجل بتهيئة مادة فلمية عن مجموعة الأشخاص الذي ينوون الانضمام لرابطة (كفى) للانتحار الجماعي. رابطة ذاع خبرها وتداولها في الشارع البغدادي وعلى شبكات التواصل الاجتماعي، جماعة ذاع صيتها في السر يأملون بانعقاد مؤتمرهم التأسيسي على قاعة رحبة غير معلن عنها إلى هذه الساعة، فالجماعة شبه سرية في تنظيمها رغم حديث الشباب في الأماكن العامة عنها وفي شبكات التواصل.. لقد وافتني رسالة على المحمول من شخص يزعم أنه ناطقها الرسمي، قال مختصرا: "هي رابطة واعدة تهدف للعمل على راحة منتسبيها وطمر طموحاتهم إلى الأبد والتخلص من الهزائم والحر ولغط الجماهير". والله فكرة ممتازة، ربما سأفكر بالانضمام إليهم لاحقا بعد كل هذه الانسدادات.

أما المشوار الثالث فهو الأكثر مشقّة حيث يبتدئ بمصاحبة فريق العمل لتصوير جماعة من عائلات الغجر المتنكرين على تخوم العاصمة في أماكن سكناهم وتحديدا بعد عودتهم من رحلة التسوّل اليومية في

التقاطعات، يطالبون بجملة مطالب أولها التمثيل البرلماني ولا تنتهي بالمرتبات..

أما آخر موعد مسجّل في قائمة المواعيد، هو أني في الساعة السادسة سأذهب إلى بيت أخي غسان العقيد المنسحب من مدينة الموصل. وأنقله إلى طبيب مختص في الصم والبكم، على أمل تخفيف الكآبة التي جعلته يطيل الصمت، وهو صائم عن الكلام منذ يوم انسحابه بعد عودة زمن الاحتلالات مجددا..

البارحة ليلا جاءتني رسالة (sms) عاجلة من صديقي المغترب "هاتف الصراف" في فرنسا يطلب فيها التحرك العاجل لإنتاج الفيلم الوثائقي الموعود عن النزوح الجماعي للمدنيين من مدنهم.

"كل شيء هنا جماعي | " ختان/زواج/نزوح/موت/مشي/ركض/ رسوب".. ورسالة أخرى لتأجيل الرسالة السابقة، ليخبرني عن تصوير فيلم (شارع13) في البتاوين، يطلب تصوير الحياة السرية لجماعة "الجراوة". وبعد الاستفسار اتّضح أنهم مجموعة من الشواذ يمارسون اللواط في الفنادق والكراجات خلف السيارات المحروقة وبقاياها المتشظية. يسميهم هو بالمثليين العراقيين الذين يعانون من الاضطهاد والعنف المجتمعي المزدوج جرّاء ثقافة الخليفة وديوانه. ملعون هذا صديقي هاتف الصراف في اختيار مواضيع الوثائقيات، كيف اكتشف كل تلك الخبايا المغلّفة؟ هل تصوير الشواذ أهم من نزوح الملايين بعد سقوط المدن؟ أم هو نتيجة طبيعية لما حصل؟ طبعا هو يكره مفردة "شواذ" وعندما زلّ لساني أمامه، عنّفني كثيرا لأنه يعتبرهم نتاج ثقافي المتآكلة حسب وصفه.

*

بلاغة قيد الحذف من الفلم: ((***نحن سلامان في جسد متهالك، الأول هو الوافي يريد الإيفاء في هذا النهار بالتزامات عملية والثاني يحمل الاسم نفسه، يغري الأول في النوم بحكمة "ابيقراطية" قديمة عنوانها "الكسل هواية".. طيلة اليوم يتخاصمان على مساحة الجسد، الآن يحاول النصف الكسول العودة للنوم مجددا بتناوله القرص النهاري الجديد من شريط حبوب "فيلكا"، فيجرّه الأول من أذنه إلى الحمام بقوة***)).

في الحمّام يتوافقان على الانشطار بعد صراع دامٍ، سيذهب كل منا في طريقه، يقول الأول: سأبدأ يومي في المشوار المخصّص لأصيل، ستكون مدّته كما حسبتها بساعة واحدة فقط.. أصيل هذا مهموم.. متخبط بعوزه وفقره وضياعه وغربته.. أبوه عبد الحميد الصباغ كما يدّعي، وأمه تدّعي أنه أصيل يوسف.

- إياك أن ترضى بقدرك المكتوب.. تدخّلْ بقوة وضعْ لمستك السحرية في مسار القدر السافر.
- ما أفهم كلامك أخي سلام.. المهم لا تنسى أنا محتاجك بشغلة جدا مهمة.. لا تنسَ.. الله يخليك حبيبي سلوّم فموعدنا هذه المرة هو الأهم.

حقيقة أني خجلتُ لكثرة مواعيدي الزائفة بالحضور، وخلفت الموعد معه في أكثر من مرة.. كل الأصدقاء يعيبون عليّ عدم التزامي في دقّة المواعيد وتلك من مخلفات ثقافتي العراقية والنوم العميق. أدركت مؤخرا أن الحضارة ليست الرقم الطينية والتماثيل المحنطة في المتاحف وشواخصها، إنما في ثورة المعطيات اليومية للتقنيات الحديثة المنفلتة عن منطق التطور المعقول، غيابها في تردّي الكهرباء والقطع

غير المُبرمج، بدونها لا من مواعيد مضبوطة هنا، فقدتُ الإحساس بجدوى دقة المواعيد.

أنا خائف كثيرا من رعب المكان هنا في بغداد.. خائف من المجهول وما تحمله الأيام القادمة.. القادم من الأيام سيكون أكثر عبثا بعد إضراب غسان المزمن عن النطق وسوداوية فكرة **رابطة كفى** والبحث عن شخوص مجهولين شبحيين من "الجراوة" في شارع 13.

لغاية هذه اللحظة زوجتي ما زالت في غيّها غاطسة في حضن النوم تسبح في عرقها مع طفلي الأنبوبي الوحيد "سراج" وهو يحدّق في المجهول بنومة ساهمة.. أفكر هذه الأيام بقوة من ترغيبها للذهاب إلى أهلها في الحلة، لكني لا أستطيع قول ذلك مباشرة، فينفتح باب آخر من جهنم.

بهدوء اللص المحترف أفتح الكنتور لأستلَّ منه قميصا "أوف وايت" يناسب بنطلوني الجينز الثلجي لقد أحببته كثيرا.. اشتريته من كندا الصقيعية التي غادرتها منذ فترة.. فضّلت العودة به إلى بغداد بعدما استأجرت هذه الشقة للعيش والعمل المؤقتين فيها..

أحاول ألاّ أثير قرقعة توقظ زوجتي، فتنهال عليّ بطلبات يومية سخيفة مع توبيخ منقّع بعبارات تصدرها كالنشيد المحفوظ، "القسمة السودة/الحظ العاثر/التوفيق الملطخ بالسخام"، كل ذلك يحدث على الصبح.. غالبا ما أكره التقريع في الصباح لكني أتقبّله مرغما في عموم اليوم منها. رغم طفل الأنابيب "سراج"، هذا المصنوع تقنيا كريبوت من لحم ودم في كندا، لكنها بقيت تتعقّبني بالتقريع والشتائم اللاذعة، مشكلة حقيقية ليس لها حل واضح هذا اليوم. أحاول أن أغلق باب "الطلايب" الصباحية، لها رائحة الفأل السيئ واليوم المنحوس..

الحياة في بغداد كلها تشير إلى أن "الوضع المتـــردي" مؤقـــت بطبيعته.. كل الإشارات الواردة تشير إلى أنه سيتحسّن تدريجيا وفق برامج القنوات الفضائية.. وهذا هو (كذب رسمي) ومورفين مغذي.. ومعه طابع بريدي بماركة "الله كريم".. مع يقيني الراســخ أن كـــل أحلامي زائفة.

*

وصلت إلى بغداد، بعد احتلال الموصل مباشرة، وكـــان علـــيّ توفير الأقراص المنوّمة كل أسبوع لأخي غسان، اضطررت لشـــراء أقراص الموكادين المهدّئة، بعدما شحّت معظم الأقـــراص المّنومـــة في الصيدليات، وكان علي الوصول إلى قلعة الباب الشرقي الحصـــينة، رغم فشل تحذيرات الآخرين من التوغل في عمقها؛ فالغواية كانـــت هي الأجمل. تعرّفت على خبير ستراتيجي معروف في الأنواع المنومة يدعى "**ابو العوف**"، والذي بدوره يعزو سبب الإقبال العظيم علـــى المنوّمات بأنواعها وحبوب الهلوسة المريحة لشحّتها والإقبال المتزايـــد للجنود والضباط المنسحبين، يتوافدون فـــرادى أو جماعـــات علـــى قلعة الباب والبحث عن آخر المنتجات الغربية من أصناف جديـــدة من الحبوب. "البلع" مصطلح شعبـــي للتعاطي مع الشـــاي الحلـــو بإفراط في البيوت أو المقاهي السريّة في قلعة الباب والميـــدان وبـــاب المعظم، البلاّع يشعر في برودة سياحية أثنـــاء ســـريان المفعـــول في الصيف، وفي الشتاء يشعر بالحرارة تنط من صدره، فعلا كما وصفها ب"الحبوب المكيّفة"، حتى أن وحدات الجيش المتهيكلة - مـــا بعـــد الموصل - كانت توزعها مع الأرزاق للجنود المخذولين. أصـــبحت

وصفات الحبوب هي الدواء الناجع" رغم كرهي الشخصي لمفـــردة ناجع، وصفات "أبو العوف" هي البلسم للروح المنكسرة وليســـت المتشظية كما تفيد الفضائيات المغرضة.. لقد جرّبت الأنواع الحديثة للحبوب في كندا، لكني استطعت الإقلاع عن تعاطيها رغم إلحـــاح الصومالي الكارثي "جاد الله" جاري في السكن للعودة إلى حياة النوم الطويل.

*

**الحياة هي هي** بل وعادية جدا.. تلاشت الأناشـــيد الحماســـية وعادت البرامج إلى طبيعتها المعهودة، الشيء نفسه كل يوم يتكـــرر. أنظر من نافذة شقتي الصندوقية فأرى البخار قد تصاعد مـــن قِـــدر العاصمة المفترضة بكثافة وخبَل. الغريب أن الناس هنـــا تتلـــذّذ في ساعات الذوبان القصوى، يسخن الزئبق الأحمر في المحرار الزجـــاجي المعلّق على الجدار، تصل النقطة الحمراء إلى نصف درجة الغليـــان في ساعة الذروة الصباحية، فأسمع أغنية سعدي الحلي.. "حبيبـــي أمك ما تقبل" تنطلق من (ستّوتة) حمراء تترنح في الشارع تحـــت الشـــقة يقودها "بلاّع" مفلس، هكذا أدرك أني ما زلت موجودا على قيـــد بغداد في هذه الساعة.. الكهرباء مقطوعة لأكثر من أربع ســـاعات على التوالي داخل الشقة/الفرن ولا من شربة ماء بارد تطفئ عطـــش شخصين متصارعين في داخلي، الأول يرغب بالصحو والثاني يحاول الخدر حالما بغشاوة ثقيلة بنوم تاريخي مجيد، بالمناسبة مفردة (مجيـــد) منتهية الصلاحية كـــ "vailliom10" منذ زمن بعيد هنـــا.. بينمـــا مبردة الهواء أصبحت "قحبة عوراء" تضحك من خلف النافذة.

**جند الخليفة لا يشعرون في سياط الشمس وقساوة الحـــر..**

اهبط سلالم العمارة المظلمة على عجل، تلفحني هبّة قوية من الحـــر الشديد، تتعانق مع زعيق السيارات المتكدسة بعنف ملحوظ قـــرب السيطرة القريبة من مطعم "حيدر دبل".. وكـــان يتوجـــب علـــي مستقبلا معرفة دبل هذا، أعبر إلى الجهة الأخرى من الشارع، لتكون المنطقة الخضراء خلف ظهري. فات أكثر من ساعة على الموعد الذي ضربته لأصيل في مقهى "رضا علوان" في الكرادة داخل.. أيقظـــت المحمول من غفوته وأنا في التاكسي الأصفر لتهاجمني حزمة من رسائل الــ sms دفعة واحدة على المحمول، رسائل تافهة من شركة الهاتف النقال. أين هو "عراقنا"؟ فالشركة تنصب الفخاخ للمتّصلين لســـرقة ما تبقى من أرصدهم. مثلما تسرق الأحلام البريئة في جنّة النوم.

نغمة الرسائل تطنطن لتشير إلى رسالة (sms) تفصح عن رسالة من المتصل أصيل: "أنا في المقهى يمعود وين صرت....."، اتصلت به على الفور:

- صباح الخير أصيل شلونك أنا في التاكسي.. عشر دقـــائق وأكون يمّك. انتظرني حبيبـــي.. أوكي باي... لم أتحْ لـــه المجال للرد على مكالمتي.

كل المواعيد المتأخرة هنا تنتهي بجملة واحدة (أنا في الطريـــق)، أكذب أكذب أكذب- المرة الوحيدة التي يصادف أن اصدق فيهـــا، قلت له "أنا قادم في الطريق".. الكل يكذب بفنون مبتكرة في تحديث آلية الكذب القديمة.

سائق التاكسي يضع منديلا رطبا متّسخا على رقبته، ثمة علبـــة سجائر **Aspen** ترقد بأمان قرب فتحة التبريد، قنينة ماء مثلج منتصبة

إلى يمينه.. يثرثر بأمور غير مترابطة ويحاول توريطي في هذيانه من دون فائدة، لكني أخشى هذيانات صاحب التاكسي منذ الحقبة المنصرمة، فهواجسي ترسم صورة أخرى له كوكيل سري للسلطة، فألجِمه حجرا بصمتيَ الصخري ربما يكون من الخلايا النائمة في ربيع نوم حبوب الهلوسة:

- هل سمعت خطاب الرئيس. بالنسبة لي وبصراحة لم أفهم منه كلمة واحدة، أنت يبدو من مظهر مثقف أريدك أن تشرح لي بكلمتين ماذا قال في الخطاب.
- والله ما أدري.. الكهرباء مقطوعة و لم اسمع الخطاب.

بـ (طلاع الروح) اجتزنا جسر الجمهورية ووصلنا إلى ساحة التحرير المزروعة بصفار فاقع لسيارات التاكسي مضافا إلى لون أخضر بليد وطاغٍ لسيارات الشرطة.. حتى دخلنا الكرادة بأمان، والحياة كما هي، والخطاب لم يغير من الحياة شيئا، والواقع بذيء أكثر من راقصة ليل سكرانة تتقيأ على المارة السائرين.. لا تغير في ساحة الأربعين حرامي، سوى قفار الفضاء المحيط فيها من الشوارع الأربعة.. لا بذاءة أكثر مما نحن عليه.

- نازل حجي يمّك... اشكد تأمر
- خليّها عليّ
- شكرا حجي
- خمسة بس عمّي..
- تفضل حجي.

(حجي) مفردة شاعت وانتشرت بشكل فايروسي حتى وصلت إلى شارع السعدون معقل المدنية الزائلة.. ومع أول بزوغ مبكر

لخصلات الشيب لتصبح بمثابة الهوية الموحدة، ورغم البعد الجغـــرافي عن الحرم المكّي، أصبحت دلالة عراقية في التخاطب.. ضغطت على زر التوقيف المؤقت (STILL) موقفا هـــذياني الـــداخلي، ليكمـــل شطري الثاني نومته.. **أنه يحلم الآن:**

إنه يحلم.. يحلم الآخر المتقاعس عندما تركته في شقة الصندوق يمارس هوايته في النوم، يحلم بعودة تيار الكهرباء لتتحـــرك مروحـــة السقف، للإطلاع مجددا على تحليل النص الكامل لخطاب الرئيس.

**بعد حين:**

الآن عاد تيار الكهرباء وتحرّكت مروحة الســـقف. دار دولاب مبردة الهواء ليقذف بدموعه نحو الفراغ المظلم بين الكنتور وســـرير سراج، ولا من جديد حتى هذه اللحظة. على **الرئيس** أن يضـــع في كفتي الميزان مجمل الخسائر المتراكمة من جهة والأربـــاح في الجهـــة الأخرى.. بالتأكيد ستكون الكفة الأولى هي الراجحة. على **الخليفة** أن يترك قبر هزيْمة خالتي على حاله، ماتت كمدا عندما غرقـــت في بحر خطابات الرؤساء الذين رحلوا. موتها المبّكر برقبة لكل رئيس أو خليفة منهما.

***

## 3

# خالتي هزيْمة

### أول من أمس:

((لا أبدا.. أنا مجرّد واشٍ ونمّامٍ فقط، وتلك مهنتي التي أحبــها.. لستُ سوى راوٍ لتفاصيل نميمة التقطتها من فمها الأدرد، أنفخها في الهواء فتصيب الناس جميعهم بشررها، ورثتها من خالتي مطبوخة على موقد من حطب العروق الصحراوية.. خالتي تدعى **هزيْمة** ولِــدَت وعاشتْ يتيمة، ولِدَت من رحم الهزائم، لا من أبٍ شرعي لهــا.. لا تعرف أباها - كما يقولون - في النميمة الطازجةً مطلقا، تعطيهــا مباشرة وتلصقها في الوجه. "طاشوشة" فنجالها طبق دائــري مــن خوص النخيل منقّوعا بالقير، تلعب في وسطه أرواح معذّبة، وشايتي عنها ستكون طازجة، سأنقلها لكم من ليف جــذورها، لأشــعر في الراحة بعدها، وأزيح بذلك جبل الأسرار عن صدري. ها.. نســيت أن أخبركم أن خالتي كلبة مبلّلة في نميمة الرؤوساء)).

مثل باذنجانة مشوية على الحطب، تُركت منسيّة في طبق الفاقة والخوف، باذنجانة أحرقتها شمس الله، هكذا بدت الحيــاة العراقيــة المُحاصرة كهيكل عظمي أكله بجنون قطيع ذئاب جائعــة.. خــالتي

المرحومة هزيْمة تشبه باذنجانة الحصار الاقتصادي، في ظل أيام الخوف الرهيبة وشحّة خيال الخرافة في إشباع الأرواح الخاوية، "**هاجرْ يا ولد.. حيث أرض الله**"، ثم سكتت هزيْمة عن القص المباح.. هي "طاشوشة" وليست عرّافة رسمية، تطشّ في طبق من خوص النخيل.. رموزها الكونية قفل صفير ومفتاح وزر معطف عسكري ثقيل، وقطعة دومينو مثلومة، وحلزون بحري، وحلقة مفرغة، وإبرة خياطة، وقطعة جلد مدبوغة مشدودة بخيط قماش أبيض، وعلامات فارقة أخرى، تجمعها في الطبق ثم تطشها لتتفرق ثم تقرأ الطالع من الشتات.. أخيرا ماتت قبيل سقوط مدينة الموصل كقطة مهروسة على الطريق العام، إذ داست عليها كل مركبات الكون الطويلة، أضلاعها ناتئة ووشمها الأزرق على وجهها الرمادي كخريطة ممزقة للوطن بجغرافيته القلقة.. بفقدها تأخر النطق في النبوءة، فقررتُ الهجرة إلى أي بلد باستثناء الحبشة: "مَنْ سيدعو دعوة مستجابة على الطغاة ويسكتهم بعدك يا خالة؟". قبل سكتتها التاريخية، في فترة هوس الهجرة من بلد حبة العدس طشّت بطبقها المبارك لتعلمني بآخر أسرارها:

- بوجهك غربة درب طويل وبعيد.. وأخوك غسان دربه مظلم.. درب يضيع فيه "الذيب الأمعط"..

كانت تكره الرؤساء قاطبة، في أثناء الصلاة كانت تطيل الدعاء المخيف عليهم، كل رئيس يأتي يُقتل شر قتلة أو يسحل في الحبال أو يشنق أو ينزوي كجرذ، تلبية الباري لدعواها الطويلة المملّة الملحّة عليه. إنه ينزعج من إلحاحها عليه فيستجيب مضطرا إذا دعته: "تلتصق كقرادة الخيل".. أدعية خالتي لا تنزل الأرض مطلقا.. في

ساعة الغروب تنفش شيبها الأبيض وتكشف عن نهـدين يابسـين، كتينتين مجففتين تحت شمس الله.. تخرج إلى صفحة السماء مباشـرة وتستهل الدعاء القاتل في التغيب والجعير المر، فنعـرف أن الـرئيس سيموت أو يزول. ترى من بعدك سيدعو دعـوة مسـتجابة علـى الخليفة والرئيس معا؟ لا أحد. دعواتها على زعمائنا مستجابة علـى الفور من الباري: "عساك تتغدّى ما تتعشّى.. عساك تشرب المـاي وتزوعه.. عساك بالشهيرة والفضيحة، تنام ومـا تكعـد.. عسـاك باللهواية والفرفاحة.. رصاصة بصلصول الإذن، ربـي بجاه كلمـن عنده جاه أريده كون اليوم قبل باجر يسكت فرد سكتة".. تطلـق تسميتها الخاصة على كل رئيس، ف "الكابجي" آخر الرؤوساء الذين دعت عليه، وقبله "كبّاحي" وقبله "الكبيحي" وقبله "كبّاح" وهكذا كبحتهم كلهم قبل أن يكبحها الباري. ماتت خالتي هزيْمة قبـل أن أعود بفترة وجيزة.. حرامات.. للأسف، غصّت بخطاب أحـدهم، فضاق الهواء المحبوس في صدرها، فسكتت إلى الأبد.

*

عام 1996 بحقيبة "adidas" سوداء حصارية مهلهلة هربتُ من العراق إلى الأردن مع أفواج المهاجرين من الجوع والخوف والقلـق والفراغ الهائل وفق وصية لها.. تحققت بواكير غربتي وصدقة خـالتي هزيْمة بطشّتها الأخيرة.. بعتُ مكتبتي كلها إلى كاتب شاب وبسعر زهيد، لكنه يؤمن لي أجور السفر وضريبة السفر، فتحول هذا الشاب المسكين إلى جرذ يقرض أوراق الكتب، حتى قيل لي أنه مات مـن الجوع وبيده كتاب أصفر لا يؤكل ولا يُشرب.

لم أكن شيوعيا بربطة عنق حمراء، لأني أمقت فلسفة الجوع المثالية، ولم أكن إسلاميا معارضا، لأني أمقت اللحى السائبة وفلسفة الغيبيات كثيرا، ولم أكن بعثيا فقد منصبه، لأني أمقت الشوارب الطويلة وفلسفة الوحدة الرومانسية. خالتي هزيْمة أوحت لي بفكرة السفر عندما ذكّرتني: "**أرض الله تسع البقّة والبعير**".

الحصار تمخّض عن بطالة مرعبة، البطالة تمخّضت عن فراغ، الفراغ ولّد قصائد شعر "عنجورية"، والمنفذ الوحيد المتبقي للعراقيين الهاربين هي العاصمة عمّان، تركتُ البلد خلف ظهري غاطسا بهموم الفاقة والعوز والبحث عن منقذ واضح الملامح يخرج ما بين النهرين، بعد تعسّف ملحوظ ووقح من الحر والسلطة في تحالفهما مع الفراغ، "العراق يبعث على الجنون بتفوق تلميذ شاطر"، قلتها في مفتتح قصيدة قبل أن أهجَرَ الشعر إلى الأبد.

مكثتُ أتقلّب كـ "الصايع" على أرصفة العاصمة عمّان لأربع سنين متواصلة، كتبت الشعر مسترزقا منه في مجلات وصحف عربية وأردنية، تركت شرب العرق المحلي المغشوش في لبّ أيام الحصار ضيقا، وهي العادة العراقية الملحّة مع ملازمة الكتب والقراءة، توجّهت بكامل قواي إلى الله مستغفرا علّه يهديني هداية تدخل الأمان في قلبي وتنصرني على الجوع، حتى حانت الفرصة المواتية للهجرة من دون هداية واضحة. الشعر مهنة "الإستفلاس" الأولى وطرد شبح البطالة بشكل مؤقت.. حانت لحظة قدرية لتتحقق لي الهجرة إلى كندا في نهاية عام 2000. هاجرتُ نحو حبشة الله الجديدة للائذين من الرمضاء، تاركا خلفي صناديق مقفلة من الأحزان المتراكمة منذ سنين.

رحلتي الماجلانية هي رحلة تاجر خسران، من بغداد إلى الأردن ثم إلى كندا والعودة مجددا إلى بغداد، حتى شارف العمر على نفـــاد الصلاحية، عدتُ في ظروف صعبة للغاية بعد سقوط مدينة كـــبيرة كالموصل بكل ما فيها من تاريخ وبشر وجغرافية، أختـــلّ التـــوازن واختلط النوم بالصحو، وتعكّر المزاج المصاحب للرحلة، بدأت هجرة الناس بكثافة للهرب من هشيم البلد المثلوم.. أنا الخائب الوحيد عائد إليه.. ماذا فعلتَ بنفسك يا سلام يا وافي؟ ماذا حققت مـــن ربـــح؟ ماذا خسرت؟ جسدك الواهن توزع بين قبائل لبلدان شتى.. ولا من أرض تحتضنك كأم تحنو على وحيدها.. أندب نفسي إن لم تنـــدب إحداهنّ هذا الرمّة..

في كندا حاولت التخلّي عن عادات وممارسات عراقية تتعلـــق بطبيعة ونوع الحر المتوحش وشبح الخوف الهستيري مـــن الســـلطة والبطالة. "لن أعود حتى لو بعت الخبز اليابس".. هذا الشعار الـــذي رفعته منذ الأيام الأولى لبداية الهجرة.. فالشوارب السود المصـــبوغة بالأسود خلفي هناك تتجوّل في الشوارع بحثا عن فريستها عن مواطن مخذول مثلي، حقا تخيفني تلك الشوارب الطويلة، يعتنون فيها أكثـــر من عنايتهم بغسل مؤخراتهم، وتذكّرني بجبروت السلطة وخازوقهـــا غير المدهون، تخيفني أيضا قائمة جرد المواطنين واســـتمارة القســـيمة الحزبية والتعداد السكاني وأسئلة مختار المنطقة البوليسية تصيبني برجفة بدنية دائمة، سيطرة الطرق الفجائية بلباس مدني تصيبني بالإســـهال الحاد والرعاف.. تجهّمُ وجه المذيع في الساعة الثامنة مســـاء يربـــك الحواس. الجدران العالية الملبوخة والأسلاك الشائكة تفقدني السيطرة على التبول الطبيعي، كلمة السلام عليكم من الغرباء تصـــيبني بـــداء

ثول خرفان الفواتح الخاص.. هويتك أخي، تحيلني إلى حالة إغمـــاء كبرى، هربت.. نعم هربتُ بالروح العزيزة.

هاجرتُ وتركت حمولة الأحزان خلف ظهري، حتى تيَبّســـت القصائد في عروقها لشدة الوحشة والبرودة الزرقاء.. {الشِعر تـــوأم الحر القائظ}، لم يقلها أحد غيري.. حينها فكّرت جـــديّا بـــدخول عالم الصحافة الأقرب لي من الشعر، فتخلّصت من القلـــق والمعانـــاة وقد أودعتهما لشعراء أرصفة عمّان. كندا "صندوق الفريزر" المتجمّد لا يصلح مطلقا للشعر، بغداد مع كاس العرق المغشوش هي الحاضنة الحقيقية له، تركت العادة السرية لكتابة الشعر الممنوع وتخت المقهى وصحبة صعاليك (اللغوة) منهم، وتوجهت بكل قـــواي مســـتنجدا برب هذا الكون لينقذني من الشِعر. الصحافة ســـتكون أقـــرب لي للبحث عن الحقيقة الضائعة من سوها في مجالات الحيـــاة العزاقيـــة الملتبسة بقراءة الماضي من ألغازه.

في الأردن كان يعمل العراقيون في مهن شتى. المثقفون منـــهم ينشرون القصائد في النهار ويســـكرون بأثمانهـــا لـــيلا، ينتشـــرون كمجاميع مفلسة في الحانات والشقق البائســـة ومـــزارع المتـــرفين، بعضهم راح يجرّب حظه للعمـــل في صـــحف المعارضـــة العراقيـــة وإعلامها، ويقبض أجوره من الدنانير القليلة. حياة مقرفة بانتظار ما ينتج عنها من حلم الهجرة الأوسع والحياة الكريمة بعـــد أن فتحـــت منظمة الـــ UN أبوابها لهم وتوزيع اســـتمارات الهجـــرة للعـــرب والعراقيين خاصة

وصلت أخيرا إلى المهجر، البرد لا يطاق هنا في كندا، أنا القادم من التنور العراقي حيث يغرسني قدري اللعين كعود معوج في منطقة

تُعد هي الأكثر برودة من بين دول العالم.. كنت متسلّحا بالعـــدم، فحتما سيعينني على تحمّل هذه الغربة القاتلة مثلما أوصتني خالتي قبل وفاتها.. انتقلت من منطقة حارة بتسع وأربعين مئوية في الزائد والحياة طبيعية والقصائد تتبختر على تخت المقاهي، وصلت إلى منطقة بتسعة وأربعين مئوية تحت الصفر والحياة طبيعية.. "الله أكبر"، إنه التطـــرف الحقيقي. كيف أعيش يا ربـــي هنا؟ والتطرف يأكل لغتنا وثقافتنـــا وأمكنتنا. الخليفة يتوعد الجميع في عقر بلاد الصليبيين. أين أذهـــب يا خالة؟ النوم هو الحل.

الفراغ ولّد الوحشة الأكثر قسوة من البرد. لأكثر مـــن مـــرة فكرت بالعودة إلى مكاني الأول، لكن الصورة في داخلي واضـــحة الألوان.. البيرية السوداء مائلة والشوارب السود كالخفـــاش علـــى الفم والسيجار البني والجداريات الملونة، تمنعني من التفكير بـــالعودة مجددا.

- والحل يا سلام؟

الحل كالآتي.. قال الشخص الآخر القابع فيّ: "أطلب من أهلك المتبقين في العراق مساعدتك في الزواج طلبا للدفء"، هذا هو الحـــل المناسب في هذه الفترة الحرجة.. البرد يبعث على الوحشة أكثر مـــن الحر حتى إن تجاوزت الدرجة حاجز الـــ (49).. لكن أهلي ألقموني على عجل بواحدة كيفما اتفق.. من المؤكد قالوا فيما بينهم: "المهم يتزوج ويستقر". أي استقرار هذا الذي قصـــده أبـــــي؟ وحيـــاتي كالبندول المجنون ليس له مستقر ثابت والشعر أصبح كدواء منتـــهي الصلاحية.. العراقيون هنا ليسوا كما كانوا هناك. هناك يتراكضـــون من دون هدف ما. وفي كندا يركضون بهدف واضح الملامح.

رحتُ أحارب وحشتي بالبحث عن عمل يشغلني، أنغمس بكثافة في تعلم مبادئ الصحافة. فالحقل الإعلامي فيه من المتعة ولا يحتاج إلى دروس معقّدة أو نظريات في هضمه، إنما التطبيقات العملية واستقصاء الحادث الخبري الطازج هو الاختبار الجاد في صقل الشخصية الصحفية الفاعلة والمؤثرة، وبعد ساعات العمل تعوّدت على تعاطي أنواع مختلفة من الأقراص المخدرة والتي تساعد على النوم الطويل، هي ليست محرّمة في معظم الديانات كما أخبرني "جاد الله" الصومالي بسيل وافر من أحاديث كثيرة ومرويّات شرعية متنوّعة، بل فيها من علاجات لأمراض الكآبة المتصاعدة.. أنواع أصلية لكنها زهيدة الأثمان بوصفة من طبيبي الكندي، وجاري الصومالي "جاد الله" المهاجر النائم الذي أغواني للتعرف على صنف كل حبّة ومديات تأثيراها السحرية. حياته في النوم أطول من حياته في الصحو، قال: "يا أخي يا خلق الله الحياة وأنت نائم هي الأجمل من الحياة في الصحو".. هذه فلسفته ببساطة.

عندما وصلت الزوجة المرسلة لي، اتخذت القرار الحاسم في التخلي القطعي عن تعاطي مغريات "جاد الله" من هذه الحبوب. كنت مقبلا على الحياة بشكل سليم في الحياة الزوجية الجديدة وفي مرحلة انتقالية من حياتي.

في البدء وقبل التعرّف على الصومالي ذي اللون البنفسجي "جاد الله" أجبرت نفسي على تعلم اللغات واستهوتني الإنكليزية وأسرار لهجات النطق فيها، حققت نجاحا ملحوظا في نطقها أو فهم حوارات الآخرين بلهجاتهم المختلفة.. ثم انتقلت إلى اللغة الفرنسية حتى استطعت أن أحقق فيها نصرا وفتحا جديدين، مما أتاحا لي المجال في طلب العمل

الذي يلائم قدراتي الذاتية في الإعلام. وقد تعرفت على العراقي "هاتف الصراف" الذي يعيش في فرنسا ويتّقن لغتها بحرفية عالية.

هكذا حاولت إتقانْ لغتين عالميتين، هجرتُ الشعر بعد أن أحسستُ بضآلتي عندما كنت أنظم قصائد متنافرة المعاني. كانت مهنة الصحافة مناسبة جدا لقدراتي الشخصية لأكون متوازنا، أنا مزهو بنفسي في الظاهر وغير متوازن ومهزوم في الداخل.. "نعم أنت كذلك|"، لكن سيكشف المستقبل أي زهو يليق بي..

- لم تزل متأرجحا قلقا في كل ما تفعله. خذ هذا القرص وجرّب يا أخي، سوف لن تخسر شيئا.. قرص جديد يقلب حياتك ويغيّر واقعك وتتحول النملة إلى فيل بظرف دقائق، الكبائر تتحول إلى صغائر برمشة عين، ستضحك كثيرا على فلم الحياة أمامك، عندما تتحول تدريجيا مع سريان المفعول إلى حياة أفلام الكارتون. صدقني أنه مجرّب ومضمون النتائج. خذْ جرّب.
- تركتها يا جاد.. لا أريد نفخ النملة أو ضغط الفيل، رجاء لا أتناول أية حبوب بعد الآن.. أنا مشغول هذه الأيام وبحاجة لساعات عمل أكثر من النوم، لدي مشرع عمل هام. وزوجتي ستصل من العراق غدا. رجاء يا جاد اتركني في حالي..
- طيب.. صديق عراقي يا "خلق الله" ستعود من جديد، وتبحث عن أخيك جاد.. وتطلب شريط او شريطين من "الفيل النائم"، قلْ آمين.
- آمين.

فكرت كثيرا بهذا الصومالي القادم من قرية صغيرة في مقاديشو. إنه لم يسمع في العراق ولكنه سمع بمدينة الموصل.. ماذا أفاد كندا من هجرته إليها.. ساعات نومه تصل إلى العشرين تقريبا، وعندما يصحو يأكل أصابع البطاطا المقلية ويقضم الجزر المسلوق كالأرنب ثم يتناول الشاي مخلوطا بالنسكافيه ليعاود النوم مسطولا من جديد.

استقبلت زوجتي نادية الحلي وهي تقطع للمرة الأولى في حياتها كل تلك المسافات، طلبا للزواج. وقد مشت الأمور بشكل طبيعي مريح في الأشهر الأولى من دون مشاكل تذكر، سوى قضية التطبّع والتعرّف على طبائع وسلوكيات بعضنا.

اقترح عليّ "هاتف الصراف" القدوم إلى باريس، صديقي العراقي "المتفرنس" والذي يعيش في فرنسا بعد أن نسيَ عراقيته تماما، كنت أتصل به يوميا تقريبا وفي كل مرة يشجّعني على القدوم إليه. عندما شاهدته وجها لوجه وجدته بصورة أخرى مختلفة عمّا تصورته ورسمته في خيالي منقولا من العالم الافتراضي الأجمل. الصراف هذا حرص على إطالة شعره من الخلف والمتساقط من الأمام مع لحية وشوارب تركتا على رسلهما، شكله يميل إلى الشقرة المُصفرّة، أسنانه الأمامية متآكلة بفعل شراهة التدخين بتبوغ الغليون الهولندية. يتحدث بلغة فرنسية مفهومة، رغم أنه يكثر من إشارات يديه وحاجبيه أثناء التحدّث مع الفرنسيين. شكله يذكرني بشكل المغزل، منتفخ من الوسط كجسم الأنثى ودقيق الأطراف، له حركات وتصرفات أخرى تبعث فيّ القرف.

هاتف الصراف يعمل مستشارا في وكالة (جوو) الفرنسية. تعمل هذه الوكالة على إنتاج الأفلام الوثائقية عن البلدان التي تشهد

أزمات إقليمية وتوترات محلية.. "المردود المالي سيكون مرتفعا وباليورو"، أخبرني الصراف عن الأجور المغرية. واقترح عليّ العمل مع الوكالة في العراق بصفة معد لأفلام وثائقية عن مناطق النزاع العراقية الساخنة وأخرى قريبة عن مصدر القرار السياسي ومطبخه هناك.. لم أطمئن كليا لتصرفات الصراف بعد، فهو رجل إخطبوطي من الطراز المخيف، لكني بالمقابل قبلت العرض على مضض فما من شيء أخسره بعد تهافت سنيّ العمر وشغفي بمهنة الإعلام.. مازلت أبحث "عنّي" الضائع، نصفي الغاطس في الكسل والخواء لشدة الفراغ والوحشة ولا جدوى من البقاء، وثمّة زوجة أظهرت عراقيتها المقيتة شيئا فشيئا، لم أجد سوى صدى الفراغ يطنّ في أذنيّ. الصدى الذي يجعلني أتصور أن الآخرين يتهامسون ضدي.

في جانب آخر من حياة الصراف، حيث كان من أشد المدافعين عن حقوق المثليين المسلوبة في العالم العربي. كان يكثر من الحديث عن معنى الحرية الشخصية للجسد، وعن متعة اللعب الحر بتفاصيل الكينونة الذاتية وتفاصيل أخرى عن ملكية الجسد:

- لووك صديقي سلام.. هم شريحة تتضخّم ويتعاظم أمرها في السر والعلن، علينا إنصاف المظلومين منهم.. يتكاثرون كجماعات مهمشة في مجتمعات تعنّفهم كثيرا، أعمل على إنشاء منظمة سرية للمِّ شملهم والدفاع عنهم. أحاول إنشاء فروع في مختلف بلدان الشرق.. أتلقى مساعدات ومعونات كثيرة من الأثرياء الذين توصلوا إلى معنى حرية الجسد.. هناك في بلداننا لا يوجد وعي مبكر للهوية الجنسية سواء كانت مثلية في رغباتها أم مغايرة الجنس، هناك قمع مبالغ

فيه لحرية الجسد ورغباته الحقيقية، أعني الغيـــاب التـــام في مجمل ثقافات الشرق لفهم هذه المنظومة الجسدية المهملـــة، النظام الميكانزمي لرغبات الجسد وعلاقته برغبة الحـــواس يتعرّض إلى اغتراب واضطهاد منظمين.. هـــذه المنظومـــة بحاجة إلى مران يومي للتعرف إلى عمق الرغبات الجســـدية وتربيتها بل العناية الفائقة بأطرافها، حتى لمثلّي فرنسا مـــثلا التي تعتبر متخلّفة عن مواكبة حقـــوق المثليـــة في أمريكـــا وبريطانيا وهولندا، فقد أجبرني الحال هنا علـــى التكـــتّم، وبعد تفكير عميق أقرّت تلك الدول لائحة بحقوق الزواج لمثلي الجنس.

- هذا بزنس من النوع غير المريح، الأمر هذا معيب بالنســـبة لي أخي هاتف، ثقافتي تمنعني من العمل في منظمتك هـــذه، سوف أعمل في وكالة جوو فقط.
- لا يذهب خيالك بعيدا وتتخيلني بصورة مثلي الجنس، أنـــا فقط أناصرهم لإعادة ملكية أجسادهم ودعمـــا لحريـــاتهم المتبدّدة، لي صديق فرنسي متديّن مسيحي يعمل في "شركة بورو العالمية" للإنتاج الأفلام الإباحية، عمله في استقطاب موديلات جديدة من عمر (18 – 23) سنة يلتقطهن مـــن البلاجات، وينتهي عمله بتوقيع عقودهن. يحتـــرم مهنتـــه معتبرا ذلك عملا شريفا.
- أرجوك هذه القضية لا تتناسب مع ثقافتي وديانتي نهائيا.
- **ok** صديقي أيها المثقف الشرقي.. يأتي يوم وتتخلص مـــن تراكمات العث المتبقي في ثقافتك ووعيك المحلي المنغلـــق،

الذي أسمّيه ثقافة الشرق المتآكلة والقابلة للانقراض بفعل عامل الحداثة.

وافقت على العرض المتوفر حاليا، بعدما اشترطت الوكالة عليّ الدخول في دورة مكثفة لصناعة وإنتاج الفلم الوثائقي بكاميرا **SONY** واحدة بسيطة الإمكانيات.. كانت الدورة في باريس لمدة ثلاثة أشهر، وهي كافية لإعدادي مخرجا ومعدا ومصورا للفلم الوثائقي بعد موافقة الوكالة وتوقيع عقد العمل.. مدة الدقيقة المنتجة من الفلم الوثائقي والمقطّعة "مونتاجيا"، حسب العقد المبرم ثلاثة آلاف يورو بالتمام، على أن أتحمل نفقات الإنتاج والكادر الذي برفقتي، وجدته مبلغا وافيا للتحرّك في العراق وإنتاج الأشرطة الفلمية، ووافقت على صيغة العقد المبرم من دون أن أنتبه إلى فقرة بذيل ورقة العقد، تكون فيها حقوق بيعها من أحقية الوكالة على القنوات الفرنسية أو العالميةِ جسب العقد المبرم.

بعد انقضاء فترة الدورة منحتني الوكالة شهادة مشاركة وهوية تعريفية مصدّقة وعقد عمل وكتاب تسهيل مهمة عنونا للسفارة الفرنسية في بغداد. فرصة تاريخية حصلت عليها، فيها أشبع فضولي للتقرب عمّا حدث ويحدث في حبّة عدس هزيمة خالتي.. كل تلك السنين و لم أتخلص من عقدة وطن الجذور. مصيبة كبرى كلما حاولت نسيان العراق يبرز بكل تعقيداته مثل الشبح المخيف منتصبا كديناصور أمامي في المنام والصحو. يبدو لي كأنه خالتي هزيْمة خرجت من قبرها عارية كما خلقها ربها تحاول احتضاني من جديد لتقصّ عليّ حكاياها المرعبة.

كل تلك الأقراص التي تناولتها لم تجدِ نفعا في سلم النسيان، ماذا أفعل يا جاد الله؟ سوف أذهب إليه بقدميّ للكي بجمراته.

عملت الوكالة لي سيرة ذاتية مصورة تحدثت فيها عن نفسي كثيرا رغم ارتباكي الشديد أمام الكاميرا، لكني - مع ذلك- استطعت توصيل بعض الأفكار المهمة من حياتي.

عدتُ إلى كندا بعد أربعة شهور قضيتها في باريس وكانت التجربة مختلفة كليا، ثمة عالم آخر وثقافة حياة محدّثة مع هاتف الصراف.. عدتُ مرة أخرى إلى زوجتي "نادية الحلي" التي تركتها تقرأ بكثافة عن أنجع الطرق المتوفرة في المشافي الكندية لطفل الأنابيب وتكاليف عملية تجميد الحيامن وتخصيب بيوضها خارج الرحم. البيضة التي أبت التخصيب في مكانها الطبيعي. طفل أنبوبي واحد يكفي.. ما انفكت تحلم به، بعد مدة زواج دامت تسع سنين من دون حمل طبيعي. مرات كثيرة أجدها جميلة بطريقة جذابة بالنسبة لي، خصوصا عندما تهتم بنفسها وتسريحة شعرها القصير وتقلّل من الكلام والصراخ الذي يذيب ملامح الأنثى بداخلها، ومرات أخرى بعد ساعات غضبها اليومي تبدو كغول مخيف، غالبا ما أحاول الابتعاد عنها في حالات غضبها المقرف.

كنت متوقعا معارضتها بإجابة عنيفة ورافضة عن رحلة بغداد المزعومة، لكنها صدمتني بموافقتها، أخبرتها عن نيتي السفر معها إلى العراق للعمل الجديد المكلف به فقالت: "لا سفر إلى العراق قبل إجراء عملية الحمل خارج الرحم"..

بعد نقاش حامٍ وصاخب بيننا.. انتهت بالموافقة على تحقيق حلمها، تركتها تحلم بطفل على طريقتها لأتابع طموحاتي ومشاريع أحلامي المؤجلة.. رحت امرّن نفسي على صناعة الأفلام الوثائقية التجريبية وأرسلها لمعلمتي الفرنسية في الدورة، **أدريان** الشابة التي

تفوق الرجال بعبقريتها في العمل الفني، غالبا ما تؤشر لي الملاحظات الواجب توفرها في مادة الفلم الوثائقي: "دعْ الشخوص يتحركون بحرية وامنح الكاميرا حرية الحركة مع مراعاة الحس الجمالي البصري، ثانيا إفسح المجال لحركة الكاميرا البسيطة للتقصي الصحفي في تغطية المكان بشمولية عين تستطيع مسح المكان بنظرة فاحصة.. ثالثا عليك بتركيب الصور المتلاحقة وربط الخيوط الدرامية وجعل الحوارات المركّبة تكشف عن المخبوء الذي لم تكشفه الصورة".. هذا ما أفادت فيه معلمتي الشقراء النحيفة كقصبة ناي قبل يوم واحد من عودتي إلى ادمنتون الكندية، هذه الباريسية اللا- دينية، تعبد بشغف وحرص متناهيين مهنتها أكثر من كل عباداتنا التي فاضت ودمرت الشوارع والبيوت والفضاء، إنه لشيء آخر تعلمته منها ومن هاتف الصراف عرّابي في فرنسا..

البيئة الكندية البديلة كانت غير مناسبة في صناعة الفلم الوثائقي التجريبي لي، أقوم بتصوير ما يقرب لأربع ساعات يوميا، معظمها عن مساجد المسلمين والمواضيع المتداولة في داخلها.. المسلمون في مساجدهم المغلقة يرفضون التحدّث معي عندما يكتشفون كنْهَ هويتي، إلا أني تحايلت عليهم كثيرا في مساجد أخرى لغوايتهم بالحديث عن مستقبل الإسلام في كندا..

"أنا كندي من أصل باكستاني".. بهذه الطريقة حصلت على مجموعة أفلام تجريبية توثّق ما يحدث فعلا هنا. تحدث لي أحد المتدينين أمام الكاميرا عن المسلمين في كندا، عن النخبة المبشرة التي استطاعت جذب معظم الشباب المسلم للتعريف بدينهم وعملهم المتواصل لانتشار الإسلام الصحيح في الأصقاع البعيدة.. قال لي بفخر: "إن

مستقبل هذا البلد في تحوله لبلد مسلم بفضل نشرنا للرسالة المحمدية في اصولها الأولى.

في بادئ الأمر لم أستطع إقناع معلمتي القصبية أدريان بأفلام تجريبية عملتها في تورنتو. قالت: "الأفلام الوثائقية التجريبية التي تعمل عليها في كندا ستكون بمثابة شهادة الخبرة التي تنقصك، وهي استكمال لحزمة الضوء الأخضر لبداية الحرفية في منطقة نزاعات الشرق ومنها موطنك القديم كونه بقعة ساخنة ويبدو غامضا للكثير من العالمين في المدرسة الإعلامية".

لا يفرقون كثيرا بين العراق وإيران فاللفظ الفرنسي يتداخل بين المنطقتين.. الجميع رفض الذهاب إلى بغداد خوفا على حياته، مما اضطرَّ الوكالة للتعاقد معي شخصيا كوني من أصول عراقية وأجيد التعامل مع الشوارع الملتهبة وأستطيع توفير القسط البسيط من الحماية الذاتية لي ولكادر العمل وعائلتي. ليس لنا ما نخسره سواء في كندا أم في بغداد، خاصة بعد أن أقنعت زوجتي التي تسلّحت بالجنسية الكندية للذهاب المؤقت إلى بغداد.

***

## 4

# سليمة حنظل

### أمس بعيد:

هل فعلا خُلقت من ماء دافق سار فوق العلائـــق والتـــراب؟ راودني الشك كثيرا في خلقها، ربما من ماء الورد عُجِن بخام تـــراب الذهب وقد باركها الخالق بيده..

تعرّفتُ على سليمة حنظل في كندا، بغداديّة أصيلة مهاجرة كطير يتيم تاه عن سرب طيور البرية الرشيقة من بقعة العـــدس المنحـــوس إلى أقصى العالم.. تعيش في مدينة "ادمنتون"، المدينة نفسها التي أعيش فيهـــا شمال كندا، والتي يعيش فيها أيضا عراقيون كثر، منهم من مات ومنـــهم مَنْ ينتظر، كشاعر الدراجة الهوائية وصاحب مرثية الخبز الشهيرة، أذكر أنه كان يردّدها في الغربة عندما تعرّفت عليه في عمـــان، وكـــثيرا مـــا حفظت من قصيدته تلك ما تيّسر: ((***لدينا خبز.. سننام الليلة وتحـــت وسادة كل منا رغيفان من الخبز.. الخبز الذي صار أســـود.. الخبـــز الذي لم يعد أبيض......***)) ثم يستدرك بقوله:

((***نامي يا ابنتي.. تصبحين على خبـــز.. لا تمزقـــي العَلَـــم.. لا تبصقي على معلمة التربية الوطنية.. أرجوك يا ابنتي***)).. كانت بمثابـــة

نشيدنا المقدس ومحفوظتنا اليومية التي نرددها إبان فترة الحصار التسعينية، نأكلها كل يوم ولا نشبع على أرصفة الساحة الهاشمية وسط عمان..

ثمة آخرون في مدينة ادمنتون، منهم من عاد إلى بلده باحثا عن الدفء أو هاربا من الوحشة الزرقاء التي يخلفها البرد القارص.. يذكر أحدهم أنه سيدخل الجنة من دون حساب، جزاءً لتلقيه سيل العذابات الأرضية. أينما أولّي وجهي فثمة شعراء، كل عراقي لابد وإن كتبَ الشعر مرة في حياته على الأقل.. البلد الذي ينتج البطالة والشعراء أمثالي ولا يزرع الفجل.. يقال إن أحد الشعراء العراقيين وجد ميتا من البرد على قمة جبل في الاسكيمو وهو يلهج بقصيدة كانت جنبه وقد ولدت مزرقّة من البرد مبتسمة بوجه الموت.. الشعر خرّب البلد وجلب المصائب. هل أتذكّر المزيد أم أنسى؟؟ "أحنه مشينه للحرب- تقدم وأحنه وياك اثنين- يمه البارود من اشتمّه ريحة هيل" مصائب تترى والشعر يتمدد.

سليمة حنظل هاجرت إلى بلدان شتى لتستقر أخيرا في كندا، حيث تعيش مع ابنتها سالي قريبا من سكني في شمال المدينة ذاتها. عندما تضيق بي كندا كلها لم أجد سوى سليمة أحنُّ إليها من وحشة منقوعة بغربة ملفوفة ببرد مرعب. لها قدرة رائعة في اختلاق الحكايات المشوّقة تنطلق ممزوجة ببحّة مثيرة من صوتها المثير. البرد وساعة الغروب والغربة شكّلت ثلاثي محنتي.

- مرحبا سلام الوافي!! أين كنت؟ وما هذه الغيبة الطويلة "عيوني أنت""؟؟؟ مشتاقة جدا.. نسيت أن أخبرك عن عراقيين مهاجرين وصلوا قبل أيام إلى المدينة، سأعرّفك عليهم بوقت لاحق، أين كنت يا رجل عيوني أنت؟؟

بعد عودتي من باريس مباشرة وجدها مصادفة في wast Edmonton mall المول الرئيس للمدينة التي نعيش فيها. استفهمتْ بإلحاح شديد كثيرا عن غيابي خلال الفترة التي قضيتها في دورة وكالة جوو الفرنسية.. حيث تعودتُ ملاقاتها كل يوم من عطلة نهاية الأسبوع تقريبا في مول ادمنتون العملاق، أخبرتها عن الحال والأحوال:

- هذه الأيام مشغول جدا في البحث عن قصص تصلح لأن تكون أفلاما وثائقية تجريبية للوكالة التي أعمل فيها. لديّ "بزنس" مع وكالة فرنسية ويتوجب عليّ الانتقال إلى بغداد من جديد مسزز سليمة.. ولا أخفيك أني اشتقت لشاي معموم من يدك.
- تعال إلى شقتي غدا وسأخبرك عن قصة ربما ستصلح لعملك هذا.."عيوني أنت" سلام.
- أوكي سليمة. أريد الشاي وكعك السيد البغدادي.

من جديد تحركتْ بداخلي هواجس لإيحاءات جنسية خبيثة كانت غاطسة في قاع نفسي، يبدو أني لم أتخلص منها مطلقا، جرثومة الشبق العراقية المتكلّسة في داخلي، تدفع بي لاعتبار موعد الغد فرصة تاريخية لن تتكرر مستقبلا، في حين فشلت محاولاتي السابقة كلها للوصول إلى جنّة جسدها الحريري، الذي غالبا ما كنت أتصوره كنزا في جزيرة مهجورة.. اشتقت كثيرا لسماع لازمتها المحببة لقلبي الحزين" عيوني أنت"، أو أتخيلها وهي تهمس بأذني كلما توغلت حرثا في أرضها المعطاء ونحن في الفراش نتهامس بكلمات ترتجف من فرط اللذة.

هي امرأة ذات ملامح شرقية بتمام صورها، هي جنة لم تخلق بعد خارج الجنان الموعودة، مكتنزة من دون زيادة أو ترهّل، بطول مثير بالنسبة لمثيلاتها من العربيات المكتنزات باللحم.. شعر أسود ناعم كـ "خيوط البريسم" كثيف ومجنون كغابة في ليل بهيم، وبشرة حليبية بيضاء مصقولة وصافية، ثم أكسبتها البيئة الكندية بياضا محمرّا يبرز على وجنتيها خاصة فيشعلها تورّدا، يزيدها جمالا آسرا على بياضها المخلّ بتصرفاتي الشبقة.. بعينين واسعتين دائريّتين بياضهما يثير غريزتي المتوثّبة، فأطلق طيوري المحبوسة في سمائها.. لم أتخلص بعد من عبء خزان تراثي المحموم، شبقي الفاضح الذي جلبته معي إلى كندا.. عراقيتي خلطة عجيبة من شبق وجوع جنسي وأحزان وفاقة متراكمة وتردد قاتل، يمنعاني لأكون سويّا كالآخرين هنا.

في السر غالبا ما ارسم لها صورا وهي تتلوّى في أحضاني تهمس لي بتأوهات هامسة وغنج راجف، تسدل ستارة عينيها لتحبس صورة اللذة الهاربة في قطعة الفرش، معا نتلوّى ونتصارع بمحبة خالصة.. أتخيلها تضربني ضربا قاسيا بسوط من حرير لأتخلص من آثامي الكبيرة وجرائم الخيال وقصصه الغريبة لتعيدني قصرا إلى جنتها، خاصة عندما أملُّ من الكنديات ومعاشرتهن، ومن زوجتي المعلولة التي غالبا ما تتشكّى من حزمة أمراض في غربتها.. لا أحد يعاقبني في خريطة الخيال المتاح، حيث التنزّه في غابات سرّية، اصنعها بمهارة في هواء مسموم من رسومات حرّة بمشاهد مبتكرة تبدو غريبة لكنها قابلة للتحقّق يوما ما..

*

في هجرتي إلى كندا كانت حاجتي شديدة لإشباع رغباتي الهائجة، ثم طمرها في النوم مع الشقراوات، فكنت أقيم علاقاتي الجنسية بتنوع لافت خاصة قبل زواجي، أذكر أن واحدة من الكنديات الشقراوات تدعى "سيرين الشهباء" بقيت معي فترة طويلة، تعوّدت المجيء إلى شقتي بين فترة وأخرى، عندما لا تجد مكانا آخر للنوم فيه. هي مثل ناي جنوبي حزين فهي نحيفة جدا، لكنها سرعان ما تكوّرت لها مناطق ساخنة من جسدها، وبسرعة جنونية حينما اعتادت على الأكل العراقي السمين، بعد سنة غدت تحب معظم أنواع الأكل العراقي السمين بل تولعت فيه حدّ الجنون، تنهض في منتصف الليل بعد سهرة صاخبة من الرقص والغناء غير المضبوط وممارسات جنسيه على الأرض المباشرة على البلاط أو في المطبخ أو الحمّام، تتعب وتنام في أي مكان، ثم تنهض لتعمل "**التشريب العراقي**" المركّب من ضلوع الضأن الصغيرمع نقيع الخبز، تأكل منه بشراهة مع البصل واللبن الكامل الدسم، ثم تترك لي وجبة صغيرة منه لوجبة الفطور.. انتفخت مؤخرتها بصورة لافتة وأصبحت تباهي صديقاتها الكنديات بالوصفة العراقية التي وجدتها عند سلام الوافي العراقي.

في أيام مراهقتي غالبا ما كنت أحسد أخي غسان لاصطياده الحسناوات من الفتيات في سكنانا القديم في منطقة الوشاش، يمتلك قدرة فائقة على إقامة صداقات صبيانية سريعة من النوع الذي تهواه البنات، يمسك الهاتف الأرضي ويبقى حتى ساعات الصبح يسبسب بأحاديث ليس لها بداية ولا نهاية. كنتُ دائما أحسده على قدرته في التماشي مع رغبة البنات في تفاهة الأحاديث المملة والساذجة.

بالنسبة لي ما زالت سليمة كقطعة نفيسة، سجادة إيرانية "كاشانية" أو حريرية منسوجة بدقة وحرفية عالية لعجوز فارسي ورث مهنته من أجداده.. كلما مرّ عليها الزمن تزداد جمالا، رغم ملامح تقدم العمر خاصة في الهالتين المحيطتين على محيط عينيها النشيطتين في حركتهما، غنج الحديث ورطوبته مع نبرة الصوت الحزين تزيد في أنوثة عارمة، كتيار طوفان جارف، فعلا هي من نوع النساء اللائي تلتوي لهن أعناق الكنديين قبل العرب والمسلمين هنا:

- غدا سأزورك في شقتك.

في اليوم التالي تحصّنت جيدا من البرد، ارتديت القبعة المارونية الصوفية القوقازية والقفازين الصوفيين وأزلت لحيتي التي بدا فيها بياض الشيب على رقعة وجهي رافعا الرايات البيض، ثم تعطرّت بعطري المفضل "سارق الليل|"، حملت صندوق كاميرتي الـ (**SONY**) بكامل عدهّا وذهبت قاصدا شقة سليمة، علّها تنفعني بشيء ما، قصة تصلح خميرة جاهزة لفلم وثائقي ستعلّق عليه أدريان بيرنامج "سكايب" لللاتصال هكذا: "واوووووو. اووو ماي كد.. فنتاستك"..

استقبلتني سليمة وابنتها سالي في شقتهما. سالي ترتدي "تراكسوتا" رياضيا أسود اللون بخطوط فسفورية جريئة يجّسد الكثير من تكوراهّا المتبرعمة الناتئة، أما سليمة فكانت محتشمة بعض الشيء في لبسها المتواضع.. بنطلون الجينز وقميص كحلي طويل نسبيا أخفت تحته ما تمنيت مشاهدته.. وبعد حوارات طويلة استمرت لأكثر من ساعة ونصف بضيافة عراقية بالشاي وكعك السيد، أفصحت:

- سأحكي لك "عيوني أنت" عن مأساة امرأة عراقية تعيش الآن في كندا.
- دقيقة انتظريني لأضبط الكاميرا والتسجيل...... الآن بإمكانك البوح.. أوكي تفضلي.
- امرأة جميلة جدا تُعد من حسناوات بغداد القلائل. الجمال أحيانا يسبب الكوارث لحامله. أذكر أنها في عام 1982 أيام الحرب مع إيران تزوجتْ هذه المرأة من صائغ للذهب، يمتلك محلا شهيرا في شارع النهر، هي بالأصل مندائية وهو أيضا كذلك، عاشا لفترة من الوقت عيشة عادية ليس فيها ما يعكر حياهما، إلاّ هاجس الخوف من "حرب الثمان".. كانت تعمل معلمة في مدرسة ابتدائية في منطقة اليرموك ببغداد.. في يوم ما، وكانت خارجة من دوامها في مدرستها توقفت قربها سيارة بيضاء نوع "سوبر كراون"، نزل منها شخص يرتدي بدلة أنيقة وبشارب أسود مقطوط بعناية.. وقف الرجل قاطعا عليها الرصيف الضيق، عبّرَ عن إعجابه بجمالها في بادئ الأمر فأطرقت رأسها إلى الأرض لتبعد عنها نظراته الشهوانية.. أحسّت فيه أنه يتبعها بنظراته التي تلاحقها حتى لحظة وصولها إلى بيتها.. إنها ورطة كبيرة، لم تنته القضية بالإعجاب بجمالها كما كان يحدث لها كثيرا، بل ظل الشاب المتأنق دائما يتابعها كل يوم تقريبا.. حتى وصلت فيه الجرأة أنه توصّل بطريقة بوليسية إلى معرفة رقم هاتفها الأرضي بطريقة ملتوية من دائرة البريد، وبدأت رحلة طويلة من المضايقات، لم تنته في

إخباره بأنها متزوجة، ثم حاولتْ إفهامه أنها مندائية وهو مسلم ولا يجوز له الاقتراب منها، فلم يمتنع من الملاحقات الوقحة، بل أخبرها أنه ضابط في جهاز المخابرات لم يدرك ما حذرته منه من اختلاف عقيدتها عن عقيدته، حيث قال لها بالحرف: "كلنا مدنيون"، لم يسمع هذا القروي في أصله بديانة مندائية تصورْ.. أنه لم يعتد التخلي عما يريده بسهولة، هدّدها إذا لم تستسلم لرغباتها فأنه مضطر لتجريب أنواع جديدة من القسوة معها. حتى تذعن لرغباته.." كل شيء على أرض الوطن هو ملك لنا". هكذا كان يردد بفخر أمامها.

- حسنا، يفضل سليمة اختصار الحكاية، الفلم لا يحتمل كل تلك التفاصيل..
- تطورت الأمور كثيرا بشكل سلبي ومخيف.. وصلت المرحلة للتهديد المباشر.. هدّدها بزوجها المسكين الذي لم تخبره عن سر الملاحقات الوقحة لها، زوجها بدأ يتضايق ويشكك فيها لكثرة رنّات الهاتف، وهي تحاول إقناعه أنها أرقاما خاطئة الاتصال، لكنها تمنّعت وأبت أن ترضخ لكل التهديدات.. استطاع تنفيذ تهديده بطريقة خبيثة، ففي عصر أحد الأيام اُختفى زوجها المسكين وهو خارج من محل الصياغة في شارع النهر..

قاطعتها بعد أن أوقفت التسجيل مضطرا:

- لم تذكري في بداية الحديث اسم هذه المرأة ووقت الحادث.. أراهما مهمين لسير الفلم الوثائقي.

- سأترك الأسماء والتواريخ "عيوني أنت" إلى نهاية التسجيل.. الحياة العراقية فلم طويل لم ينتهِ بعد.
- عموما أكملي المشوار مسزز سليمة.
- ضاقت الدائرة حول المرأة المندائية كثيرا، ذهبتْ مجبرة إلى دائرة الضابط المخابراتية في الحارثية، وبعد انتظار طال كثيرا جاء الاتصال الذي حدد لها موعد مقابلة المدير المسؤول، خرجتْ من مدير الجهاز من دون أن تحقق سوى المواعيد والنظر في حيثيات المشكلة وتأجيل الرد الفوري. أربعة أشهر من الانتظار ولا من خبر عن زوجها الذي احتجز في دائرة المخابرات بحجة الاتصالات الخارجية المشبوهة للزوج.. والضابط يكرر الاتصال بين فترة وأخرى. حتى جاء اليوم الذي أخبرها أن المهلة المحددة لها شارفت على النهاية، وعليها أن تذعن له بكل وسيلة، وإلاّ سيحقق مرامه بالقوة..

اضطرّت المرأة من تصفية وبيع كل ما يمكن بيعه والتفكير بالهجرة وترك البلد بعدما اخبرها أحد الخيرين أنه لا فائدة من التوسّط في قضية مع "مخابرات الدولة".. اتصلت بواحدة من زميلاتها التي تركت مهنة التعليم وذهبت للعيش مع زوجها في دولة قطر، وجاءت الفرصة مواتية حين حصلت على موافقة السلطات القطرية على دخولها البلد بعقد عمل سعت من أجله كثيرا زميلتها وزوجها رجل الأعمال القطري.. المفارقة المضحكة/المبكية أنها حصلتْ على وظيفة كمعلمة تربية إسلامية في مدرسة خاصة للوافدين إلى قطر من المسلمين. تلك المفارقة الغريبة جعلتها تخفي كونها من الطائفة

المندائية.. ارتدت الحجاب والعباءة الإسلامية وحاولت حفظ بعض الآيات والأحاديث النبوية وطرائق العبادات وأركان الإسلام كلها بفترة قصيرة، ودرستّها للتلاميذ من دون أن يُكشف أمرها. بل حصلت على كتب الشكر من مدير المدرسة الأهلية على تفانيها في تعليم الصغار أصول تدريس الدين الصحيحة. في البيت كانت تعود لديانتها وطقوسها المندائية رغم بعدها عن النهر الجاري التي تتطلبها سر ديانتها، مارست طقوسها في عيد الخليقة والزهور كما لو كانت على نهر دجلة وفي عيدي "البنجة والكراص"، كي لا تشعر بازدواجية الديانة وبعد النهرين الجاريين عنها.

تركت ولدها في بيت والدها العجوز المقعد على أمل الالتحاق فيها بعد حين.. لكن الحين لم يحن أبدا.. واكتفت بابنتها التي كانت حاملا بها حين القدوم إلى قطر.

- أقول جازما إنها سليمة حنظل..
- والولد الذي تركته المعلمة يدعى أصيل، والبنت هي سالي هذه التي أمامك.. والمرأة هي أنا، لكن القصة لم تنته بعد يا سلام الوافي "عيوني أنت".

ابتسمت سليمة، ثم أطرقت إلى الأرض تفكر في كلام تقوله لي وليس لكاميرا التسجيل، قمت في تلك اللحظة وأوقفت عمل الكاميرا.. غيّرت من نبرة صوتها وبان الحزن في كلماتها:

- نعم أنا تلك المرأة التي لم أتمّ حكايتها بعد.. لم تمهلني يا سلام لأكمل حكايتها.. أنا مندائية عراقية لعبت فيها الأقدار لعبتها.. استسلمتُ للأقدار و لم أسلِم، بل تظاهرت بإسلامي وإشهاره، بل درّسته في مدارس إسلامية

واجتهدت فيه، تحجّبت وصليت، وعلّمت الصغار أركان دينهم في الصلاة والحج والزكاة، لكن في داخلي إنسانة أخرى تنتمي لجذورها الأولى قريبا من ماء النهر.. مع العلم ليس في قطر أنهار جارية سوى البحر، وديانتي توجب التبرك في القرب من النهر.. كنت أشعر بالذنب وتأنيب الضمير من ترك ديانتي الأولى.

في تلك اللحظة تناولت حزمة من مناديل ورقية كانت موجودة على المائدة ومسحت دمعة كبيرة سالت من عينها، غادرني الحيوان القابع في داخلي من دون وداع، بعد أن عرف أن لا مكان له في هذه جلسة البوح هذه.

- كنت في البدء امرأة على فطرتها.. بدا تأنيب الضمير يأكل من جرف وجداني، عشرات العصي غير الظاهرة التي أُضرب بها يوميا لما فعلته بنفسي. أصيل بعد وفات أبي بعدة أشهر من مغادرتي العراق أخذه جيران أبي. رجل من المسلمين يدعى **عبد الحميد الصباغ**، هو الذي تبنّاه، وأسلَم الولد مرغما، فقد كان الرجل من عائلة متديّنة ومحافظة.. أصيل لا يعرف عني وعن أخته أي شيء.. قام الرجل عبد الحميد الصباغ بإجراءات تسجيل الولد على أنه ابنه الشرعي في دائرة الأحوال المدنية كما أخبرتني آنذاك إحدى صديقاتي، وحصل أصيل على هوية أحوال مدنية. كل تلك الأخبار تصلني من إحدى المعلمات التي تراسلني كل سنة تقريبا وأنا في غربتي لا أستطيع أن أعمل شيئا لابني الوحيد.. ثم بشكل مفاجئ انقطعت الأخبار بشكل

نهائي ولا أعرف السبب لغاية اليوم.

حضنت سالي ابنتها وراحتا تبكيان بصوت متقطّع عال.. وأنا بينهما لا أعرف ماذا أفعل.. تلك القصة التي صدمتني، ونسيت المهمة التي جئت من أجلها. نسيت الكاميرا تعمل وهي تصور البكاء المر الذي أصابني بينهما.. بكيت من كل قلبي على مصير هذه المرأة ومصير ابنها..

- والآن ما هو مصير **أصيل** في العراق؟
- هذا هو السؤال الذي انتظر إجابته منك أستاذ سلام.
- أنا ما علاقتي في الأمر؟
- تلك مهمتك التي أكلّفك بها شخصيا باسم الأخوة والزاد والملح الذي بيننا.
- قصدك الشاي والكعك.
- باسم الماء الجاري في نهر دجلة الذي شربناه معا، إذا ما ذهبت إلى العراق حيث عملك في الوكالة أن تجد لي ابني أصيل وتجلبه.. ليس لي غيرك يا وافي.. سأعطيك عنوان تلك المعلمة التي انقطعت عن مراسلتي منذ أكثر من عشر سنين.. علّها ستساعدك في الوصول إلى أصيل، وتأخذ موافقته بتغيير أوراقه وإخراج جواز سفر جديد له يثبت أني أمه، سأزوّدك بأوراق ثبوتية قبل سفرك بما فيها بيان الولادة. هل تصدّق امرأة لا تحلم في الليل إلا بولدها؟ ما معنى أن تعيش الواحدة بعيدة عن ابنها في عالم موحش، ربما يموت وسط شوارع بغداد، ولن أسمع بموته إلا بعد سنين.. ربما هو... لا لا اسم الله.

- ست سليمة كسرت خاطري، أحاول بكل جهدي البحث عنه في بحر بغداد.

دستُ على زر **إيقاف التسجيل** ولملمتُ عدّة التصوير وقبلـــت جبينها، واعدا إياها ببذل كل جهدي في العثور عليه.

***

# 5

# أصيل

**اليوم:**

نسخة الحر لهذا اليوم ليست مخصوصة للبشر، بـــل إلى بعـــران الصحارى فقط، كما جاء في نشرة الأنواء الجوية المحلية، ورغم هذا الحر الصمغي كان عليّ التوجّه إلى المقهى.. قبيل حلول ذروة الظهيرة القائظة، دخلت مقهى "رضا علوان" في الساعة العاشرة صباحا، وثمة نسيم بارد يوزعه مكيّف الهواء "الكنتوري" والذي ينتصب بشموخ في زاوية المقهى الصغير بطابقيه، يوزع الهواء البارد بعدالة أرضية قلّ مثيلها، تنفستُ بعمق، مسحت حبيبات العرق عن وجهي، وجدت أصيل عبد الحميد بانتظاري يجلس على طاولة بكرسيين، قلق الانتظار جعله ينشغل بتصفح مخزن الصور في هاتفه المحمول..

شاب عشريني حلو الطلّة بملامح رجولية ورشاقة شبابية، وأناقة عصرية رائعة، ورغم تكرّر اللقاءات معه يرفض بقوّة طلبـــــي منـــه الهجرة إلى كندا ولقاء أمه:

- أمي ماتت منذ زمن بعيد جدا ولا أتـــذكر صـــورتها الآن. أبـــي هو عبد الحميد الصباغ. الرجل الذي مـــات منـــذ

سنتين. أتذكره كل يوم تقريبا. أمي التي أعيش معها وليست التي أسمع عنها.

*

أأنا مقرف إلى هذه الدرجة؟؟ نسخة منّي تركتها في البيت والأخرى تتجول دون إرادتي في الشوارع، ترى متى نتصالح؟ أو متى يقتل الثاني الأول فيّ، أو يغدر الأول بالثاني أثناء النوم مثلا؟ تلك أسئلتي المضطربة، وأنتظر القدر المخمور ليجيب عليها.

لم يخبرني أحد بعد.. تعبان من النوم.. وتعبان جدا من الصحو. غير راضٍ عن نفسي تماما بما فعلته في سابق الأيام أو ما أفعله مستقبلا. غير واثقٍ مما سأفعله اليوم وغدا.

هذا أنا في الصورة المتوقفة في الهاتف، ليس كما توهّمتُ بوجود من يتحدث في داخلي، إنه أنا بدمي ولحمي، أجلس أمام هذا الشاب أصيل، سأنسى حتما صوري المتتابعة في شريط الفيديو التي بدت مضحكة، أنا في مرآة الواقع المزري هذا أفضل هيئة من هيئتي المشوّهة في شريط الصور. لا أريد النصر أو البطولة أو الفوز، لم أفهم خطاب الرئيس رغم اجتهادي الشخصي في محاولة إدراك محتواه، يكمن الخلل فيّ وليس في الرئيس، ما اطمح إليه هو التوافق بيني الأول وبيني الثاني. أما خطبة الخليفة في الجامع الكبير فقد كانت مستوفية وذكية لإستقطاب المزيد من الجند الأجانب لعاصمته المزعومة من كل أطراف العالم، أنا لست مع الرئيس ولا مع الخليفة ولكني لا أستطيع التصريح بذلك خوفا على رقبتي، هل أنا جبان بفطرتي؟ ربما.

لم يعر أصيل اهتماما خطاب الرئيس مطلقا، يبدو أنه منشغل بحياته الشخصية أكثر من هموم نشرات الأخبار.

*

- هلو أصيل شلون.. أحوالك....
- زين.. أنت شلونك.. قلقت عليك كثيرا.. انتظرتك لأكثر من ساعة هنا.. لنصعد الآن إلى الطابق الثاني.
- كل المواعيد هنا تتحكم فيها حركة السير والاختناقات المرورية عزيزي أصيل، المهم وصلت سالما.

جلسنا في الطابق الثاني المطلّ على شارع الكرادة، شربت القهوة بتمهل وأنا أتصفح وجوه الناس والمكان، وقد حان موعد السيجارة الصباحية الأولى بعد طعم القهوة المرة.. يمتاز أصيل بجمال الطلعة البهية وعنفوان الشباب بلحية خفيفة وعينين مستديرتين جاحظتين كأنهما عيني سليمة حنظل التي دفعتني بقوة للبحث عنه في بحر بغداد العميق، ورغم تنكره لها فقد توطدت علاقتي به كصديق وأخ. عندما قدمت إلى بغداد كانت أولى الأعمال التي نفذتها هو الاتصال بالمعلمة التي أوصتني سليمة بالذهاب إليها لمعرفة مصير ابنها. تقاعدت المعلمة من الوظيفة وحصلت على عنوان بيتها من مدرسة الصراط المستقيم، آخر مدرسة كانت فيها، وقد تعاملت معي بلطف وزوّدتني بعنوان البيت الذي يسكن فيه أصيل في منطقة الداوودي، بعد أن أوصتني بكتمان الاتصال فيها لضرورة أمنية.

قدمت نفسي إلى أصيل في اللقاء الأول كصديق قادم من كندا وليس لي معارف في بغداد، جلسنا كثيرا وتحدثنا كثيرا رغم رفضه

القاطع فكرة "لمّ الشمل" التي اقترحتها أمه لإنقاذه من الموت العراقي الشائع، لكن علاقتي توطّدت به كصديق رغم فارق السن بيننا:

- خير إن شاء الله أصيل، أنا حاضر لمساعدتك بكل الظروف.. أعتقد تريد أن اشرح لك خطاب الرئيس؟ هو خطاب عادي جدا على حد قول" أبي العوف"، لكن اللغز يكمن في الفقرات الثلاث التي تتحدث عن أقطاب المؤامرة الداخلية والخارجية. لكن خطاب الخليفة كان واضحا.
- لا يا خطاب يا رئيس يا خليفة. الموضوع أكبر.
- لا يمعود لا أحد يسمعنا. لا أكبر من الرئيس إلاّ الله. خو ما وصلوا جند الخليفة إلى حدود بغداد؟
- ههههه. لا لا ما وصلوا
- مشكلتنا الحقيقية ليست كلها من التاريخ، الجغرافية هي نصف المشكلة حسب اعتقادي. وطن بجغرافية مهلهلة ومترامية الأطراف تحيطه الصحارى التي تتغوط فيها الكلاب المتوحشة، تتحول إلى عوامل مساعدة للطمع والغزو وعدم السيطرة. يكفينا نصف ربع هذه الأرض للعيش.. أفضل بكثير من تراب لا ينفع في شيْ سوى الموت عليه. ستة دول تحيط بنا، ولنا معها ماض ملتبس من الغزو والمشاكل والاحتلال. الغزو هو ثقافة متأصلة في جينات العرب يا أصيل.

راح يتلفت يمينا وشمالا قبل أن يحني جذعه ليتقرب مني ويبدأ حديثه بصوت هامس وقد بدا عليه الخوف والارتباك:

- إستاذ سلام، دعْ الجغرافية جانبا.. أنت لغاية الساعة لم تسألني عن عملي، ورغم تكرر اللقاءات بيننا وعلاقة الصداقة التي احترمها جدا.. كل ما دار بيننا هو عن المرأة الكندية سليمة حنظل والتي تدّعي أنها أمي، وكما عرفت منك هي من ديانة مخالفة لدیانتي، ومثلما أخبرتك أنا من عائلة إسلامية متدينة وخاصة العم عبد الحميد الصباغ الله يرحمه، اليوم سيكون اللقاء مختلفا.
- كيف!؟
- الحقيقة أنا أعمل في المنطقة الرئاسية، أقصد في المنطقة الخضراء.. عملي هناك متواضع لكنه ضروري للعيش.. أعمل في المكتب الاستشاري لديوان المجلس. عند المستشار الاقتصادي لرئيس الوزراء، عملي تافه لأنه بصراحة في الخدمة الفندقية المذلة في المكتب لكثرة ضيوفه.. أهيئ الشاي والقهوة فضلا عن عمل العصائر وترتيب وتنظيف المكاتب وغرفة السكرتير وصالة انتظار المراجعين وضيوف نخبة الخاصة، حتى جناح نوم السيد المستشار الاقتصادي الأول، كل تلك الخدمة يوميا وبمرتب بسيط، لكنه يعينني على تدبير أموري الشخصية وبعقد عمل ديواني، وعندما حصلت قناعة وافية لدى السيد المستشار بإخلاصي، وتأكد من أمانتي على كل موجودات المكتب وسرية الأوراق المتداولة.. أمّلني بالتعيين بصفة دائمة عند إقرار الميزانية لهذا العام.. الموضوع الذي أخبرك به اليوم سيكون من السرية التامة أستاذ سلام، أحتاج نصيحتك فيه وكيف أتدبره.

كل هذه المقدمة لأخبرك وباختصار عن فقدان قرص مضغوط من المكتب، إذ كل العاملين في مكتبنا من موظفين ومن المكاتب المحيطة يبحثون عن قرص مضغوط يسمونه (**القرص جيم**)، لا أحد يتحدث بصراحة عن محتواه، بل أن بعض العاملين يبحثون ولا يعرفون عمّا يبحثون، لكنه يبدو من الأهمية القصوى لدى الحكومة كلها وخصوصا الرجل المعمم المقرب من الرئيس.. هذا الرجل لم يذق طعم النوم منذ ساعة اختفاء القرص ولحد الآن. أخبرك وبصراحة أني عثرتُ عليه وأخفيته في مكان سري خارج بيتي. وجدته في حاضنة أحد أجهزة "اللابتوب" لموظفي المكتب.

- ماذا تقول؟؟؟ هذا لعب بالنار. أصيل الأمر مخيف جدا، خاصة في هذه الظروف الاستثنائية التي يمر فيها البلد. الحكومة تقتل ودولة الخلافة تذبح.
- لا نار ولا هم يحزنون. البلد دائما يعيش في ظروف استثنائية. والاستثناء الوحيد في يوم عادي هو استثناء، باختصار سحبت القرص وأخفيته.
- والمطلوب مني أصيل، ماذا أفعل أنا؟
- أستاذ سلام انصحني ماذا أفعل؟ فأنا مرتبك وخائف ولا أعرف ماذا أفعل به. هل أعيد القرص إلى مكانه؟ احتفظ به؟ أرجوك ساعدني. أنت أكبر منّي وأكثر خبرة في الحياة ومثقف، وليس لي في بغداد كلها من يساعدني غيرك.

فتحت علبة سجائري قبل أوان السيجارة الثانية لي في موعد توقيتها المحسوب يوميا، فانا مدخّن هاوٍ.. ورحت أفكر بهذا الشاب

المسكين ماذا يفعل؟ وقد احمرّت وجنتاه وزادته جمالا آسرا، أنا حائر مثله وقد سال لعابي للمغامرة الكبرى في حياتي:

- من يقول إن القرص جيم سيكون له فائدة لك؟
- سمعت أن السيد المستشار يتداول أمرا سريا بالهاتف مع الرجل المعمّم عن أن إعلان مكافأة مليونية هائلة لكل العاملين في المكاتب الاستشارية، لكل شخص يدلي بمعلومة توصلهم للقرص جيم. لكن الرجل رفض رفضا قاطعا واعتبر إعلان المكافأة سيضع القرص في موقع الأهمية القصوى.. الأعداء يتربصون والإعلام سيفضح القضية وتسقط الحكومة إن لم نعد القرص..
- دعني أفكر بالأمر، امنحني فرصة لكشف محتوى القرص قبل تحديد الخطة المتبعة بالتصرف، لكن عليك الاستمرار بالدوام في مكانك بكل ثقة وتفانٍ كخطوة أولى. أنا سأضع خطة محكمة للتعامل مع القرص.
- أوكي، نلتقي بعد غد الأربعاء في هذا المكان وفي الساعة الخامسة، هل يناسبك الموعد؟
- ماشي.
- أستاذ سلام لا تتأخر عن الموعد، أرجوك قف معي وساعدني، أنا قلق ومرتبك جدا. أنا خائف من الحكومة. هذه أول مرة في حياتي أكون فيها........ أكون في مواجهة أمور صعبة مثل هذا الموقف.

***

# 6

# سالي

## أمس:

في ليلة شتوية قارصة من ليالي مدينة ادمنتون، كنتُ وحدي في الشقة أقرض كالفأر المخذول من خبز الوحشة، متعبا بعد ساعات قضيتها في المشفى الذي ترقد فيه زوجتي نادية، اسم جميل يوحي بجمال الطلّة وزعيقها ينسف حروف اسمها، لقد تمّت بنجاح عملية إعادة زرع الحيوانات الذكرية في البويضات بعد إخراجها من غرفة التجميد، تركتها مسرورة بإعادة البويضات المخصّبة للرحم من جديد، أخبرتها الدكتورة الكندية بنجاح عملية الزرع بنسبة عالية جدا، وعليها أن ترقد على ظهرها من دون حركة لمدة (72) ساعة متواصلة على سرير المشفى، وقد توجّب علي الخروج من المشفى في ساعة متأخرة من الليل والذهاب وحيدا إلى شقتي..

في تلك الليلة بعد أن فتحت المحمول جاءتني رسالة (sms) من سالي ابنة سليمة تطلب مني اللقاء غدا في كوفي شوب صغير يطل على الساحل وقريبا من البارك المدوّر. إنه طلب غريب، تُرى ماذا تريد تلك التفاحة الشهية المعلّقة في أعلى الشجرة؟؟ عادة ما تتجمع

في "الكوفي شوب" هذا مجموعة من طلبة الجامعة بعد الساعة الرابعة عصرا." ماذا تريد هذه البنت مني؟" لا أدري.. لكني حسمت قراري بالذهاب حسب الموعد وترك التفكير فيما يترتب عن هذا اللقاء. هل تعلم سليمة بهذا الموعد المفترض؟ لا أعرف لكن سليمة وابنتها يستحقان منّي الكثير في خدمتهما. لا أفهم نفسي ولا أعرف ما في داخلي اتجاه هذه المرأة الجميلة وابنتها.. أعدّ جمال سليمة فرصة لشحذ خيالي وفرصة لاستثمار هذا الجمال الساحر، تمرين للسيطرة على جنوني وتهوّري ونزقي، بل هو فرصة للسيطرة على حواسي المتهالكة. هناك قوة مغناطيسية هائلة تجذبني إلى سليمة، والشخص القابع في قاعي يدفعني بقوة نحوها فيما الآخر يتمنّع أو ربما يتكاسل. غالبا ما يُحسم هذا النزاع لصالح الشخص الأول المتسرّع. وتبقى الإجابة مؤجلة عنِ السؤال، ماذا تريد مني هذه الفتاة؟ سوف أنام والصباح رباح.

في اليوم التالي ذهبت قبل الموعد إلى الكوفي شوب، والغريب أني وجدتها جالسة وحدها من دون حضور سليمة معها.. كانت البنت بأبهى صورة تكون فيها الأنثى الخارقة لتحصينات الشخص المقابل.. أصابتني بفقدان التوازن في لحظة ذهول مربكة وأنا أطيل النظر في تفاصيل الوجه المرسوم بدقة، وملامح البراءة تتأجج في نظراتها، ومن دون أن أتفوّه بكلمة، رحت أفكر بذلك الضابط المخابراتي الذي جنّ جنونه في اللحظة التي لمح أمها في الشارع لأول مرة. هل كان له الحق في الامتثال إلى آلهة الجمال؟ أشفقت عليه بل تعاطفت مع جنونه وهوسه وهو يسقط بالضربة القاضية. الظاهر إنه خبير في الجمال والسحر الخارق.. حتى جاءت البنت لتزيد على

جمال الأم طراوة وصفاء وهي تضع كل أسرار جمالها في ابتسامة خجولة من عسل وجنون.. كانت التنسيقات اللونية في ملابسها قد أضفت عليها لمسة جمالية إضافية أخرى فوق ذلك الجمال الجنوني. القميص الكاكوي ينسجم مع الجينز الكحلي، مع اكسسوارات إضافية تتوّجها قلادة فيروزية تطرز رقبتها، تضع اسوارين فضيين في كل معصم، إنها ابتكارات مكملة للطلّة البهية تحسب لها، بعض الجمال عندما يتمادى ببذخه يتحول إلى لوحة لفنان عبقري مجنون لتربك الناظر للوهلة الأولى. نسيتُ أن ألقي عليها التحية، وبقيت كالأبله أحدق في تلك اللوحة الخارقة الممزوجة من واقع ورموز.

- هاي عمو سلام.. كيفك.
- مساء الخير سالي.
- لا تستغرب لهذا الموعد.
- اليوم طالعة حورية من حور الجنة.. في كل مرة أراك فيها أجدك بصورة أكثر جمالا. سبحان الله فيك مسحة جمالية بغدادية معجونة بترف الطبيعة، حتما ستغار منك حور العين في الجنة يا سالي.
- ............ أهذا غزل أم شهادة اعتراف عمو؟

أطرقت البنت برأسها واحمرّت وجنتاها. ربما تجاوزت "الخطوط الحمر" كما تقول أمها في كل مرة التقيها. بعد ساعة من الأحاديث العامة، وكالعادة تحدثنا عن الوضع العراقي الشائك، ومدى احتمالية تحسّن الأوضاع هناك، طبعا كانت على معرفة على عزمي للسفر إلى بغداد حين الانتهاء من زراعة طفل الأنابيب لزوجتي.. يحدث لي ما يشبه الصعقة عندما أتذكر أمها.. كنت متوقعا أنها ستخبرني عن حب

أمها لي مثلا، أو شيء من هذا القبيل. هي تعلم أننا نجتمع معا كلما سنحت لنا الفرصة، أو أزورها في شقتها عندما تطبخ الأكل العراقي الخاص أو تعمل الشاي العراقي وكعك السيد، يحدث ذلك من دون علم من زوجتي. سليمة طباخة ماهرة وخبيرة ستراتيجية بشؤون الأطعمة وأصنافها. تعطي من روحها الكثير في مذاق طبخها، رغبة عارمة لأرمي نفسي في حضنها للبكاء ساعة لأشفى من جنوني، هناك أكثر من مانع في الأمر ربما يفسد مستقبلي مع البنت وأمها.

- عمو سلام أريد أن أذهب معك إلى بغداد.
- نعم!!! ماذا تقولين؟
- بصراحة أنا قررت الذهاب إلى بغداد، سوف تقوم أنت بإقناع أمي للذهاب إلى مدينتي الأولى ولقاء أخي أصيل.
- عمو سالي ليس الأمر بهذه البساطة. بغداد مدينة غير عادية. مقلاة ساخنة يشوى فيها البشر كل يوم. صدّقيني لولا المهمة الإعلامية بالنسبة لي لا أقدم على هذه الخطوة مطلقا في هذه الظروف. ثانيا أنت ما علاقتك في العراق، سيجلب لك الصداع هذا الهم. أتركيه وانطلقي في الحياة هنا.
- إذا لم تأخذني معك سوف أسافر وحدي. هذا قراري حتى إن خالفتُ أمي في الرأي، سمعت كثيرا عنها كمدينة ساحرة من الشرق وعن نهر دجلة وعن بشرها الطيبين. الف ليلة وليلة وعلي بابا والأربعين حرامي، ثم أنني هنا ليست لي صداقات حقيقية.
- لا تهتمي كثيرا لمرويات التاريخ والذاكرة، محض هراء.. بغداد الآن غير بغداد الكتب الصفراء، ومهمتي في بغداد ستكون

مغامرة في مشوارها الأول، لكن صدّقيني في رحلتي الثانية اصطحبك معي، بل سوف أقنع أمك في الذهاب معنا. وسترين أصيل وتلتقين به. لكن في المرة الأولى لا يمكن مطلقا. ثم أنك بنت جميلة ومتحرّرة، وهذا لا ينسجم مع وجودك في مدينة فيها لغة السلاح والخطف والدم أعلى من كل لغة، والطبيعة قاسية هناك ولا تطاق مطلقا. الحر هناك غالبا ما يذكر الناس في الجحيم، لذلك هم لا يودعون النار في يوم القيامة.. بصراحة ذهابك معي انتحار يا سالي. كذلك بودي أن أخبرك عن أصيل ربما لم أجده في المرة الأولى أو ربما..... الوضع مختلف تماما وغير مضمون النتائج.

- طيّب، تعطيني وعدا لتصطحبني معك في الرحلة الثانية. إذن خذ هذا المظروف وسلّمه إلى أصيل إن وجدته في رحلتك الأولى، فيه البوم صوري من الطفولة وحتى الجامعة ومعه رسالة تسلمها له وتقبّله نيابة عني، وقل له: "إن أختك تنتظرك".

حملت حقيبتها الأنيقة الجلدية المطعمة بقماش فيروزي مؤطرة بالبلك. غادرت تاركة خلفها سحر رائحة العطر يحوم في فضاء المكان، وضعت المظروف المُحكم في حقيبتي وهممت في المغادرة.

سالي البنت البريئة تفكر في الارتواء من ماء دجلة والتمتع بحكايات علي بابا وألف ليلة وجحا وكهرمانة. **مسكينة** لا تعرف ما يجري على أرض الواقع.. إنها تحلم فقط. أخرجت سيجارتي من قمقمها مستمتعا بدخانها ممزوجا مع سحابة العطر الساحر الذي خلفته في فسحة المكان.

***

7

# العقيد غسان

**الآن:**

فَقد العقيد الإحساس التام بقسوة الأجواء البغدادية، تجمّـــدت في روحه حالات الشعور في البرد والحر تماما، منشغل في مداعبـــة خيـــوط الفراغ التي علقت بها روحه، إثر مرضه هذا، فوجدته لأكثر مـــن مـــرة يرتدي ملابس ثقيلة وشتوية في هذا الجحيم الصمغي، لا يشعر بقســـوة سياط الشمس مطلقا. ماذا حدث سيدي العقيد بالضبط؟ جبل أســـرار السقوط الذي تخفيه في قلبك سيتبدد حتما في يوم مـــا، وليـــل الهزيمـــة ستطل عليه الشمس يوما، تكلّم أرجوك سيدي قبل فوات الأوان.

خرجتُ منهكا ومرتبكا من "**رابطة كفى**"، صـــدمة أخـــرى مضافة إلى رصيد الصدمات، من خطاب الرئيس إلى القرص جـــيم، هاجمتني حزمة من أفكار عدمية متلاطمة انهالت دفعة واحدة علـــى ضفافي الطينية الرخوة، حاولت التخلص منـــها بطريقـــة نســـيانها والانشغال في فكرة أخرى، فهززت رأسي في الشارع لأطرد شـــبح تلك الأفكار. أحاول العودة لمتابعة برنامج مواعيدي لهـــذا اليـــوم، وقفت تحت مظلة للشاي السفري في مقدمـــة شـــارع الأمـــيرات،

اتصلت بسكرتير طبيب الصم والبكم، حيث من المفروض أن اصطحب أخي العقيد غسان إليه، بعد أن بلغت حالته درجة مخيفة، فكلما ازدادت حالة الكآبة لديه تقلّ شهيته للطعام والشراب، رغم أنهم داخل البيت رفعوا جهاز التلفاز من غرفته حسب نصيحة أحد الأصدقاء من الضباط عندما زاره في بيته..

*

جاء في الإعلام السري أن الحكومة منشغلة في البحث عن فقدان القرص جيم إلى جانب انشغالها بتكييف خطاب الرئيس وفك طلاسمه، وتناست تماما ما أصاب العقيد غسان من مصيبة كارثية..

غسان كان المثل الذي أوقفه أمامي لأقنع نفسي بكل سخافاتي وحيوانيتي الحقيرة، هو قدوتي وقبلتي التي إن اهتز مكانها حتما ستنهار عوالمي كلها دفعة واحدة.. أوووف ماذا جرى لنا يا رب؟؟؟ خالتي هزيْمة كانت دائما تقول: "البركة بغسان، أما أنت فخائب من رأسك إلى قدميك".

أبدو الآن مثله، كمقاتل مخذول في جيش مكسور.. وعلّي تصور ما حدث له.. خسر معركة لم تحدث أصلا، لكنه بقي في قيد الحياة، آخر المنسحبين من مدينة الموصل، بعدما يئس من الثبات وهروب الجنود من حوله، حاول الثبات لكنه أصيب بالصدمة من فرار الكل من حوله، انسحبَ مع مَنْ تبقى من حمايته الشخصية، وعاد منكسرا مصدوما يجرجر أذيال الخيبة والخسران. لا أرض تحته ليقف عليها ويحارب كما الرجال الأفذاذ، ولا جدار صلد بقربه ليسند إليه ظهره من التعب.

لا أحد يسمع ما يقوله مقاتل الحرب الخاسرة، ليس له من يستقبله على أبواب المدينة، لا نساء تزغرد له في عودته، لا من قائد يقلده أوسمة الخذلان، بدلته الخاكية المرقطة بنجوم رتبته الصفراء تركها قريبا من مفرق الشرقاط نهبا إلى كاميرات جائعة تلتقط صورا طازجة، لكنه احتفظ بالتاج.. عاد إلى بيته في بغداد كسيرا وخجلا من النظر في عيني زوجته، يرتدي كعادة المنسحبين غير المنظّمين "تراكسوتا" رياضيا، لا من ورود ترمى أمامه.. لم يمر ببهاء ونشوة من تحت قوس النصر العظيم، كان فقط مكللا بالعار الرسمي.. إنه تعيس حقا. لم يقلْ شيئا.. فقط غلّف نفسه بطبقة من صمت فولاذي إلى الأبد ونام. نام مثلي، حتى لا تفضح عيناه الأسرار التي حملها عن هزيمته المريرة. نام هذه المرة من دون أن يحلم بتمثال له وسط بغداد: "لا يا أخي يا غسان الوافي.. لا تفعل بنفسك أكثر مما تستحق، فحق النفس عليك أغلى من... للأسف يقولون لا من تماثيل تنصب للمتخاذلين والمهزومين والخونة".

أخي غسان أنا أشبهك، هُزمت أنت في الحرب وأنا في الحياة، كلانا نكره اللوم والتقريع بعد نفاد الذخيرة، نعم أعترف لك بضعفي، أنا غير متوازن من الداخل، رغم كل ملامح التصالح الكاذبة التي أتظاهر فيها أمام الناس. عليك بالنوم الطويل على طريقة جاد الله.

**"ثمة مَنْ شخص آخر في داخلي يتحدث فيّ. إنه يهذي.. أسمعه ولا يسمعني".**

تحول غسان إلى هيكل عظمي بوجه شاحب ولحية طويلة بيضاء وشعر أحمر بعد أن أزيلت ألوان الصبغة عنه، أين تلك الأناقة

يا غسان؟ أين ذهبت تلك الشخصية المتجبرة التي نحتتها له مؤسسة العسكر العراقية؟؟ قالت لي زوجته: "عندما عاد من الموصل بعد ثلاثة أيام من سقوطها، كان منهكا وشبه الميت، وضع رأسه على المخدّة ونام لثلاثة أيام متتالية، وعندما استيقظ في اليوم الرابع جلس قرب النافذة يتأمل الشارع، ومن تلك اللحظة قطع الكلام تدريجيا، بعد أن خاط فمه وصام عن الكلام، حتى أصبح على هذه الحالة".

لا أحد يعرف ماذا حدث له، ليس عندي مناديل كافية لدموعه، أصابته حالة فريدة لكنها قابلة للعلاج حسب ما أفاد أحد الضباط الذين يكررون الزيارة لبيته. وهو الآخر انسحب من الموصل لكنه تحمّل صدمة الهزيمة بروح عسكرية رياضية. لم يكن سقوط الموصل واحتلالها بالنسبة له كابوسا فحسب، إنما أصابه بحالة فريدة من الفزع التاريخي المتكرر، حيث جرّب الانسحاب مشيا على الأقدام من الكويت يوما ما لكنه عاد بشكل طبيعي، هول الصدمة كان مرعبا عليه، لم تترك الهزيمة في نفسه إلا جروحا اندملت بمرور الوقت، وقبل الكويت أدرك قضية الانسحاب المزعوم من مدينة خرمشهر/المحمّرة الإيرانية و لم يشهدها، كذلك لم تؤثر فيه هزائم داخلية كثر..

- مرحبا. أنت سكرتير دكتور أحمد الرهيمي.
- اسم المريض رجاء؟
- غسان الوافي. أصيب منذ فترة بفقدان القدرة على النطق.
- تعني حالة بكم، ليس ولاديا أو خلقيا؟
- بعد احتلال الموصل بالضبط.. هو عقيد عسكري انسحب من الموصل وعاد منكسرا إلى بيته و لم ينطق بكلمة لغاية هذا اليوم.

- هل استمع إلى خطاب الرئيس بعد الانسحاب؟
- لا.. لا أعتقد.
- هل تابع خطبة الخليفة على برنامج اليوتيوب مثلا؟
- لا
- أخي إذن حالته لا تستدعي دكتور أحمد الرهيمي.. ابحث عن طبيب نفسية مختص في هكذا حالات.
- هل تعرف أحدهم؟
- أكثر الأطباء العاملين المتبقين في البلد هم في اختصاص مقارب تجدهم أما في الحارثية أو في ساحة بيروت. وحالته لا تستدعي القلق. تعال اليوم إلى عمارة منجد الفلسطيني بساحة بيروت وستجد أكثر من عشرة أطباء هناك.
- شكرا.

استغربت من رد هذا السكرتير الطيّب، فلقد كان مرِنا معي في الإجابة الوافية رغم سريالية إجابته، على غير عادة العراقيين في تلك الأيام، فمعظم من ألتقي بهم أجده مستنفرا جدا ومستفَزا من شيء ما، فهو حاد الطباع ومتوتر، لكنه حاول استفزازي بخطاب الرئيس والخليفة، كذلك استغربت على قدرة الرجل لوصف مكان الدكتور المطلوب بحسّ جغرافي فيه قدر من الواقعية العالية، أيضا على خلاف أقرانه بالتوصيف السريالي عندما تسأل عن مكان ما في بغداد، كما حصل لي أول مرة للوصول إلى مدرسة المعلمة التي أوصتني سليمة للوصول إليها فتدلني الأخيرة على عنوان أصيل، فلا اليمين يمينا عندهم ولا الشمال كذلك،" أنظر خلفك ولا تنظر أمامك".

زوجة أخي غسان "أم محمد" هي التي تتصل بـــي وتـــدعوني لمرافقتها الى الطبيب.. المسكينة لا تدرك عما يحتمل بـــداخلي مـــن مشاكل وأمراض.. بعثت لها رسالة sms.. "انتظرك مع غســـان في الساعة السادسة في ساحة بيروت تحت الجسر.. سلام". مسكين أنت يا غسان. أي لغز هذا الذي جرى من حولك؟ أية أسرار تحملـــها في قصة الانسحاب هذه؟

أضع مشكلة غسان على رف في رأسي لأسترد أنفاسي، أنـــا مشغول بأمر آخر لا يقل أهمية عن مرض أخي، مشغول بقضية أصيل والقرص الذي كلمني عنه، ربما يحتاج أخي إلى صدمة أخرى مشابهة لتفك لسانه وينطق. فالزمن الأغبر أصبح كفيلا بتـــوالي الصـــدمات الكبرى. أما قضية القرص فقد اتخذت القرار المناسب لها منســـجما لأول مرة مع نفسي في خوض المغامرة مع أصيل إلى النهاية.

***

# 8

## أبو العوف

### حاليا:

ثمة مواضيع كثيرة طارئة تشغلني حاليا، بين نكبة غسان هزيمته المرة ومرضه، أصيل وقرصه في حلم الكنز المنقذ، و"أبو العوف" وعربدته وسر ديمومته وسط الخراب والفوضى وسعادته المصنوعة بالحبوب المهلوسة، ومع تلك الأفكار الطارئة تراجع اهتمامي بعملي الذي جئت من أجله إلى بغداد، كان يفترض أن يكون في مرتبة الأولويات، لكن الظروف أجبرتني على معالجة الطوارئ من الأمور التي أحاطت بي.

خرجت من المقهى قبل حلول ساعة ذروة الظهيرة، تاركا أصيل فريسة الخوف والقلق من هواجس رعب الملاحقة البوليسية الباحثة عن القرص جيم، لا يعرف ماذا تخبئ له الساعات والأيام القادمة، وهو مثل لص مرتبك يجرّب السرقة للمرة الأولى في حياته. أما أنا فلستُ بأقل من خوفه وقلقه، لكني مع ذلك قرّرت تجنيد نفسي لمساعدته بل والمشاركة معه في حلم الكنز.

سلّمته المظروف الذي أوصتني سالي عليه كثيرا منذ اللقاء الثاني

معه، لكني لم أساله بعد، حيث انشغل بقضية القرص وشغلني أنا معه، وأهملت متابعة مشاوير التصوير للوكالة.

أصيل بذرة بريئة من رحم الساحرة سليمة التي أوصتني بإقناعه في الهجرة، وقد قررت بيني وبين نفسي عدم الإلحاح عليه كثيرا بانتظار الفرصة المواتية. ليس له غيري في بغداد كما يذكر ذلك دائما، لذلك قررت الدخول معه شريكا تحت تأثير الكنز في فك طلاسم القرص، طامرا بذلك حزمة المبادئ والقيم التي تنط برأسها بين حين وحين. بغداد لا تتوافق حاليا مع تلك القيم البالية. في الفوضى العارمة ثمة برغماتية هي التي تتحكم في المواقف. السؤال هنا ترى هل يكون من الأهمية هذا القرص الذي يستحق كل هذا التعب والمجازفة؟ لا أدري لكن الذي أدركته أن هذا القرص فيه من المخاطرة الجميلة على غرار الأفلام. هذا الولد لا يمتلك - كما يبدو- الخبرة الكافية في الحياة، مرتبك ومتردد خاصة بعد قضية القرص. سأكون له خير المرشد والمعلم والمخطط الحكيم.

خرجت من المقهى وثمة دخان يتصاعد من هامات الناس أشباه العرايا كأنهم يؤدون طقسا في كرنفال شعبي، غير مبالين في الحر الجهنمي، كشموع ذائبة تسبح في النهر، شموع وضعتها أرامل الجنود الذين غيّبتهم معركة هزيمة حزيران الثانية، هزيمة بطعم العلقم. الجيش المليوني ينكسر ويتفتت ويضيع.

كان بعض المارة يتفادون الشمس بوضع المناشف الرطبة على رؤوسهم، وفجأة تتوقف عربات الحمير لنقل الغاز السائل عن السير وسط الشارع لتشخّ حميرها دما قانيا في لحظة حرجة تلتصق فيها قوائمها بالإسفلت المائع، وتلك إشارة واضحة لتختفي الناس في

جحور البيوت. إنها بغداد في درجة (49) مئوية والحياة كما هـــي، وحسب تعبير "أبو العوف" عادية جدا ولا من جنون حقيقي يتلبّس الناس في هذه الساعة الحرجة.. أشمُّ رائحة تمرّد مخنوقة تزفرها الناس من الصدور، مع هجوم موجة الحر الهمجـــي علـــى رؤوس هـــؤلاء المارقين بسرعة أمامي. صوت المطرب الشعبـــي "**ســـعدي الحلـــي**" يصدح في الفضاء الصمغي كجزء من الحل، إذن عليّ بكـــوب مـــن الشاي السفري مع حبة أخرى من (موكادين/25 ملغ) ليحلو الكلام وتخّف نوبة الجنون. مثلي مثل السائرين في الشوارع لتحمـــل شـــبح الهزيمة. هذه أول حبة أتناولها عندما قررت الإقلاع تماما عـــن البلـــع تماما قبل يومين.. في كل مرة أقرر وأنقض العهـــد المـــبرم مـــع ذاتي الثكلى. طلبت الماء من بائع الشاي السفر، لكنه اعتذر بطريقة صلفة، **يحدث التصادم بيننا في كل مرة.**

- جبان ومتخاذل أنت يا سلام.
- لا يهم فأنت من أوصلني إلى هذا المنحى، وأنت مَنْ وضعني في تلك الزاوية الضيقة والمظلمة، أنت وحدك مَـــنْ أشـــهر سياطه وجلدني مثلما يفعل جند الخليفة.

وجدتني مباشرة تحت سياط عذاب ألسنة أشعة الشمس المباشـــرة، سياط مسنّنة مجنونة للعذاب البشري اليومي تلفحني مباشرة، على إثرهـــا فقدت التصرف الحكيم عندما مرّ أمامي شخص يتفادى سياط الشمس بفردة حذائه، انتعلها في رأسه ليحتمي من سهام حارقة لأشـــعة شمـــس الصيف البغدادي. أتقافز كالمجنون، أصيح الحر يا ناس أمـــا تشـــعرون؟ الحر.. الحر وجنده يتراكضون ويتقدمون ثم يتمددون من دون شـــعور في الحر، صاحب الحذاء يضحك صائحا بـــي "فكّرْ يا أخـــي بطريقـــة

جديدة لتفادي السياط".. ومازال "أبو العوف" من موقـع أدنى يكـرر جملته الشهيرة ولازمته اليومية "عادي جدا" مع كل ما حدث ويحدث.

وما أن وقفت على ناصية الشارع حتى انهالت عليّ "هورنات" من كل حدب وصوب لسيارات التاكسي الصفر، لم أكن مومسـا مثلما يقولون. ثمّة نشيد حار يتحدث عن الوطن ويصفه بخبز التنور، الكورس الغنائي يصرخ من سيارة الشرطة المارقة أمامي بسرعة تمهيدا لإعادة خطاب الرئيس مرة أخرى، حيث اعتبره المذيع بخطاب النصر وعنوان التحرير.

رحتُ أتطلع لتكسي حديثة مغلقة النوافذ لأضـمن التكييـف داخل غرفة التاكسي. الحمد لله حصلت على واحدة. ها هي تتوقف بقربـي:

- حجي تروح للمنصور؟
- وين بالمنصور؟؟
- شارع الأميرات.. قرب مجمع السفارات.
- خمسطعش الف عمّي.....
- أوكي بس مع التبريد.
- اصعد "يابه" اصعد..

في التاكسي داعبتني نسيمات باردة تقذفها بحنـان الفتحـات الثلاث المتبقية من سيارة الهونداي الحديثة، أمواج هائلة من السيارات ولكافة الموديلات، كل شي يبعث برائحة الحداثة هنـا إلاّ البشـر مازالوا مقيدين إلى ماضٍ سحيق بشغف وعنف كـبيرين.. السـائق مشغول بتقليب الإذاعات المحلية دون أن يستقر على واحدة تـذكر ليتفادى شدة الازدحام في التقاطعات والسيطرات..

"أنا في الطريق إليكم" هذه الرسالة التي أرسلتها للناطق الرسمي باسم رابطة "كفى" للانتحار الجماعي مستغلا طول المسافة والوقت المهدور في التاكسي، لم ألتقِ سابقا بالناطق الرسمي إلاّ عبر المكالمات الهاتفية المطوّلة، توقعت أنه سيرفض فكرة تسجيل الفلم الوثائقي لوكالة جوو. رابطة سرية لم تظهر للعلن بعد، لكن المفاجأة جاءت بعدما اتصل بي ليلة البارحة ليخبرني أنه تمت الموافقة على تسجيل الفلم الوثائقي بشرط حجب الوجوه وسرية المكان الحقيقي في الحفل الأول لموقع الرابطة المزمع أقامته فيما بعد. وعند الدخول على الموقع الالكتروني للرابطة وجدت السرية في ترميز حتى أسماء الجماعة والأخوة المنضوين تحتها.. بدا لي أن هذه الرابطة تعمل بسرية تامة خوفا من الهجوم المحتمل عليها، حالها حال أي تنظيم سرّي مسلح آخر.

*

أحدّق الآن من جديد في وجه بغداد، أضغط على جوراب ذاكرتي، لأستل منها وجه سليمة حنظل البغدادية المهاجرة، فتعكس المرآة صورة عجوز غطّتها تجاعيد الزمن وشخّ عليها التاريخ المهلهل، بغداد ما بعد 6/10، لا ليست هي، هذه صورة مشّوهة لسليمة. ترسم بغداد لنفسها صورة أخرى معّدلة بعد خطاب الرئيس، صورة بغداد الجديدة معتمة بألوان من سخام على هيئة صورة لعجوز عمياء تستجدي المحبة من بخلاء العقائد المنحرفة، عجوز تتبول على نفسها وتنام في الشوارع وتأكل من بقايا المزابل.. بغداد هي الآن الباب الشرقي بكل عوالمه السرية والعلنية، بغداد هي "أبو العوف" نفسه

بهرجه وصخبه وسعادته الطافحة من الخرائب والخراب الشامل، بزبائنه المسطولين والمهزومين أمام جند الخليفة والباحثين عن سطوة نوم طويل، يترنمون بشعار المرحلة "**النوم هو الحل**" بشواذ الأبناء ومثلييه الباحثين عن سقف الأمان. الحداثة والعصرية والأساطيل والجيوش تتراجع أمام جند حفاة من كل أصقاع الأرض احتشدوا لهزيمة غسان ذلك العسكري المنضبط.

عندما عدتُ إلى بغداد شعرت لأول مرة بندمي على هذه العودة.. محاصر من كل مكان وبغداد لا تكاد تسع بما فيه الكفاية، محاصر بتشويش فضائي وحر صمغي فائق، أول الأشخاص الذين أجبرتني صدمة الموصل، لأتعرّف عليه كان يعمل بائعا جوّالا في منطقة الباب الشرقي، هو صديقي (أبو العوف) بائع الحبوب المهلوسة وصيدلاني الباب.. تجارته في جيوبه. خيارات كثيرة ينتقي منها الزبون الشريط الذي يناسبه.. بعد أن يشرح حالته يصف بخفة الطبيب ما يناسبه من شريط ملائم لينسى ألم النكسة وينام.. كل ما خرجتُ به من "أبي العوف" هو هذه الجملة الناقصة (عادي جدا)، مختصرا المأساة بفذلكة ظريفة. في أتعس الظروف التي تواجهه يختصر الحياة بكلمتين ليس أكثر، حتى عندما قلت له أنك "ستقتل حتما يوما ما في الباب الشرقي": عادي جدا. الموت أسهل بكثير من الحياة هنا صديقي"، وأذكر أني عندما قدمت نفسي له في أول لقاء تاريخي يجمعنا:

- اسمي سلام الوافي.. أريد حبوب لأخي العقيد المنسحب من الموصل. رد علي بسرعة ومن دون تفكير:
- عادي جدا.

- ما هو العادي؟ ضحك ومدَّ كف يده ليصافحني بقوة:
- يا أخي طلبك موجود عندي. وأهلا وسهلا بك في الباب. الموت عادي جدا والحياة أيضا صديقي.

شخص غريب التصرفات والأطوار حقا، قصير القامة جدا كقزم مخذول، مهلوس الشعر يغطي الوشم ذراعيه، الندوب والكدمات تزخرف مناطق واسعة من جسمه الضئيل، يذكرني بدمية ابني سراج. تندمل الجروح الغائرة في وجهه وتترك آثارا لخريطة ما يستدل فيها على الزمن الرديء، يتاجر في أشرطة الأقراص المنوّمة والمهلوسة والمخدرة كلا في صنفه وحالته ووفق تشخيصه، ويعتبر نفسه الموزع الرئيس في بغداد والمحافظات، عندما قلت مستفزا له:

- فقدنا الموصل يا صديقي قال كلمته الشهيرة:
- عادي جدا في العراق الجديد.. أن تفقد أفضل من أن تكتسب. أنت في بغداد يا صديقي.
- ......

لا أعرف بالضبط ما قصده بقولته الشهيرة هذه وما هي "العادية" في هذه النكسة الأليمة التي أصابت أخي غسان بالبكم.. ثلاث صدمات متتالية تلقيتها معا، هي الموصل وغسان و"أبي العوف".

سلّمني الحصة الأسبوعية من الأقراص المنوّمة و لم يفصح عن معنى قولته بعد أن شرحت له مختصرا حالة غسان.. يتحدث ساخرا عن صديقه "أيوب الأبتر- خوش ولد من جماعتنا - بلاّع تمام ومضبوط ضبط العِقال".. يفلسف "أبو العوف" الأفكار بطريقة مثيرة للانتباه. "يقول أن النوم الطويل هو تمرين مريح للموت، النوم يشبه

الموت، لكن فرقه في الأحلام صديقي.. هو موت مؤقت لا ما جوج ولا جالوت".. شخص غريب في مكان غريب جدا..

غادرت الباب الشرقي على عجل وأنا أضع معاني مختلفة لأفكار غريبة.. "ابلعْ شريطا كاملا وأنسَ - بعد روحي - الحياة تعبانـــة". "أبو العوف" صديقي وطبيبـــي يفلسف الحياة بالدعوة للنوم العميق بحبة هلوسة لتنسف انتظام عمل الدماغ، "**ابلعْ**" حتى لــو خلعـــتُ ملابسي كلها في الشارع، متنزها بسعادة تحـــت ســياط الشـــمس الجهنمية.

*

في الليل عادة ما أتحول إلى خزّان عملاق لمشاريع معتّقة منـــذ عودتي غير الميمونة للعراق، الأحلام غالبا ما تتـــوارى وتنـــدحر في وضح النهار منزوية كالخفافيش، في الجـــزء الأعلـــى مـــن الخـــزّان الافتراضي هذا تطفح كل ليلة مشـــاريع طموحـــة قصـــيرة الأمـــد ومؤجلة، وأخرى منذ زمن بعيد تلوح ثم تتبعها، تطفو كأشباح دفعة واحدة تحت جنح الظلام، الليلُ يعمل بخفة على لملمتها كعامل نظافة نشيط ثم يكبسها كنفايات في أعقاب الصور المتكدّســة في محاولـــة تدويرها.. ومع أول ساعة أضع رأسي على المخدة.. يبـــاغتني هـــذا الصداع التاريخي، مُصدعا رأسي بمطرقة عظيمة من الهزائم المتلاحقة، إلى متى... يارب.؟؟؟ لا أعرف. أبو العـــوف والخليفـــة والـــرئيس وحدهم يدركون فقط ما حصل.

اُبتُلعتْ الموصل من الفك إلى الفك، ولا حل أمامي سوى بلـــعَ ما تيسر من الأشرطة المخدّرة للنوم العميق حسب توصية العـــارف

الفذ "أبـــي العوف".. في الليلة الفائتة لم أذق طعمَ ساعةٍ من النـــوم رغم التهامي لثلاثة أقراص نوم Z. drugs) - فئة 50 ملغـــم (مـــن مجموعة "بينزودايابيين" القوية حسب وصيته، ماذا أفعل الآن ومفعولها تأخر إلى هذه الساعة؟ هل كانت مغشوشة يا "أبا العوف"؟

تعمل الحبّة الواحدة بعد مرور خمس وعشـــرين دقيقـــة علـــى الأغلب في معدة فارغة نسبيا والتخمة تؤخر عملها إلى حين. أفادني العارف الخبير المزروع عمدا كرمز مجرد عند قلعة الباب الشرقي، في أول منعطف من الباب على اليمين قرب بسطيّة (أيوب الأبتر)، وهذا أشهر من يبيع الأقراص المدمجة عن فضائح شتى لممنوعات الساســـة والفنانات والغلمان المخنثين، ويبيع خلطة أقراص مضغوطة ومبتكرة للمتزوجين المخذولين والذين يعانون من شبح الهزيمة المـــرة، وعـــن صنوف بضاعته يقول في آخر تصريح له:

- حبيبـــي هذه مجموعة أقراص (أنتي - هيســـتامين) هـــذه تعمل بعد مرور بضع دقائق، عملها كعمل شرطي المرور، أولا يكون البالع جاهزا للتنازل عن كبرياء شخصـــيته، ثم تشخص حالته ليعطى الكبسة المخلوطة مع الشاي المُحلّى، لكنها ليست من النوع الاحترافي. هذا النـــوع الجديـــد لم يثبت كونه - رجسا من عمل الشيطان- فهو معمول من أعشاب نباتية، ولا من الأحوط تجنبها- هذا ما توصّل إليه (الجماعة) كعلاج شرعي لتحمّل العيش الواجب في بغداد اليوم.

حصلت عندي قناعة بأفكاره وعمله بعد قناعتي المسبقة بفلسفة جاري "جاد الله"، فالنوم هو بديل سحري إزاء ما يعصف بنا مـــن

مشاكل مترادفة وهذا الغموض الآيدلوجي. للنوم سلطة القبض على كينونات العثّة التي تعبث في الرأس ويكشطها واحدة تلو الأخرى.

"أبو العوف" هذا ليس بعثيا أو شيوعيا أو إسلاميا، هو خلطة سحرية عجيبة لشخصية أفرزها الواقع ما بعد الموصل والهزيمة، سحقته لعنة الحياة العراقية بكل صلفها وأنتجت لنا هذا الرّمة، الحياة العراقية هي اللعنة الخبيثة كمتلازمة عشق البلد التعبان، بغداد تمقت محبيها.

راح يبدع في مهنته ليكرس التنويم المدروس والممنهج للمهزومين من أقرانه في سلّم المأساة.. له موقع في الفيس بوك ومتابع بتغريدات كثيرة على تويتر من كل الأطياف.. يروّج غلى حبة فيلكا (**FLAKKA**) حبوب الهلوسة الرخيصة الأثمان والخاصة بالمهمشين، حبوب ما بعد الحداثة كما أفادني للتعريف والترويج لها. إنه زمن **الفليكا** الامريكية؛ لها قدرة تحويل خزان التعاسة بدقائق بعد البلع إلى سعادة غير متخيلة.. يطلق عليها "أبو العوف" **حبة الفلك الأسود**. يرقص بلاّعها في مأتم أخيه ويغني (ياويل – ياعين– ياليل) على أنقاض الخرائب بسعادة وحيوية.

وضع تسميات شعبية لأشرطة الهلوسة وفق مزاجه حبة الشبح/ الدموي/أم الحاجب/النشوة/أم الصليب/أم الطرّة والسماوية والخاكية والمغاوير.. معظمها ينتمي لمجموعة الترامودول الخاصة وLSD المهلوسة. حبوب شتى أكثر من خمسين نوعا حديثا تنهال على بغداد من أصقاع العالم الصناعي، هي أكثر فتكا ومخصّصة للنوم الطويل من مجموعة سومادريل "وزاناكس وريفو تريل" وكل نوع له موجة تأثير في فنتازيا السلوكيات الطارئة والمصاحبة لحدّة النشوة وكلها في

جيوبه أو على خشبة العرض أمامه.. نشوة خالصة تجعل بلاّعها يضحك بهستيريا قبل النوم.. لها قدرة تضخيم الشخصيات والموجودات بشكل كاريكتوري مذهل، تنسي متناولها مدن النكبة في الموصل وبغداد والبصرة كما يقول. "أبو العوف" يدرك تأثير كل حبة ومديات تأثيراتها بخبرة الاحترافي الذي لا يدانيه أحدا بغور التفاصيل والتأثير: "يا أخي تحولنا في العراق الجديد من كحوليين عدوانيين إلى بلاّعة مستسلمين للقدر". حتى الصيادلة يحجزون له حصته الشهرية ويسألونه أحيانا عن بعض الأنواع والأصناف الجديدة الواردة من مناشئ غير دقيقة. قلت له:

- صديقي "أبو العوف" أنت داهية وخبرة قومية غير مستثمرة بشكل جيد..
- لا قومية ولا هم يحزنون. نوم الشوارع علمنا الحياة الجديدة في العراق الجديد.. خالي. افلتْ. إشطح الآن حانت ساعة مداهمة الشرطة ليلتقطوا أرزاقهم مني ومن غيري..
- الأسبوع القادم في المكان نفسه حبيبي.

*

حللتُ ضيفا في شقة الرابطة بعد أن تركت "أبا العوف" في ميدان عمله وهو يجرب فيّ للمرة الأولى حبة الفلكا مخلوطة بفاليوم عشرة دفعة واحدة، لتحدث النشوة مصحوبة بسعادة الجنة.

في الطابق الثاني من عمارة شاهقة كتب على مدخلها للتنكر فقط "مكتب تسجيل الشركات التجارية"، وعندما دخلت استقبلني اثنان من جماعة "كفى"، أحدهما عرّف نفسه بأنه الناطق الرسمي الذي اتصل بي

والآخر الثرثار هو عضو ناشط في الرابطة ومسؤول عن الدعاية والإعلام.. الصورة المعلقة في غرفة الضيوف هي صورة غريبة، ليست فوتوغرافية ولا مرسومة بالزيت، عبارة عن ملابس ممزقة لصقت على خشبة اللوحة. لوحات مرسومة أخرى بطريقة غريبة لكنها كما بدت مزيج بين الاثنين معمولة بصناعة فنية خالصة، تحمل من الرمزية والإيحاءات أكثر من المباشرة، في واحدة من اللوحات ثمة ابتسامة عريضة على وجه مشرق لشاب فارق الحياة مبتسما، تحيطه هالة زرقاء وهو ممدّد غلى أرض خضراء.. وقد تبيّن من خلال تلك الصورة الفنية غرابة هذا المكان وفنتازيته، أما البوستر الكبير لـ (رجل من دون رأس) خلف المكتب الأنيق وبيده ابرة لزرق الإبر يضعها على ساعده، كأنه يبحث عن مكان الوريد. فعلا كان هذا المكتب الغريب يثير رجفة في البدن. كفى للهزيمة الأبدية هو الشعار المطرز بالبلك الفضية في صدر المكتب.

ثمة غرفة داخلية طليت باللون الأحمر القاتم بابها نصف موارب.. يبدو لكثرة الاتصالات الهاتفية والرد عليها ثمة أعمال حقيقية للرابطة، هناك كما يبدو علاقة جدّية بمنظومة إقليمية، كذلك بدا لكثرة الاتصالات أن لها فروع متعددة أيضا في محافظات عدة.

في هذه الجلسة لم يسمح لي بنصب الكاميرا والشروع بالتسجيل، المدير مرتبط بعمل إنساني يخص الرابطة، لكن الأخ الذي استقبلني ولا تعريف لاسمه، فهم ينادون بعضهم بالكنى، حدد لي موعدا آخر للبدء بتصوير الحفل، وراح يتحدث لي عن الفكرة الفلسفية والنظرية المنبثقة لإنقاذ أعضاء الرابطة من العذابات المتراكمة ما بعد الموصل، بينما ذكّرني أحد الجالسين المدخنين بموعد السيجارة الثانية، وقد حان موعدها وبتدخينها تطمئن القلوب:

- إن فكرة الانتحار الجماعي باختصار شديد هي فكرة مستنبطة من طريقة الموت الرحيم، لكن الأجدر حسب النظرية هو الرأي الجمعي لطرد وحشية الموت الفردي وغربته، أنا مع الجماعة حتى في لحظة الموت المقدسة. نعم هناك قدسية هائلة في طريقة الموت الجماعي.. نحن في الرابطة نموت باختيارنا وفق التوقيت والمكان المحددين، مع العلم أن الرابطة لم تبدأ في الجهر والعلن المُشرعنين للعمل الجماعي لرابطة الانتحار النخبوي والأنيق، ربما تتعارض أفكارنا مع السلطة، هذا احتمال قائم للفترة القادمة، وربما لا نستطيع أن نفتتح العمل إلاّ بإخفاء اسم الرابطة المكشوف والتستّر خلف مسمّى آخر.. لذلك عمدنا على إخفاء عملنا، وحتى موعد الحفل الأول سيكون العمل سريا في الوقت القادم خوفا من المداهمة المحتملة، ومحاكمتنا بعد زجّنا ثم ربطنا بحركة إسلامية متلونة ويطبقون علينا فقرة (أربعة إرهاب). سنجهر بالدعوة بين شعاب بغداد في الوقت المناسب عندما تتصلب أعودنا يا صديقي.

هذا الشاب يمتلك السلاسة واللباقة والفصاحة، له قدرة فائقة على سلب لب المقابل بترابط حديثه الشّيق، وربما تلك القدرة هي التي جعلته ناطقا رسميا للرابطة، في الحقيقة له السحر الجاذب الذي يستطيع من خلاله إقناع الآخرين بسهولة الانتماء والتخلص من الحياة البغدادية الثقيلة، منْ يدري ربما سأنتمي لاحقا إلى الرابطة.

- وماذا بعد؟

- "كفى" يا صديقي تختلف في فكرتها عن نظرية القتل الرحيم أو الإيجابـــي، تلك فكرة قديمة جدا مأخوذة من أســـطورة يونانية في الحضارات القديمة، الإنسان القديم في الحضارات القديمة مارس نوعا باهرا من الموت الرحيم بطرق مبتكـــرة للتخلص من عذابات الحياة، لكنه في عالم اليوم مثلا عَمَلَ مجلس اللوردات البريطاني لإجازتها شرعيا وقانونيا قبل أكثر من عشر سنين تقريبا، هناك شروط واجـــب توفرهـــا في عيادات الموت الإيجابـــي، خاصة بعد بلوغ الميت ســـريريا حالة اليأس والنفاد من إصلاح أعطابه المرضـــية وتآكـــل الخلايا تدريجيا، على الأغلب تختص بكبار السن ومرضـــى الأمراض المزمنة والآلام المبرحة ولم تنفـــع معهـــم كـــل المسكّنات الدوائية العالية الجرعات. طبعا هناك فرق شاسع في المـــوت الطـــوعي والمـــوت القســـري.. الإيجابـــــي والسلبـــي، فالسلبـــي الذي لا يعرف صاحبه بنوع الميتة، حصل خلاف في أوربا المعاصرة بين مؤيدين ومعارضـــين لعدم وجود سياسة وشروط وشبكة قوانين تفصل المـــوت الأول عن الثاني، بل إن بعض الدول نفذت جرائم كـــبرى على أسرّة الموت البطيء والـــذي يطلـــق عليـــه المـــوت السريري. قاطعته:

- هل إن فعل الموت يصاحبه ألم حاد؟ هل توصّل العلـــم إلى إيجاد مسكّنات فعالة للتخلص من ألم الموت الحاد؟

- للأسف الموتى تركوا لنا استنتاجات فردية عـــن الإجابـــة الوافية، تقلصات في البدن، زَبد على زاوية الفـــم وحرقـــة

بالغة كالنار في الصدر، تغضّنات حادة على وجه صاحب مشروع الموت الجديد. هل يحلمون؟ نعم هذا ما توصلنا إليه بعد عدة تجارب فيزيائية.

- ومتى سيكون تصوير المحفل الأول؟
- في موعد سنحدده لك لاحقا.. سرية العمل في الرابطة تتطلب الكتمان الكامل لموعد الحفل. إن (كفى) كرابطة وليدة في العراق يا صديقي، ليست لها جذور تاريخية، إنما تستمد فكرتها مما هو يومي تحت ظلال الأفكار الوليدة من الشارع العراقي، لم تكن فكرة غرائبية كما يعلّق البعض في موقعنا الالكتروني، إنما هي فكرة ولدت من رحم المأساة لتحاكي الأحداث الواقعة في الشوارع المحترقة وابتلاع مدينة كبيرة كالموصل.. تبتعد عن كل تلك المشاريع التي تمارس اليوم في العالم. "كفى" تؤهل بل وتعدّ كوادرها المنضوين في كنفها في دورة مكثفة لتقبل فكرة الموت روحيا ووجدانيا بعيدا عن التفلسف من خلال الفعل الجماعي الواحد.. الجماعات تفكر في آلية تفكير الفرد الواحد، بل أن العمل الجماعي هو مصدر الإلهام الكلي لتقبّل فكرة الموت الجماعي في الرابطة.

الفكرة لاقت استقبالا كبيرا لدى الأوساط الشبابية التي تعاني عذابات أرضية متواصلة وهزائم كبرى، هناك مجموعات كثيرة بودها الانتماء والشروع في عمل الرابطة خصوصا في يوم الافتتاح وتنفيذ حفلة الموت الجماعي المقدس. طبعا الموقع الالكتروني للرابطة سيتيح لك أستاذ سلام أن تطّلع على شروط القبول والانتماء، وستتعرّف

على المبادئ وشروط القبول للأعمار المسموح لها في الانضواء تحت جنح الرابطة شريطة اثبات عراقيتك. الباب مفتوح أمـــام العـــراقيين جميعا بعيدا عن هاجس الطوائف والأعراق للانتماء المقدس. سيكون فلمك الوثائقي حصريا فقط للوكالة التي تعمل فيهـــا. وســـأزودك لاحقا بالرقم السري للموقع الالكتروني بعد موافقة الســـيد مـــدير الرابطة.

*

رفض العارف الحكيم "أبو العوف" الاندماج في العمل المـــنظم بعد مفاتحته من قبل أحد أعضاء الرابطة الناشـــطين، مـــبررا رفضـــه بأسلوبه المعتاد:

- حبيبـــي الحياة حلوة هنا، بس على الفرد أن يبلع فيلكـــا فقط، تتغير صورة بغداد وتتحول إلى جنة بعد ثلاث حبّات فقط – نعمة من الباري – كل زبائني في الباب الشـــرجي هم من عشاق اللذة والخدر. كل واحد يموت على راحته، عندما يموت بعد البلع الممنهج تجده يطبع ضحكة دائمـــة على وجهه.. عادي جدا الموت والحياة معا.. ماكو شـــي فقط يقولون: "فلان مات ضاحكا".

***

# 9

## السيد المستشار

**:8/14**

شهران طويلان بالتمام مرّا على وجودي القلــق في عاصــمة الرعب الأزلي، عاصمة الجغرافية الشاسعة والفائضة عــن الحاجــة، عاصمة الحروب مركزها وميدانها، بدأت الجغرافية تــتقلص شــيئا فشيئا، وجند الخلافة يرومون الوصول إلى بغداد. وحوش الصحاري يقفون على أبواب منطقة "إبراهيم بن علي" القريبة جدا من العاصمة كما تشير الأخبار، ولا شيء يحــدث في الأفــق أو يغــير مســار الأحداث. سوى نشيد الحرب الجديد الذي يتكرر من المذياع. رأسي لم يعد يستوعب الأحداث المتلاحقة، في كل ساعة تــأتي الأخبــار المفزعة عن حقيقة التمدد والبقاء لجند الخلافة المتوحشين. فكرت في مغادرة البلد فعليا، لكن المشكلة أن مهمتي لم تكتمل.. الآن يتوقــف الشريط عن الدوران.. يقف الشريط على صورة الوجود المعتم.

صورة واحدة من زوايا عدة، وضعيات مختلفة من سقف الغرفة، من زاوية اليمين والشمال، تظهرني كأني مؤدٍ تحية خرقــاء لصــنم مجهول.. بينما الصور الجانبية الأخرى قرب نافذة غرفة نومي تظهرني

كأبله معتوه يعيش لحظة الرعب الجهنمي، هكذا هي الصور تشوّهني كلما سنحت الفرصة لتشويهي. إنها محاولتي في توثيق ما سيأتي لاحقا من تفاصيل متناهية في الصغر للحياة البغدادية القلقة، بعد تهديد قاسٍ لتمزق الخريطة، رغم أني في النهاية قررت على مواصلة البقاء مهما كانت الظروف، حتى لو لم تتحقق الأهداف التي جئت من أجلها، في تلك اللحظة الفاصلة اهتزت الأفكار من جديد بعد سماع أصوات مرعبة وتمزق زجاج النوافذ وارتطام الأبواب وسماع زعيق سيارات الشرطة المارقة تحت الشقة. رعب حقيقي، أين أولّي الآن يا ربي؟

*

حضرت إلى مقهى "رضا علوان" أملا بلقاء حاسم مع أصيل، كنت أفكر بمحتوى القرص عسى أن يكون من الأهمية ويستحق المجازفة المحفوفة بالمخاطر والمنزلقات. من جهتي ليس لي المزاج الرائق الذي يتناسب مع عمل كهذا، لا يجلب لصاحبه سوى الهموم والمشاكل، لكنها اللعنة التي أشارت لها خالتي في طبق النبوءة، ينقصني الكثير لأكون بمستوى طموحاتي وسقفها العالي، ومن السهل على كل إنسان الموت بهدوء، لكن الميتة الصاخبة لها الذكر الطيب أيضا، على العموم ستتضح الأمور اليوم أو غدا.

سبقني أصيل إلى المقهى وقد بدت عليه علامات الحذر الشديد باختياره لمائدة منزوية في الطابق الأعلى كالعادة، الارتباك والقلق جعلاه يتصبّب عرقا رغم جلوسه على مقربة من فوهة المكيّف الكنتوري..

- هلو أصيل شلونك.
- أهلا أستاذ سلام شلونك أنت.

بعد شد وجذب وتقليب الأمور راح يحدثني عن آخر التطورات في مكتب المستشار، وماذا حدث من تطورات جديدة في موضوع القرص الجيم، حيث أخذ الموضوع البحث الجدي إلى السرية التامة، وقد أعطى الأمر إلى لجنة تخصصية مهمتها متابعة حركة كل الشخوص الذين من الممكن أن يكون أحدهم قد كانت له يد في سرقة القرص..

السيد المستشار شخصية اقتصادية كبيرة، يحمل الجنسية الانكليزية بالإضافة إلى العراقية، رجل أصلع بلحية خفيفة وكرش دائري صغير، متدين لكنه كما يقال إنه مستقل عن التنظيمات الحزبية الإسلامية. عمل سابقا لفترة طويلة كمستشار في حكومة خليجية.

كان يعمل بجد من أجل جدولة الموازنات السنوية لبلدان شتى، قبيل مجيئه لبغداد ليعمل في هذه الحكومة كمستشار اقتصادي أول للرئيس، رغم عبقريته الاقتصادية الفائقة لكنه لم يستطع بمحاولة إنقاذ البلد مما هو فيه. لم يستطع إدراك محتوى الجدوى الاقتصادية من خطبة الرئيس في الفقرات التي تحدّث فيها عن الأوضاع الاقتصادية المتحققة للمجتمع في ظل حكومته. السيد المستشار مشغول في البحث عن القرص، ولا يهمه خطاب الرئيس في هذه المرحلة بالذات.

بعد أخذ وعطاء اتفقت مع أصيل على البدء في الخطوة الأولى بعد أن وضعت كفي فوق كفه، فرحلة العمل هذه ستكون مشتركة بيننا، تتمثل في أخذ القرص إلى مكتب تقنيات اليكترونية في شارع الصناعة، سنعمل على معرفة محتوى القرص:

- لكن القرص مشفّر.. حاولت فتحه في البيت فوجدته مقفلا بـ (رقم سري) لا يمكن الوصول إلى المحتوى من دون كسر شفراته والإطلاع على الملفات السرية. ثانيا علينا الحذر من هذه المكاتب وإلا يفتضح أمرنا..
- طيب والحل، هل نجلس نتناقش ونحن لا نعرف مدى أهمية القرص.
- الحل يا أستاذ سلام في ذهابك غدا إلى شارع الصناعة لتسأل أصحاب المكاتب عن أحدث البرامج التي تعمل على فك الأرقام السرية. بحثت في محرك البحث "الكوكل" فوجدت برنامجا عملاقا يسمى بـ (البزنس توب) تشتري هذا البرنامج من غير كشف القرص لأصحاب المكاتب. عموما القرص يبقى عندي في هذه المرحلة، أنا لي خبرة متواضعة في التعامل الإيجابي مع هكذا نوع من البرمجيات.. ثم أن أهمية القرص تأتي من انشغال الحكومة كلها للبحث عنه، ونحن لغاية الآن لم نخسر شيء، هذا هو رأيي.
- طيب دع القرص معك، وسوف أذهب غدا لشارع الصناعة، سوف أفتّش كل محال التقنيات الالكترونية للبحث عن "**البزنس توب**" هذا، وسوف أجلب البرنامج معي، غدا إن شاء الله في هذا المكان نفسه عصرا سأسلّمك إياه.

*

تؤلمني حقا جملة الخسائر المترادفة، منذ وصولي إلى بغداد، أعاني طوال الوقت من نقص حاد في النوم يجعلني أطيل من التثاؤب المصاحب بآهة خشنة. أرفع شعار الاستسلام "النوم هو الحل"، والذي اقترحه صديقي "جاد الله" لتلافي المصاعب العظيمة التي بدأت تتراكم فوق رأسي.. ربما احتاج لسنة كاملة أو أكثر لنوم متواصل من أجل تعويض هذا النقص وترتيب أفكاري، أشرطة الحبوب المنوّمة تساعدني كثيرا لأعيد هيكليتي المتداعية من جديد، وعودة خريطة البلد إلى ما كانت عليه قبل اليوم، النوم أولى.. حتى أُعيد توازني وأقتل جرثومة الضعف. أما أنت يا غسان فهذا أوان النوم الطويل لك.. نَمْ طويلا.. أغرق في بحر النوم، "**دعْ الهزائم تأكل بعضها**".

***

## 10

# هاتف الصراف

### يوم آخر من آب:

عصر يوم الجمعة في كافتيريا الزيتون المقابلة لفندق بغـــداد في شارع السعدون، التقيتُ مع أصيل بعد تغيير مكان اللقاءات المتواصلة حفاظا على سرية الموضوع، ونحن ننهل مـــن الأفـــلام البوليســـية الهوليودية في تغيير الأمكنة وسرية الاجتماعات، وبعد جلسة مطوّلـــة فيها تمّ الاتفاق على شروط العمل ضمن العقد بيننا. سلمني القـــرص جيم بيد راجفة وقلب متردد، هو لم يكن واضحا معي حول نســـخ القرص:

- استاد سلام بالنسبة لي شخصيا عجزت عن فتح ملفـــات القرص ببرنامج البزنس توب.. المعلومة الوحيدة التي بانت من أحد الملفات أن القرص يخص إئتمانا مصـــرفيا عـــالي السرية. عجزتُ شخصيا في فك شفرة معظم الملفـــات. لم أستطع حتى من نسخه بطريقة سليمة، لكنه النتيجة الـــتي خرجت بها تكمن في أهميته القصوى. القـــرص معمـــول بحرفية عالية، ولك الحق الكامل في التصرف فيه، تفضـــل

استاد سلام هذا هو القرص. تصرّف به حسب معرفتك وخبرتك ووفق الاتفاق المبرم بيننا.. ندخل معا مناصفة بالفائدة، إذا ما حصلنا على فائدة منه بعد فتحه. أنا قررت عدم تسليمه إلى الحكومة في كل الأحوال.

استلمتُ القرص مغلّفا بأكثر من مظروف، وتلك الخطوة اعتبرتها تقدما كبيرا للبحث عن طريق ذهبي لفرصة العمر الضائعة منذ سنين، التي انتظرتها في محطات كثيرة و لمْ تأتِ. حينها تذكرتُ نبوءة خالتي هزيْمة في واحدة من تجلياتها..

ليس أمامي بعد الآن سوى إخبار صديقي هاتف الصراف عن استلام القرص جيم، حكيت له قبل يومين عن القرص وفرصتنا بتحقيق الأماني.. تحمّس للموضوع كثيرا، لكنه أجّل خطواته العملية وما يفكر بعمله إلى ما بعد استلام القرص. هاتف رجل أعمال من الطراز المرعب، أنا متفائل في العمل معه ليدخل شريكا ثالثا معنا.

بالنسبة لي اعتبرتُ القرص جيم فرصة ذهبية كانت ضائعة فوجدتها، لأستردّ حقي المستلب في هذا البلد الذي أخذ مني الكثير وأعطيته لبّ العمر، مؤملا نفسي بالثروة وحالما بتحقيق الطموحات المؤجلة. هو أفضل بكثير من العمل المشروط في أفلام الوكالة. المبالغ التي أستطيع فيها علاج أخي غسان الذي أعطى أيضا للوطن المستلب أكثر مما طلب الوطن منه، أكثر من حق مهدور لضريبة الأرض واستحقاقها عليه. وحسب شهادة زوجته أنه لا يملك سوى راتبه والآن توقّف هذا الراتب لأسباب لا أحد يعرفها.

في الليل اتصلت على المحمول، فحصلتْ المفاجأة عندما أخبرني أنه متوجه إلى بغداد خلال ثلاثة أيام، من دون إعلامي عن خططه في

العاصمة الملتهبة القلقة.. ارتجف قلبي لذلك الخبر، فقد أصبحت العملية جدية وليس لعب صبيان: "عندما أكون في بغداد سيتم الحديث بالتفاصيل عن الخطط" هذا ما لخصه الصراف قبل إغلاق المحمول.

الأمر الآخر الذي أقلقني هو في كيفية إقناع هاتف بتغيير الهيئة الغربية التي مازَ بها عن غيره، فهي لا تتناسب إطلاقا مع البيئة البغدادية التي غلب عليها الطابع الديني المُحافظ والخشونة الظاهرة، مما سيعرّضه إلى مضايقات ولفت انتباه الناس من حوله، ونحن في وضعية كتمان وسرية لإتمام المهمة بالشكل الأحسن.

ترك هاتف مدينة بغداد منذ عام 1978 وتنقل في بلدان الله الكثيرة. عمل مع "المعارضة العراقية الإسلامية" ردحا من الزمن، ثم انفصل عنها بقناعته كما أخبرني عندما وجد أن هذه المعارضة بشكل عام الإسلامية منها والعلمانية كلها لها مصالح شخصية تعمل على خدمتها وتحقيقها، كانت تعارض ذواتها أكثر من معارضة النظام القديم، حيث كان الانضمام للمعارضة آنذاك يوفر الحماية الكافية والحياة الرغيدة، للتخلص من أعباء الحياة المادية ومركبات النقص التي تغلّف معظم شخوصها، أخبرني: "هم ليسوا ملائكة لكن بعضهم مجموعة شياطين، يعرفون من أين يدخلون ومن أين يتبخرون في اللحظات الحاسمة".

انفصل عنهم وغادر العمل السياسي بعد كشفه للزيف الحقيقي في تفاصيل عمل الكثير منهم، لينشغل بأمور أخرى، حتى عندما استلمت المعارضة السلطة لم يعد مع العائدين ليدخل خيمة سياسي المرحلة الجديدة، بل فضّل العيش في باريس مستشارا لوكالة جوو، مع اهتمامات أخرى في مجالات إعلامية وتشكيل منظمته الشهيرة

للدفاع عن حقوق مثليي الشرق. حيث عمل انقلابا شاملا على ثقافته الشرقية والإسلامية من دون رجعة، ثم تلبس بثوب فضفاض لثقافة غربية جديدة، في الدفاع عن حق احتياجات الجسد الشخصية وغريزة الأنوثة ونسبتها في الجسد الذكوري أو العكس.

ثمة تحوّل حدث في حياة الصراف وتحوّله من شخصية إسلامية إلى شخصية برغماتية عملية.. شخصية غير مؤمنه وناسفة بإرادة ووعي لخزان الذاكرة، إلا بمعطيات الحياة العصرية ومصالحه الشخصية. كما أخبرني أنه ترك الإيمان والإلحاد خلف ظهره، وراح يعيش لحظته دون الالتفات للماضي البغيض. خاصة بعد تبّنيه رسميا العمل على التنسيق بين المثليين العرب في الشرق الأوسط كله.

نعم أقول بصراحة أقلقني حضور هاتف إلى بغداد، كنت أتصوره يرشدني فيما أعمله مع القرص وهو في مكانه، كيف سيتعامل في فضاء خشن وحاد وعنيف ومنغلق من الناحية الانثروبولجية؟ هل تنفع شخصيته الأخطبوطية وعلاقاته القديمة في إيجاد مَخرج مناسب للمهمة؟ الأمر متروك برمته للقادم من الساعات والأيام القادمة.

ما أن نجلس معا في أحد المقاهي في باريس حتى تنهال عليه حزمة من اتصالات المحمول المتشعبة ومن أنحاء مختلفة من العالم. كان أكثر المتصلين به الشخص الذي يدعى الدكتور، أحد أقطاب المعارضة العراقية المهمة والذي فضّل الانتقال إلى بغداد مباشرة مع دخول قوات الاحتلال الأمريكي في عام 2003، حيث أصبح شخصية ذائعة الصيت في الإعلام العالمي والمحلي ثم تراجع ألقه بعد خسارته الانتخابات في دورتها الثانية.

*

أستطيع إلى حد ما التعرّف العميق على شخصية الصراف من خلال شكله الخارجي، تفاصيل جسمه المائل للأنوثة، هو أملس اليدين وكتفيه متقاربتين وعجيزته كبيرة وطريقة كلامه مائعة خالية من الخشونة العربية، ونبرة صوته ناعمة فيها مسحة غنج مصطنع، لكنه بالمقابل يمتاز بالذكاء العملي وإدارة الأعمال بطريقة لافتة.

أخبرني في إحدى جلساتنا الطويلة عن طفولته القاسية في بغداد: "في طفولتي صديقي كنت أعاني من زملاء المدرسة الكبار وتحرشاهم المُعيبة بي، حتى أحسست أني مختلف عنهم. كنت وسيما جدا في طفولتي، وكانت المدارس بعكس ما يّشاع عنها أيام زمان مكانا لفساد الأخلاق العامة والانحراف بفعل التحرش من الزملاء، ذلك الأمر أحدث شرخا غائرا في شخصيتي، ولا أستطيع التوغل في البوح عمّا حدث لي في الطفولة المشوّهة العرجاء. معظم الناس هناك لا يفرقون بالمزيج البايلوجي في غريزية الكائن، بين أنوثة الذكر وذكورية الأنوثة، هل تعلم داخل كل رجل فحل مكتمل ثمة أنوثة كامنة يا صديقي؟ تستيقظ حين دغدغتها برفق، وربما تتفاقم وتتعاظم بكثرة الدغدغة والتمرين وتتحول إلى ظاهرة مزدوجة، وهذا ينطبق على الذكر والأنثى طبعا، وعليك أن تفرق بين حالتين، الحالة الأولى تبقى في جنسية مكبوتة محيطها الفرد، والحالة الثانية في تحولها إلى ظاهرة اجتماعية وهي الأخطر على المجتمعات المكبوتة، ولا أستطيع البوح أكثر، حتى لا تأخذ عني نظرة شاذة فهي في إطار الثقافة الجديدة ليس إلاّ.. صديقي".

يرتبط الصراف هذا بعلاقة سرية مع شخص الدكتور، وقد سرقتُ بطريقتي القنفذية بعضا من شفرات الحديث المتناوب فيما

بينهما عن أمور مصرفية واقتصادية غاية في السرية، وممازحات كلامية غريبة. في ذلك الأثناء لم يكن أمري محسوما للعودة مجددا إلى بغداد. حيث لم تعلن بعد وكالة جوو عن قبول التعاقد معي ودورة تطوير الكفاءة ما زالت قائمة.

بالمقابل هناك شخصيات إسلامية عراقية ولبنانية أخرى يرتبط معها الصراف بعلاقة حسنة، فهمت منه أنه يعمل كمستشار لبعض منهم. له خبرة واسعة بطبيعة التعامل المصرفي العالمي. على محموله تتوالى مكالمات كثيرة وفي إحدى المرات سألته عن ذلك الأمر فأجابني: "هناك مجموعة بورصات عالمية يا صديقي، أنا مشترك معها، حيث تأتي أخبار المصارف تعطيني إشارات بكل المستجدات التي احتاجها في إدارة أعمال مصرفية لبعض العملاء داخل بغداد وهناك طبعا "كومشن" إزاء تلك الخدمة البسيطة".

لم أجد بصراحة بكل علاقتي خارج العراق وداخله أفضل من هاتف الصراف خبير الحياة العملية المصرفية-الاقتصادية في قضية القرص، رجل بشبكة علاقات كبيرة وبزنس أعمال وتجارب ربحية. بالدخول معه سأضمن إلى حد كبير ما يتمخّض عنه القرص، كذلك أن إفشاء مادة القرص التي تبدو كما وصفها لي أصيل ذات أهمية، تجعلني أكون حذرا في التعامل مع الآخرين بشأن فك شفرته.. لقد كنت وبصراحة أطمح لتغيير واقعي المزري، ومعالجة أخي غسان، ثم العودة مجددا إلى كندا. هناك أعيش ما تبقى عيشة مريحة قريبا من جاد الله الذي يعمل "نائما" طوال الوقت.

وصل الصراف أخيرا إلى بغداد وهو يحمل المزيد من الأفكار في التعامل مع القرص، ثم انتقل مباشرة من فندق فلسطين ميرديان إلى

مكان لا أعرفه في المنطقة الخضراء، لكنه في اللحظة التي سلّمته القرص قد أضاف شرطا جديدا لعملنا، حيث يحق للدكتور حرية المناورة في التعامل مع من يجده مناسبا في حلقة الشراكة كواحد من فريق العمل، لخبرته الفائقة بالمعاملات المصرفية والسياسية وسيوفر لنا الحصانة طالما بقينا في العراق. وله ما لنا من القرص. حزم حقيبته وهز مسبحته هزات متتالية وذهب إلى بيت الدكتور.

يبقى السر قائما مثل لغز محيّر لي، يكمن في تعرّف "أيوب الأبتر" على هاتف الصراف وتسميته بـ "توفي دودة". لا أستطيع سؤال هاتف عن الأبتر، ولا الأبتر يكشف سر معرفته ب"هاتف دودة" كما كان يطلق هذه التسمية عليه، مما زعزع ثقتي به، لا يمكن أن أثق برجل من هذا النوع حتى لو كذب "الأبتر"، ربما سيطلق عليّ تسمية مرادفة.. منْ يعلم؟. ففي تلك اللحظة المتواترة ومع كل الملاحظات السابقة لم أتيقن من شذوذه، لكني مرغم الآن على التماشي معه في قضية القرص.

* * *

## 11

# المندائية

### أول أمس:

اللقاء الخاص معها كان له طعم سحر عاشقين، بمثابة الفرصة الأخيرة لمصارحتها قبل العودة إلى بغداد.. في لحظة اقتناص الفرصة الذهبية، ثمة أمنية مؤجلة منذ زمن بعيد وقد آن أوانها من دون الخوض بتكهنات وفحوى اللقاء.. كان الحيوان المتوحّش في داخلي غالبا ما ينتفض ويطعن "ذكر الثقافة" ويمزّق وثيقة العهد والمهادنة.. أما صاحبي الحيوان هذا فقد فرح في هذا اللقاء واستعدَّ بشكل ملحوظ للفوز في اللحظة الذهبية.

في أثناء التفكير وصلت رسالةsms أخرى تؤكد اللقاء.. تخبرني عن الموعد الدقيق الذي سنكون معا خلاله في الشقة وحدنا.. يبدو أنها كانت تنتظر ذهاب سالي إلى الجامعة صباحا، وفي الساعة التي خرجت سالي أرسلت لي رسالة أخرى، أن أصعد حالا إلى الشقة. صعد الحيوان قبلي زاحفا على سلالم العمارة، فرحا مترنحا بين فخذيّ، يتسلق السلالم قبلي بنشوة المنتصر.

وصلتُ إلى الشقة الساعة 9:10 صباحا، طرقت الباب وسرعان

ما انفتح على صورة امرأة من خيال باسق، تشبه سليمة حنظـــل في نبرة صوتها، لكنها أجمل بكثير. امرأة مرسومة بيد رســـام عبقـــري ومجنون، تختلف كثيرا عما عرفته عن صورة سليمة المتربعة على عرش خيالي طيلة الفترة التي مضت. الأناقة العصـــرية المتفـّــردة والعطـــر السحري والمكياج الخفيف، بنطلون "ستريج" بلون بـــيج يلتصـــق بشكل محكم على فخذيها ويعطي تجسيما باذخا لهما، كان ضـــيقا ليظهر تفاصيلهما الملفوفتين المتلاصقتين معا بوحدة انسجام كونيـــة، وقميص كحلي لمّاع وشعر منفوش بخصلات محبسية معمولة بمهـــارة وبشكل مثير. تبيّن بعد انحسار غشاوة العين أنها سليمة ذاتها بصـــورة أبهى، لكنها تعمّدت استخدام طاقتها السحرية في إبراز مكامن جمالها المخبول كله في تلك الساعة لاصطيادي.

استقبلتني على الفور مرحبّة بـــي بطريقتها البغدادية المعتـــادة.. كان "حيواني" المتوحش هو الذي يجرجرني إلى مكان الجلوس، وليس أنفي المسكين الذي يتحسّس رائحة عطرها المذاب بعطر جســـدها.. كنت ساعتها كالأعمى تقودني الحواس المتحفّزة إلى مكان الصـــالة قرب المدفأة.. جلست بعد الإفاقة من غيبوبة سحرها وصدمة الصور المتلاحقة. عملت جاهدا على ترويضه لينام أو يهدأ قليلا في غمـــرة نسيان التفاصيل.. متوسلا إليه بنعمة النسيان أن يتركني وشأني لأرفع من قدر إنسانيتي المتهالكة، أبلغته محذرا بالقطع في حـــال الإلحـــاح والتمادي في لوحات التخيل. أحاول أن أنسيه شكل السرير والفراش والتعري وهمس الكلام الملموم بين الشفاه المطبقـــة علـــى بعضـــها والأجفان المسدلة لفرط اللذة. أتأمل المكان الذي زرته من قبل بكل التفاصيل القديمة وما أُستحدث فيه، فزعت قلـــيلا عنـــدما نهضـــت

بشموخ قامتها تستأذنني للذهاب إلى المطبخ لعمل واجب الضيافة.

- عيوني أنت سلام، أخذ راحتك.. ماذا تحب أن تشرب..
- ها..... أي شيء.

في الصالة كان شعار المندائية، عبارة عن تقاطع العمودين على هيئة الصليب المحمول على عارضته بملابسه البيض، وفي منتصفه ثمة نبتة خضراء ترقد بسلام، كان الشعار منصوبا على رف مخصص له بعناية للفت النظر، تيقنت تماما من عقيدتها وإيمانها بتلك الديانة، وعلى طاولة بنية وضعت كتابها المقدس بعنوان مذّهب (كنزا ربا) وتحته عنوان فرعي كتاب أنبياء الصابئة الناصورائيين، كلام الرب ووصايا الموحى لهم لصحف النبي آدم ومن بعده يحيى. ثمة شعارات أخرى في لوحات معلقة متناسقة تفي بالغرض لمعرفة مدى تشبّعها وتمسكها بمعتقدها. لا أعرف عن معتقدها الكثير سوى جذرها السومري.

قدمت الشاي بالحليب مع قطعة من الكيك بديلا عن كعك السيد.. جلسنا على الكنبة بمسافة متقاربة جدا، كنت أسمع صدى أنفاسها وأتمتع بشذى عطرها، نتحدث بحديث خاص جدا في الصالة المؤثثة بأناقة، والتي بدت دافئة بشكل جعلني أسترخي كثيرا، تبخّرت إلى حد كبير كل التوترات التي رافقتني منذ ساعات الصباح الأولى. وبغبطة خالصة تحقّق لي إشباعا لجنون الغريزة وحيوانها السافل المتلصص من خلف النوافذ الضيّقة للبنطلون.

*

نهض في تلك الساعة نصفي النائم ليتحدث وفق فلسفته المتحجرة.

إن إشباع الروح القلقة في هكذا أحاديث سلسة ومسترخية تشعرني في طيف من سعادة افتقدها طوال حياتي، لأطرد حاجة الجسد الغريزية الحيوانية خارج حدود هذا المكان، متمنيا فوز إنساني المتردد في اللقاء التاريخي على فحولة حيواني السافل ودحض مراميه الخبيثة.. إن رقة الحوار المتبادل مع امرأة تمتلك كل مقومات الأنوثة المستوفية في طرح الرؤى الأنثوية، والأفكار المغايرة للنمط السائد، والاعتداد بالجندر والدفاع عن خطابه المستقل، هي انتصار مؤكد لي، وتلك الأحاديث تشعرني بحالة انتشاء كبرى وزهو عظيم، جعلتني أزيد من احترامي لهذه المرأة. ربما تكون ملامسة الجسد للجسد الآخر لساعة يتيمة تنتهي النشوة بانتصار الرغبة الحيوانية الغريزية اللعينة، وغالبا ما تنتهي بالإطاحة بكبرياء الرجل والمرأة معا أثناء التشابك الجسدي أو ما قبله في لحظة الغزّل لإغواء المرأة أو ما بعد الممارسة الجسدية، عندما تنتهي بعدم تحملها ثقله على جسدها الطري. كنت متيقنا من حرية الجسد، الحرية المقيّدة بحبال الغريزة، فغالبا ما يتعامل الجسد المنفلت بحيوانية فطرية مع الجسد الآخر المختلف في الجنس، لكن الروح السامية تبقى هي السمة المقدسة غالبا.. ولا أميل مطلقا للعملية المزدوجة بين تشابك الروح والجسد معا.. أقصد عندما يتعب الحيوان من تسلق الجبال الشاهقة يميل إلى الاسترخاء وربما النوم.. ينتهي ممددا كحيوان نافق على الطريق العام. بينما الروح تسمو بعيدا بأخيلة مبتكرة لتحلق خارج النطاق.. تفتّقت ذاكرتي الثقافية عن هذا التصورات القديمة وكبحت بقوة النسيان من تخدير الحيوان وطعن تحفزه بالخاصرة.

كنت بصراحة ولم أزل من أنصار المحادثة الأنثوية/الذكرية فهي تغني عن ملايين الممارسات الساذجة والحيوانية.. أظن نفسي متخرّجا من مدرسة الحب العذري الحر، ومعلمتي الفاضلة هذه المندائية الفاضلة، لقد ظلمها "سلام الحيوان" في مخيلته المريضة كثيرا:

- سلام أنت في الحقيقة الأقرب لي من كل العراقيين هنا، وأود مصارحتك بموضوع أكشفه لأول مرة لك..
- أنا..... حاضر سليمة لك ما تطلبين مني.

الفرصة التاريخية حانت من دون مقدمات، شحنة غريبة سرت في تلك اللحظات في جسمي واشتعلت النيران في داخلي. هل أتمنع؟ "لالا أرجوك سليمة علاقتنا أسمى من الممارسة الغريزية التافهة"، قالت:

- عيوني أنت، ما أقوله سيبقى سرا بيننا. طلب شخصي وعليك تلبيته لي بحكم الصداقة سلومي.
- أنا حاضر سليمة من يدك هذه إلى يدك هذه.. فقط أنطقي.
- ستذهب للعراق بعد أيام كما أخبرتني، أطلب منك أن تتصل بابني الوحيد أصيل، طبعا هو ليس من النوع الذي سيغيّر قناعاته بسهولة، سيكون عنيدا كأمه، وعليك يا سلام أن تقنعه بإخراج جواز سفر وهوية أحوال وفق الأوراق التي سأزودك بها، الأوراق تثبت أن أباه يوسف وأمه سليمة وبقية القصة رويتها لك من قبل. عملّت منذ سنتين تقريبا بمتابعة إجراءات لم الشمل.. احتاجه بقربي حتى لو بقي على ديانته الحالية.. ليس عندي مشكلة، فقط

احتاجه بقربي، أنا أمٌّ وقلب الأم لا يهدأ إلا في البحث عن ابنها عيوني أنت سلام، لم أره مذ كان رضيعا هذا ظلم يا ناس..

خابت للأسف كل خيالاتي المريضة، فقد وضعت كفيها على وجهها وراحت تنتحب وتبكي بصوت خافت، وأنا لا أعرف ماذا أفعل | ؟ سوى أني قدمت لها بضعة مناديل ورقية جلبتها من الطاولة:

- سليمة..... كفى لا أستطيع رؤيتك في هذا الحال. سأحاول معه بقدر ما أستطيع.. صدّقيني.

ثم انفجرت تبكي وتجهش بصوت عالٍ يخلع نياط القلب، انهمر الدمع من عينيّ من دون إرادتي.. وعدتها بصوت متكسر أن أعمل على إقناعه للمثول لفكرة الهجرة والتخلّص من متلازمة العراق وأمراضه المزمنة.

بدأت بلورات الدمع الكريستالية تسّاقط على وجنتيها وتزيح الكحل المرسوم بعناية على دائرتي عينيها. صوتها يتهدج في أثناء الكلام فتتكسّر درر الكلمات، وبالكاد أفهم ما تقوله. اقتربت منها أكثر حتى التصق فخذي بفخذها وواضعا يدي على كتفها، لأخفف من أحزانها المتراكمة منذ سنين، من دون أن ألوم نفسي الأمّارة بالسوء والشيطنة.

- سأبذل قصارى جهدي لأعيده لك. سليمة كوني مطمئنة. سأجنّد نفسي لترغيبه بالهجرة إلى كندا وبكل وسيلة.
- لم يبق من المندائيين في العراق إلاّ القلائل، هم منزوون وخائفون في بيوتهم، أخاف عليه عيوني أنت.
- إن شاء الله، سيأتي معي. سأبذل قصارى جهدي صدقيني سليمة.

- أكون ممتنة لك طوال العمر سلام، في كل ليلة طيفه ينام معي. حصلت على صورة له من بعض المعارف رغم قدمها. هذه صورته المعلقة بقرب صورة أبيه.. هذا الطفل حامل الحقيبة هو أصيل. تصور يا سلام أنه الآن لا يعرف عن حقيقة أمه شيئا. عاش بطريقة التبنّي الرسمي في كنف عائلة مسلمة مثلما أخبرتني إحدى صديقاتي من المعلمات..

قبلتها على مقدمة رأسها للمرة الأولى ونطقت بكلمة (حبيبتي سليمة)، ووعدتها خيرا ببذل قصارى جهدي لإقناعه بموضوع الهجرة إلى كندا، وهممت بالخروج إلاّ أنها نزلت على كف يدي لتقبلها وهي تجهش في البكاء، ولم تعلق على كلمة حبيبتي مطلقا.

- أصيل ابني الوحيد فيه الكثير من صورة أبيه الله يرحمه.......... أبوه الذي لا أعرف مصيره لغاية هذه الساعة.. أنظر هذه صورة أخرى لأبيه، ابتسامته لم تغادره كل تلك السنين. تصوّر أن كل الموتى يبتسمون، لذلك قطعوا الابتسامة في العراق.

***

# 12

# الحاج

## يوم جديد من آب:

ذهب الرفاق القدامى سائرين إلى حتوفهم، وجـاء الحجـاج والسادة والشيوخ ليحكموا وفق إرادة الله المقدسة كما يزعمون..

جاءت رسالة (sms) على المحمول بشكل غير متوقع برقم غير معرّف في محمولي: "أنا بانتظارك غدا صباحا.. في فنـدق فلسـطين ميرديان.. المخلص هاتف الصراف". بلهفة وشوق ذهبنا معـا أنـا وأصيل لاستقباله في بهو الفندق، في اليوم التالي لوصـوله إلى بغـداد قادما من باريس، ونزوله في فندق فلسطين ميرديان الشـهير وسـط بغداد، تخيّلت غرفته الرئاسية في الطابق السادس مطلّة على نهر دجلة المنحسر، إذ بانت فيه مجموعة الجزر الناتئة كندوب في وسطه، علـى ضفافه ارتفعت أجمات القصب والأحراش وطفت قناني العرق والبيرة والكولا.

من استعلامات الفندق اتصلت به بحدود الساعة (10) صباحا، وقد مرت أكثر من ساعة قبل أن يهبط علينا رجل مختلف تماما. قـام بقص الشعر الأشقر الطويل كليا، كانت لحيته الشقراء مشذّبة بعناية،

وبدلته الرمادية رسمية جدا ومن دون ربطة عنق. وقد غادرته مسحة الأنوثة والغنج التي كان عليهما في باريس، صرخت:

- ما هذا.. أأنت هاتفّ!؟ لا مستحيل..
- نعم بلحمه وشحمه، ولو ما بيّ شحم.

قدمت أصيل له وراح يسرد لنا تفاصيل مملة عن معرقلات كثيرة في رحلته سواء في الطائرة أو في المطار أو الطريق إلى الفندق. تحدّث عن كثرة الأصدقاء الذي يتصلون به على استعلامات الفندق عندما تسرّبت الأخبار عن مقدمه إلى بغداد، تحدّث أيضا عن البقية الباقية من أقاربه والذين يرومون زيارته وفق جدول المواعيد الذي رسمه لهم. كنت أنظر وأغمز لأصيل عن المبالغات الكثيرة في حديث الصراف، كما تحدّث عن التغيير المناسب في شكله معتبرا ذلك مواكبة عصرية للبيئة الملائمة، وعن قص الشعر وإطالة اللحية الشقراء هي من دواعي القبول المجتمعي، حتى اختياره لنوع الزي المناسب له، بنطلون رمادي رسمي وقميص كلاسيك أبيض أحكم غلق زرّ ياقته. كما لّمح أثناء حديثه إلى نيّته للذهاب إلى الحج في الموسم المقبل على نفقة الحكومة.. لم أتحمّل بعد ما يجري أمامي.. فقاطعته ناسيا كل أصول الضيافة والاستقبال:

- كيف؟
- كيف ماذا؟
- أأنت هاتف الصراف فعلا الذي كنت التقيه في باريس، أم هو نسخة أخرى جديدة منه؟ سبحان مغيّر الأحوال.. إسلامي ثم علماني ثم...... ثم إسلامي.. غريبة!! قهقه بصوت عال وهزّ مسبحته السوداء:

- يا أخي يا سلام، لا تقلق هذه الهيئة التي لا تعجبك هي من مستلزمات الرزق والعمل الذي جئت من أجله.. وفق مبدأ البرغماتية الجديدة.

لم نتحدث عن القرص في الجلسة لحد الآن، غير أن أصيل تحدث بشكل مفاجئ عمّا حدث له البارحة في الاجتماع الطارئ الذي عُقِد في صالة الاجتماعات في جناح المستشار الأول:

- جاء شخص يدعى "الشيخ" لعقد الاجتماع مع كادر موظفي الاستشارية، بعمّة بيضاء وجبّة كحلية، كانت أصابع يديه مثقلة بمحابس فيروزية ملونة، معه شخص مرافق يدعى "الحاج"، يرتدي بدلة من دون ربطة عنق بلحية محفوفة مثل خريطة البلد وعلامة زرقاء قاتمة في وسط جبينه، لا اسم واضح له سوى الحاج، **جاء الحاج وذهب الحاج**، جلسا على مائدة إدارة الاجتماع وثالثهم كان السيد المستشار الأول بصلعته الدائرية في أعلى هامته وكرشه المدوّر الصغير.

الشيخ رجل طويل أجرد بوجه ناصع البياض لم تمسّه الشمس التموزية أبدا، وجه رئاسي تماما كما الحاج. حتى ملابسه فقد بدت من طراز مختلف عن كل ما شاهدته من ملابس المتدينين السياسيين الذين تكاثروا بالانشطار السريع. لكنهم والحقيقة تقال تختلف أشكالهم كثيرا عن الصور. حتى عطورهم التي تضوع في المكان فهي من الطراز المعفّر برائحة الأضرحة وروائح أخرى مستخلصة من نباتات وزهور طبيعية.

الحاج رجل مختلف عن كل أصناف البشر الذي شاهدهم في حياتي. له هالة من القدسية والجلال جعل جميع من في قاعة الاجتماعات يصلون على الرسول بأعلى أصواتهم لثلاث مرات متتالية، وعندما أشار بيده بالجلوس والمباركة لهم.. رجل مختلف جدا لا يأكل أمام الناس ولا يشرب ولا يدخن ولا ولا... قالوا عنه أنه مهندس خطاب الرئيس.

حاولت أن أقطع أصيل من مواصلة حديثه الذي انطلق من دون تمهيد للكلام:

ليس الآن موعد هذا الكلام يا أصيل". لكن هاتف قاطعني أيضا:

- بالعكس أنا متلهف جدا لحديث أصيل. أرجوك أكملْ.
- طبعا في البداية كان الحديث متناوبا بين الحاج والشيخ عن حسّاسية المكان الذي نعمل فيه، كذلك تطرّق الحاج إلى الأمانة بنبرة خشوع عظيمة، ومكانتها في الشرع وموقعها في الدين، ويفترض إننا أصحاب دين وعقيدة إسلامية خالصة، ثم تحدث عن خطورة الموقف بفقدان القرص. وكشف بقليل من الكلام عما يحتويه من حسابات مصرفية، وإيداعات حكومية تمس اقتصاد البلد مودعة في بنك خارجي معتمد، قال: "إن الشخص الذي عثر أو ربما سرق القرص لا سمح الله، لن يستفيد منه ماديا أو معنويا إطلاقا، أتحدث إليكم أولادي وإخوتي باعتباركم موضع أسرار الدولة ولا بصفتكم كموظفين مؤتمنين فقط.. أنتم أصحاب عقيدة بالتأكيد ومحل ثقة الدولة كلها.. لا أشك

فيكم مطلقا. والله ورسوله وآل بيته يشهدون على كلامي.. القرص المفقود ضاع هنا في هذا المكان، والشخص الذي عثر عليه أتمنى منه مخلصا مراجعة نفسه قبل فوات الأوان، ستكشف الكاميرات قريبا بعد تحليل الأشرطة عن الشخص المتورّط، ومن هنا ادعوه لإعادته قبل فوات الأوان.

تغيرت ملامحه على حين غرّة، وأظهر لنا الوجه الآخر وبدأ يزبد ويرعد، ثم ضرب بيده المائدة ففزّ السيد المستشار..

- نحن سنصل إليه عاجلا أم آجلا.. فكل محاولة للعبث به ستدلّنا حتما على الشخص السارق.. أقول السارق بعد مضي فترة طويلة ولم يرجع الأمانة للدولة..

في تلك الأثناء كشّر الشيخ عن أنيابه المخلبية أثناء حديث الحاج:

- بصراحة أقولها لكم إن الشخص الذي عثر على القرص لا يمكن أن يستفيد منه إطلاقا، لأننا أبطلّنا مفعول القرص بحجر المبالغ المودعة لإشعار آخر بعد إخبار المصرف بذلك الإجراء الفوري. وهي مبالغ تخص إيرادات مسترجعة من صندوق الأمم المتحدة لأشهر معدودة بعد إيقاف العمل بالبند السابع من قانون العقوبات.

ثم أعتدل بجلسته أصيل ليقول:

- أنا اسأل هل يمكن للقرص أن يكون ذا فائدة بعد الذي سمعته من الحاج وتلميحات الشيخ؟ ابتسم الصراف وتحدث بثقة عالية قائلا:

- لا عليك.. أصيل ولا تهتم ولا تدوّخ رأسك. هات القرص وأنا أتكفل بالبقية. وعسى الله أن يقدم ما فيه الخير للجميع. قال أصيل:
- القرص أستاذ هاتف عند سلام وليس عندي. ألم يخبرك سلام؟
- خلاص أعتبر الأمانة وصلت. ومن حقي أن اعتبر نفسي شريكا ثالثا لكما، لا تتوقعا أن الأمور ستكون سهلة، طبعا هناك متاعب وصعوبات تنتظرنا، وإذا تطلّب الأمر سندخل الدكتور معنا كشريك رابع مؤتمن. هل أنتما موافقان؟
- نعم نعم..

قلت له ولحقني بالموافقة أصيل و لم نسأل عن الدكتور، ففي كل لحظة كان هاتف يحاول اختصار الحديث، على ما يبدو لارتباطه بمواعيد أخرى.. كذلك لّمح أنه وبعد إلحاح من أحد الساسة سينتقل اليوم أو في الغد إلى المكان الخاص في المنطقة الخضراء:

- أوكي.. منذ هذه اللحظة اعتبرا نفسيكما محميين من قبلي.. موعدي الساعة الثامنة مساء هذا اليوم مع أخي وصديق سلام الوافي ليجلب القرص، كذلك يقدم لي تقريرا عن الأفلام الوثائقية الخاصة بوكالة جوو.. أنا سأتصرف في القرص بطريقتي، ليكن في علمكم أن حقوقكم محفوظة بالتمام.. إن كانت هناك فائدة من القرص، ثانيا أنا رجل "بزنس" في الطراز والتربية الغربية وقد طلّقت العربية منذ زمن طويل، تجعلكم على اطمئنان تام من الغدر والخيانة. أقول كلمة أخيرة أن السرية في هكذا "بزنس" هي مفتاح

النجاح، ثم الثقة العالية بالأطراف المشاركة هي أهم حلقة في التعامل المثالي في العمل التجاري. على بركة الله.

شربنا الشاي المقدم لنا على عجل وخرجنا من برودة خيالية غير متاحة خارج الفندق ال"فايف ستار"، حيث وقف الصراف ليصافحني ويضغط بقوة على يدي ثم يصافح أصيل دون أن تسقط المسبحة السوداء من يده. ثم خاطبني:

- لديّ مشوار صغير في الباب الشرقي، هل الطريق سالك إلى هناك؟
- نعم يمكنك الوصول قبل حلول الظلام، بإمكانك الذهاب بهذه الهيئة الجديدة، وكن حذرا من اللصوص الصغار، فهم خطّافون بسرعة البرق.

***

# 13

## هوبي

**25 آب:**

تجاوزتُ حاجز السبعين يوما على وجودي القلـــق في بغـــداد، والحر هو الحر ولا معنى لتفسيره سوى غضب مزدوج ومتناوب بين الطبيعة والله على بلد حبة العدس.. بينما خنجر الحلم ما زال يداعب رقبتي كل ليلة.

يوم آخر جديد دبق وصمغي للغاية لشدة مـــا أحاطنـــا الحـــر برحمته، اتصل بـــي أصيل على المحمول، وأخبرني أنه بحاجة للحديث معي مباشرة لأمر هام، حينها كنت مشغولا في منطقة مجهولة الاسم تقع على تخوم بغداد، لم يجمع أهلها بعد على تسميتها.. فمرة تكنّى حي الشيشان/العدس/الحواسم/ التنك/حي الطرب أو الطناطلة، حيث تعيش مجموعة من الغجر في منطقة تطلُّ على مستنقع آسن وبعيد عن مركز العاصمة.

بدت بيوتها مسوّرة بصفائح الزيت المملوءة بالطين وأخرى مبنية بغير اتساق بهياكل من مبردات الهواء المعطوبة وأخرى من هياكـــل سيارات محروقة جرّاء الإنفجارات المتتالية.. مرصوصة بنظام عمراني

متعرّج غريب يثير دهشة الناظر لها فوق أنابيب النفط العملاقة. يعيشون على مهنة التسوّل الدائرة هذه الأيام على الطريقة المحتشمة. النساء الغجريات يتجمّعن صباحا لينطلقن نحو التقاطعات وقبل الدخول إلى السيطرات الأمنية التي تحتشد فيها مئات السيارات وتتكدس بمنظر غريب، نساء ملثّمات غير محجبات، يلتصقن قرب نوافذ السيارات للتسول الحديث بطريقة غريبة وغير معتادة من قبل، وما أن يفتح السائق النافذة حتى يتلقى علبة المناديل الورقية أو العلكة الرخيصة ثم يطالبن بالثمن قبل فتح الطريق، بعضهن يشهرن ورقة مكتوبة تعرض فرية مستحدثة عن إصابتها بمرض غريب.

وفي التعليق المرتقب على الفلم الوثائقي "تمثيل الغجر" كتبت: النظام الجديد في العراق استطاع تشجيع الجميع للخروج إلى الشارع والمطالبة بالحقوق لكن من دون تحقيقها مطلقا..

كان ذهابي هناك للبحث عن الجذور الأولى لهم، واستنطاقهم لصالح الفلم، طبعا الحديث مع الغجر كان متعبا فقد عملوا على إخفاء حقائق كثيرة عني، مؤكدين أنهم فقراء وليسوا غجرا كما يدّعي الناس هنا، ففي عام 2005 قادوا مظاهرة صاخبة في ساحة الفردوس الشهيرة وسط بغداد للمطالبة بالحقوق وتوفير أبسط مستلزمات الحياة وحمايتهم من الهجمات المتتالية لعصابات مسلحة تعيش على مقربة منهم وتأخذ ما جمعوه في كد نهار التسول.. ومن جملة الحقوق التي ينادون بها هي في التمثيل المناسب لهم في البرلمان تجسيدا لنظام "**الكوته**" حيث يزيد عددهم ما يقارب نصف مليون غجري.

قمتُ بنصب الكاميرا في أحد أزقتهم المتعرجة، لم يتكلم أحد منهم ولاذوا بالصمت خائفين من شيء ما، الكاميرا تصيب بعض

الناس بالخرس المبهم، إلاّ أن "**هوبـــي**" أخبرني بالحقيقة المرة، قال لي: "انتظرني هناك وسأحكي لك عن حكايتنا"، على أن أهبه مبلغا مـــن المال مقابل إفادته عن أسرار أهله، شريطة أن يكون التصـــوير إمـــا بحجب صورة الوجه أو بوضع اللثام على وجهـــه والـــذي أحرقتـــه الشمس. أقنعته بالتصوير في بيته، حيث وافق على ذلـــك شـــريطة تصوير عائلته معه وهم يخفون وجوههم أيضا مقابل زيادة المبلغ، وتمّ الدخول أخيرا إلى تفاصيل بيته المعمول من صفائح الزيت بالطين من كوّة صغيرة تشبه الباب:

- اسمي هوبـــي. **غجري عراقي** ضائع، انتقلنا من صـــحراء السماوة إلى أطراف بغداد بعد تغيير نظام صدام "رحمة الله على روحه"، لقد وفّر لنا الحماية الكاملـــة، الجماعـــة الله يحفظهم ويطيل قضباهم قصـــفونا بالهاونـــات كقصـــفهم للعدو، يقولون عنّا أننا أولاد زنا. ننشر الفســـق والفســـاد والرذيلة ونقوم بإلهاء الشباب المسلم عن ذكـــر الله. هـــذا كذب نحن أولاد عشائر، نعزف على الربابة في الليل فقط، عندي عائلة ولي زوجة وبنات ولا نقترب مـــن الحـــرام، نصلي ونصوم ونطبخ ونمشي ولا من فائدة.. نحـــن أولاد أصول لم نخرج من فطر الأرض، عندنا هويـــات مختومـــة، خدمنا بالعسكرية ووهبنا الوطن شهداء ضـــريبة مدفوعـــة نقدا في الدم. في هذا المكان البعيد تعرضنا إلى صولة مـــن أولاد الحرام أكثر من مرة. أين نذهب؟ هذا بلـــدنا منـــذ آلاف السنين، أنا عراقي أبا عن جد. أين أذهب؟ حتى إذا عمل واحد منّا في وظيفة يفصل منـــها عنـــدما يعرفـــون

بغجريته. أوصلنا أصواتنا للبرلمان، ولا أحد يسمع. بلـــوة سوداء عمي ابتلينا بهذا البلد.

تركت هوبـــي الغجري وهو يمسح دموعه من تحـــت لثامـــه، لكنه سرعان ما كشف نقابه ليبتسم ابتسامة عريضة، حـــتى بانـــت أضراسه الذهبية، عندما سلّمته خمسين دولارا، مكافأة عـــن حديثـــه أمام الكاميرا، نزع لثامه بعد أن أعدتُ الكـــاميرا إلى صـــندوقها، ثم ودّعنا ملوحا بيشماغه الأحمر، وهو يحلم بتعيين أبنـــه كشـــرطي في العاصمة، ودّعته على أن أكرر زيارتي له.

*

ذهبت بعد ثلاث ساعات إلى موعدي الطارئ مـــع أصـــيل. وجدته ينتظرني في كافتريا الزيتون التي اعتدنا اللقـــاء فيهـــا لـــيلا.. مفضّلا الجلوس هذه المرة خارج المقهى على مائدة صغيرة قريبة مـــن الرصيف المطل على شارع السعدون..

- هلو صديقي أصيل خير خو مـــا كـــو شـــيء. أقلقـــتني بصراحة.. تلعثم في البداية، وراح يتلفت يمينا وشمالا قبـــل الحديث:
- بصراحة أستاذ سلام أن الأمور تعقّدت كثيرا.. جاءت لجنة تحقيقية أخرى أكثر صرامة وقسوة، وبدأت التحقيق مـــع كل كادر الاستشارية سواء من الموظفين على الملاك الدائم أم العقود بما فيهم العمال الخدميين. طبعا وأنا أحـــدهم.. غدا أو بعد غد سأكون وسط حلقـــة الســـين والجـــيم.. يبحثون بطريقة بوليسية عن القرص الجيم.. أما الشـــخص

الذي يشكّون في إجاباته فيدفعون به إلى الحجز الفوري داخل القصر لحين اكتمال التحقيق.. حتى أن بعض الموظفين كانوا خائفين ومرتبكين بشكل مثير.. قال لي المستشار الأول عندما قدمت له الشاي صباح هذا اليوم: "حضّر نفسك أصيل للاستجواب أمام اللجنة التحقيقية".. ارتعش استكان الشاي وكاد يسبّب لي مشكلة مما أثار انتباه المستشار لذلك.. راح يحدّق بي كثيرا. بصراحة أنا خائف أستاذ سلام، ماذا افعل قُلْ لي..

- ليس من مصلحتك الابتعاد عن العمل مطلقا.. ستثير الشبهات حولك. حاول أن تكون طبيعيا في الإجابات، حاول أن توزع الابتسامات أثناء كل إجابة. خذ هذه الحبة أبلعها قبل الدخول بنصف ساعة، ستجعلك غير مبالٍ باللجنة وصرامتها.. ثانيا بعد الاستجواب مباشرة ستسافر إلى لبنان في جواز جديد باسمك الصريح أصيل يوسف، في لبنان سننتظر تكملة إجراءات "لم الشمل" التي تعمل عليها أمك في كندا، البارحة اتصلتُ بها، أخبرتني بأن الإجراءات أوشكت على النهاية، كذلك أخبرتني أنها على وشك إصدار القرار..
- أمي؟؟؟ ولكن هي......
- الجواز وهوية الأحوال أنجزهما لك الدكتور، هو رجل مسؤول كبير وصديق مقرّب من هاتف الصراف. سأكون على اتصال مباشر بك هناك في بيروت، سيعمل على توفير المسكن الملائم لك هناك، سيكلّفك بمراجعات مصرفية

تتعلق بشأن القرص جيم. أما بعد سفرك إلى كندا سألتحق بك هناك، طبعا بعد إنهاء مهمة القرص.. البقاء هنا ليس لصالحنا جميعا.. أنت الآن شريكنا في الحلقة الرباعية.. بعد دخول الدكتور معنا، فهو المعني بتوفير الحماية اللازمة لشركائه، الذي سينجز مهمة القرص على خير صورة مقنعة وذات فائدة.. بصراحة هو الذي وضع هذه الخطة لنا، وما عليك سوى التنفيذ.. الدكتور رجل عارف بكل الأشياء ويتحدث بثقة عالية جدا.. وهو كبير جدا ومتنفّذا في الدولة، وبالمناسبة لا تخبر عائلة عبد الحميد الصباغ بكل هذا الترتيبات.

- هل هو طبيب؟
- ها.. لا أعرف، ربما هو دكتوراه في الاقتصاد هذا الذي رشح من كلام الصراف.
- ما هو منصبه في الحكومة؟
- لا أحد يعرف، يبدو عليه أكبر من كل منصب في الحكومة.. حمايات كثيرة تتصادم ببعضها، خدم وحشم ومكاتب ملحقة وأعلام وتيجان وأمور كثيرة تدل على أهمية الرجل ومكانته.

أصيل الذي ظل مصدوما بما قلته له، راح يرتشف بقلق من بقايا فنجان قهوته، يدور في عينيه أكثر من سؤال، وفي رأسه المزيد من الإستفهامات التي لم يجد لها حلولا حتى هذه اللحظة:

- رغم أني لم أقتنع بما تقوله في "لم الشمل" والهجرة إلى كندا، أنا مضطر للذهاب إلى لبنان في الوقت الحاضر باسمي

الجديد.. بصراحة خائف، تبدو أنها ورطة كبيرة تورّطت بها، فلا من مفر لي سوى العمل معكم، مرات أحسّ أني قد وضعتني نفسي بلعبة كبيرة جدا أكبر من حجمي ولست أهلا لها، لكن عليّ الاستمرار بها إلى النهاية فلا من طريق ثانٍ لي في الوقت الحاضر..

وجدت نفسي مضطرا لمصارحته بالقصة التي لم تكتمل خيوطها بعد.. ربما سيكون حالي كحاله في يوم ما.. أنا أيضا خائف من الدكتور هذا الذي أضافه هاتف الصراف إلى عقد الشراكة في عملية القرص.. ربما سيقتلنا جميعا وينفرد بالكنز. إن كان القرص يحمل فعلا الكنز الذهبي كما يسميه هاتف الصراف، حتى العقد المبرم بيننا ترك اسم الدكتور خاليا رغم توقيعه بقلم أخضر. ودّعني أصيل دون أن يتكلم لكنه أشار لي بنصف تحية مرتبكة..

***

# 14

# الدكتور سامان فريد

## في اليوم نفسه:

بعد سنين من حالة الركود والكساد، عادت للازدهار عيـــادات الطب النفسي، خاصة بعد عودة الهزائم النفسية والانكسارات الكبرى. كذلك انتشرت بعض العيادات التي تمارس الطب الروحي بأساليب من الشعوذة الجديدة، وبطرق تثير الضحك، لكنها تعمل بجدية وعليها إقبال واسع من جمهرة المرضى المنسحبين من المدن المحتلة. أسمـــع مفـــردات جديدة مستّلة من القاموس.. نازحين/مهجرين تتردد هـــاتين المفـــردتين بكثرة في الأعلام المحلي، ربما سينزح الجميع يوما ما إلى جحيم مقـــدس آخر ونتخلص من عبء الجغرافية وسطوة التاريخ.

وصلنا في ساعة متأخرة إلى ساحة بيروت، أنا وغسان الصـــائم عن الكلام وأم محمد زوجته.. عثرنا على عنوان الطبيـــب النفســـاني الشهير "سامان فريد" فهو ليس بعيدا عن الساحة. وكالعادة العراقية السائدة هذه الأيام قدمت الرشوة الطبيعيـــة عشـــرة آلاف دينـــارا لسكرتير الطبيب لتقديم دوري في الدخول والمعاينة مع أجرة الطبيب البالغة (25) ألفا أي ما يعادل (30) دولارا أمريكيا..

في صالة الانتظار، شاهدت الكثير من حالات مشابهة لحالة أخــي غسان، شاهدت الجنود والضباط على حد سواء يعانون مــن حــالات نفسية مثيرة للاهتمام، لفت انتباهي حالة جندي شاب ضــئيل الحجــم يرتدي دشداشة رمادية يضع فوقها قمصلة عسكرية مرقطة لا تنســجم مع هذا الحر التاريخي، رحت أتطلّع لهذا الجندي المسكين وهــو يــوزع ابتسامات طائشة هنا وهناك، يتغامز بعينيه وحاجبيه بحركــات متتاليــة جعلت كلٌ من في الصالة يتبسم بخجل.. كان برفقته رجــل بالكوفيــة البيضاء والعقال الرفيع المائل إلى جهة اليسار، يعتقد أنه من سكان غرب الخريطة، يحاول تهدئته بالطبطبة على ظهره، لكنه ربط يــده مــع يــد الجندي المريض بحزام من جلد رفيع، كان الرجل صاحب الكوفية يلــح على السكرتير بإدخاله إلى الطبيب قبل أن تأتي حالته الإنفجارية ويحيــل المكان إلى فوضى عارمة. فلم تفلح كل محاولاته، ثم أخبره أنه من مدينة قلقة ويريد العودة لمدينته قبل أن تتحول إلى ولاية، أخيرا استجاب لــه السكرتير مضطرا، وأدخله مع الجندي الضئيل حتى خرج بعــد دقــائق متذمرا يجرجر مريضه الضئيل الذي أحدث جلبة قوية داخل العيادة.

بعد نصف ساعة أخرى تقريبا دخلنا على دكتــور ســامان.. شاب أبيض البشرة كعادة الأطباء يميل إلى البدانة، وهو يشــير لنــا بالجلوس. سحبت السيجارة من يد العقيد وأجلسته على الكرســي المقابل للطبيب. ثم راح يتفرّس في وجهينا:

- تفضل إسترح، ما به الأخ؟
- دكتور قبل أن أتكلم، هل يؤثر الكلام أمام مريضنا؟
- نعم في بعض الحالات، أما الآن فدعه يخرج مع الأخت قبل المعاينة السريرية..

جرجرت أم محمد غسان بقوة من كم قميصه، وهـي تحـاول إقناعه بالخروج من غرفة الطبيب للتدخين في الخارج، لكنـه دمـدم بكلام غير مفهوم، ساعدتها في إخراجه معها ثم العودة مسرعا لغرفـة الطبيب.

- هو أخي الأكبر.. عقيد في الجـيش العراقـي الحـالي.. عسكري سابق ولاحق يعشق الحياة العسكرية منذ صغره، التحق منذ بلوغه وإكماله الدراسة الإعداديـة إلى الكليـة العسكرية وتخرّج منها برتبة ملازم ثان.. لم يلتحق بحـرب إيران، لكنه شارك في حرب الكويت وحـروب صـغيرة أخرى في داخل العراق..
- باختصار رجاء..
- أعيد للخدمة بعد قرار حل الجيش.. كان العقيـد طبيعيـا جدا قبل الموصل، بل أستطيع أن أقول أكثر من الطبيعـي، متزوج وله ابن وبنت وحيدة.. ما حدث له أنه بعد احتلال الموصل كان يعمل آمر فوج للمشاة، وحدث الذي حدث كما تعرف، انسحب مرغما من الموصل وبظروف غامضة، والحقيقة لم نعتد عليه الانسحاب من أية معركة سـواء في حياته المدنية أو العسكرية، إلا بأمر مدروس ومن جهـات عليا، هناك ظروف لم تتّضح بعد لهزيمته مرغما، وصل إلى بيته بعد ثلاثة أيام..
- أخي أدخل في المفيد.. كيف حدثت الحالة..
- استمع إلى خطاب الرئيس كاملا، وبعد الخطاب أصـابته حالة الخرس هذه، ثم تابع خطاب الخليفة في جامع النـور

الكبير، ثم صام عن الكلام. أنا أعيش في كندا ولا أعـرف كثيرا عن ملابسات ما حصل، زوجته أخبرتني أنه في يـوم 2014/6/13 وصل إلى بيته في بغداد..

- ما هي الحالات التي طرأت عليه من الخطابين وما بعدهما؟
- دكتور أن مشكلته في فقده القدرة على النطق نهائيا.. قطع الزاد وظلّ يدخن بشراهة مرعبة، أما ما الذي حدث له؟؟ لا نعرف، كل الأصدقاء نصحونا بمعالجته قبل اسـتفحال حالته.. هذه هي قصته باختصار..
- بسيطة.. عليك أن تعرف مسبقا أن مثل حالته هذه تتكرر عليّ يوميا هنا في العيادة.. خاصة العسكر المنسحبين مـن المدن المحتلة، أريد أن أركز على نقطة جوهرية.. هل استمع لخطاب الرئيس كاملا أو حاول التـدخّل لفهـم محتـواه البلاغي مثلا؟
- ربما لم يسمعه كاملا - كما تقول زوجته - فقد انقطعت الكهرباء، لكن فهم المحتوى تلك قضية لا أستطيع الإجابـة الدقيقة عليها، النمامون كثر دكتور. أنا شخصيا استمعت ولم أفهم، أين المشكلة؟
- عليك بإدخاله الآن للمعاينة السريرية ومن ثم تعمل له رنينا مغناطيسيا في المختبر الأهلي القريب، وأشعة ملونة للجـزء الأسفل من الجمجمة ثم ننظر بأمر التشخيص والعلاج. لا تخف عليه القضية سهلة جدا..

***

## 15

# د. ناعم جدا

**27 آب:**

حملتني سيارة رباعية الدفع أمريكية نوع (GMC) سوداء مدرعة وحديثة الصنع مظللة، نقلتني بسرعة خاطفة إلى المنطقـــة الخضـــراء. ذهبت عندما اتصل بـــي هاتف الصراف ليلا بحدود الساعة التاسعة، وأخبرني بأن الدكتور متفرغ هذه الليلة للحديث الخاص معنا، هـــي فرصة ذهبية لتعارف الشركاء. كان من الطبيعي أن أعلن مـــوافقتي ولقاء الدكتور للحديث عن القرص وما توصل إليه.

لم نتأخر كثيرا في الوصول الآمن، فقد كان الســـائق الثرثـــار يشرح لي عن أسماء البوابات الخاصة للمنطقة، تلك المحصّنة تحصـــينا فولاذيا عاليا، السائق كان يسلّم على رجال الأمن فهـــو يعـــرفهم بالأسماء، يظهر الكارت الأزرق وتفتّش السيارة تفتيشـــا يـــدويا، ثم تُفتش مرة أخرى بمنظومة الـــ (K9) الكلبية.. تمد ألسنتها الطويلة ثم يؤذن لنا بالمرور.

هذه الولاية الطويلة العريضة والتي كان من المفترض تســـميتها بالمدينة الخضراء لسعتها الفارهة، أو الدولة الخضراء لعظمة مبانيهـــا

ونظافتها وحدائقها، تختلف عن بقية الأجزاء المفككة والقذرة من العاصمة.. تختلف عن حال بغداد التي أعيش فيها ومعي سبعة مليون مسكين مستلب الإرادة.. بعضهم يعيش على المنومات وبعضهم الآخر يعيش على صوم الكلام. وقبل الوصول إلى مكان الدكتور تفاجئنا بسيطرة خامسة، سيطرة خاصة لبيوت رجالات البدلات الأنيقة، رجال البرلمان.. سيطرات في بطن سيطرات حتى وصلت إلى عتبة المكان المقصود..

أخذني السائق إلى عمق قصر منيف ومكيّف بعناية فائقة، طغت على بدني رجفة من البرد المترف، أحالتني على الفور إلى الأجواء الكندية.. الحياة هنا مختلفة مع الشعور بالأمان التام وترف الحياة وبذخها.. القناة المحلية تبث نشيدا وطنيا حماسيا. انتقلتُ وحسب الأوامر الصادرة من الخدم والمرافقين إلى صالة أخرى أكثر أبّهة وعظمة من سابقتها، فيها تحف وأنتيكات بدت غالية الأثمان منسجمة مع الأثاث الكلاسيكي من الطراز التراثي المثير لحنين الماضي.. ثمة ثريّة عظيمة التكوين تطرّز السقف بمصابيحها الثلجية والتماعات مزججاتها البلورية، رُتّبت الصالة بعناية فائقة بحيث تصيب الناظر إليها بالدهشة وتحيله إلى تخيّل مهابة سيدها.. كل شيء يلمع التماعة تخدش البصر، ولا أثر للغبار المكثّف الذي يغلف فضاء بغداد.. ثمة باب داخلي آخر يطلّ على غرفة مغلقة.. وما هي إلاّ دقائق وطلّ عليّ هاتف الصراف من الباب المغلق بهيئته الجديدة فاتحا ذراعيه لتحييي.

- أهلا صديقي سلام.. شلونك يا أخي.. شلون أحوالك. تفضّل معي الدكتور بانتظارك.

من الباب الذي طلّ منه دخلنا كما توقعت، أدخلني إلى مكان بارد جدا، وإذا بغرفة من نوع "دي لوكس" بعظمتها وسعتها، كانت خلف المكتب دزينة أعلام عراقية وشعار النسر العراقي.. ومكتب نصف دائري فخم. خرج الرجل كما أظن من الحمام الملتصق بالمكتب فما زال وشيش ماء التنظيف يتدفق من بالوعته:

- أهلا دكتور.. هذا هو الأستاذ سلام الوافي بشحمه ولحمه..
- يا مرحبا بسلام الكندي

انتهت طقوس التحايا الروتينية تلك التي لا أجيد التعامل معها مطلقا، ربما غمز الدكتور الناعم جدا والمترف كطفل "الخدج"، إلى حد الخوف عليه من خدوش التحية والمصافحة.. لكوني بارد المشاعر أو ربما تصوّرني كشخصية متكبّرة أو متعالية.. قال الدكتور للشاب الأسمر الذي يقف على الباب..

- ابني لا تدعْ حتى رئيس الجمهورية يدخل علينا الآن.. اجتماع رقم واحد.. سري وخاص جدا. قام هو بحركة مقصودة بإغلاق هواتفه المحمولة كلها..

أسناني تصطك وأفخاذي اليابسة تهتز، ومثانتي تكاد تنفجر، يا رب لا أتحمل هذه البرودة مطلقا.. فصرخت من دون شعور مني:

- دكتور العفو.. أشعر ببرودة قاسية لا أتحملها، الهواء البارد ينخر عظامي لا أستطيع الحديث ومثانتي تكاد تنفجر.. أريد أبول رجاء.

ضحك وهاتف أيضا ثم استدار ليقلل درجة نفخ جهازي التبريد العملاقين. وتوجّهت إلى الحمام الأنيق لأفرغ مثانتي فيه، وهو بطبيعة

الحال أكبر من غرفة شقتي الصندوقية، خرجت مرتاحا ومنتشيا. بدأ الاجتماع وكان الدكتور هو من يديره:

- بسم الله الرحمن الرحيم.. على بركة الله نبدأ هذا الاجتماع على أن يوفّقنا الله ورسوله فيما هو خير للعالمين جميعا ولهذا البلد اللهم احفظ العراق وأهله آمين يا رب العالمين.
- آمين.. قالها هاتف بلغة مضخمة جدا..

كلما أسمع "بسم الله الرحمن الرحيم" أحسب أن خطابا ما سينطلق في الأجواء، لكن الصراف حاول من جانبه ترطيب الأجواء بالقهقهة ومناداته على الخدم للإسراع بتقديم واجب الضيافة.

وأنا صافن كصفنة الحمار على طريق مرور السيارات، لا أجيد ما أقوله وما أفعله مع الدكتور. وقد راودتني ضحكة خرافية كتمتها في اللحظة الأخيرة.. ثم عاد الدكتور ليتكلم بطريقته..

- بصراحة إخوان توصلنا بعد جهد كبير إلى فك شفرة القرص جيم.. ولأول مرة حسب خبير الحواسيب وهو مهندس لبناني جاء مباشرة من بيروت لفك شفرة القرص هنا أمامي وفي هذا المكان بالذات.. القرص كان محميا بخمسة أرقام سرية.. استطاع من فك أربعة أرقام سرية وبقي واحد، رقم رئيسي يدعى (MASTIR) ثم تليه مجموعة أرقام سرية لكل ملف فرعي.. أقولها وبصراحة أنا هنا متابع جدا لفقدان القرص وأدرك أهميته قبل العثور عليه، بالحقيقة كنت متوقعا العثور عليه عاجلا أم آجلا.. هذا القرص يهم اقتصاد الدولة العراقية كلها ويحتوي على إيداعات مصرفية مسجلة باسم أشخاص للأسف خارج

نطاق الموظفين الرئاسيين المعنيين، كانت معدّة لتبيّيض الأموال أو الاختفاء من قبل مجموعة أتحفّظْ حاليا على أسمائهم في الوقت الحاضر.. هذه العملية هي في الأساس غير مسجلة إلى حد الآن في ذمة وزارة المالية العراقية.. بالأحرى هي مبالغ أعادها لجنة مالية مختصة في مجلس الأمن إلى العراق، بالنظر لرفع اسم العراق من البند السابع وتحويله إلى البند السادس. قاطعه هاتف:

- عفوا دكتور كل التفاصيل لا تهم كثيرا الآن.. ماذا نفعل بالقرص؟ هل نبيعه على هذا الشكل؟ وهل أن الشخص الذي عمل القرص يبقى صامتا دون الاتصال بالمصرف لتغيير الشفرة الإليكترونية؟

- أولا سأكون صريحا معكما.. أنتما ومعكما الشاب أصيل الذي لم أره لحد الآن.. القضية معقدة جدا في التعاملات المصرفية، وتحتاج لوقت طويل للتروّي ومتابعة الحساب وتحويله عبر شبكة مصارف تعمل على نفس "التون الإلكتروني"، وعليكم بالصبر وترك المسائل تأخذ مساراتها الطبيعية عبر وسطاء انتخبتهم لهذا العمل، أو أن تنسحبوا أنتم الثلاثة ويأخذ كل واحد منكم حصته وبكل هدوء.. هذه الحصص هي من ثروتي الخاصة وليس لها علاقة بالقرص جيم.. وهي ثروة ورثتها من عائلتي، ولا تنسوا أن السلطة الأمنية كلها مستنفرة لمتابعة فقدان القرص، وهناك شكوك حول مكان اختفائه.. بالحقيقة تمّ إمساك بعض الخيوط التي ستدلّهم إلى مكانه. أنا متابع لكل الأخبار

والتصريحات الأمنية ومن مصادرها. لا تقلق من هذا الجانب أنا أتصرّف بحكمة ودراية وخبرة، وما عليكم إلا تطبيق كل الأوامر التي ستصدر من مكتبي فيما يتعلق بأمنكم الشخصي. وكما هو معروف هنا لا يمكن لشخص أن يعيش ويعمل من دون سند وظهر يحميه، الاتكاء على جدار حزبي أو جماعة، وأنتم الثلاثة أصبحتم منذ هذه اللحظة في معيتي وحمايتي.

بعد مداولات وأخذ وعطاء، خرجت من هذا المكتب دائخا قلقا، أكثر من ساعة ونصف على دخولي هذا المكان، لتنقلب كل الموازين في داخلي. أحسستُ لأول مرة في حياتي أني قريب من السلطة بكل عنفها وملابساتها وما يقال عنها في الإعلام، فتنقلب الأحوال ويتعكّر المزاج من جديد.. شعرت بالخوف والقلق. مَنْ هذا الرجل؟ ما موقعه في سلّم السياسة العراقية؟ لا أعرف.. المصيبة أن هاتف يحاول مراوغتي وتضليلي بمعلومات متناقضة بشأنه. ربما سيعمل على قتلي بسبب الكنز المخزون في القرص.. أنا مستعد من هذه اللحظة للتنازل عنه شريطة عدم الملاحقة وإخلاء المسؤولية عني وعن أصيل هذا المسكين.. لكن كما أعتقد أنه لا يمكن لنا الانسحاب في منتصف الطريق. سيقطع الطريق علينا دكتور ناعم وفوج حمايته المنتشر خارج المكتب، وربما سيكون التحريض من هاتف الصراف نفسه..

والحل؟ لا حل سوى الانتظار والسير مع الدكتور إلى النهاية. التوغل في الجريمة اسهل بكثير من العودة إلى نقطة البداية. هاتف الصراف صديقي بدا يتغيّر تدريجيا ويميل نحو جهة دكتور ناعم،

خاصة عندما انتقل للسكن معه في المكان نفسه.. لكن السـر بقـي غامضا بين هاتف وأيوب، ليت "أبو العوف" يكشف السر ويـتكلم عن تلك العلاقة الغامضة. بصراحة لا أستطيع التفكير بحل اللغز الذي وجدته داخل حمّامه الشخصي.

ذهبت في اليوم التالي إلى الباب الشرقي، ووجدت "أبا العوف" يجلس على كرسي بثلاث قوائم، قرب بسطية "أيوب الأبتر" وقبل أن أتسلّم وجبة الأسبوع تحدث "الأبتر":

- أين هو الآن توفي؟
- مَنْ؟؟؟
- توفيْ صديقك الفرنسي.

ضحك "أبو العوف" بصوت عال وهو يغمز لي بطرف عينـه، ولم أدرك ما يدور بينهما من لغز. حتى نبّ الأبتر ليفك خيوط اللغز:

- هاتف اللوز. دودة مضبوطة وتمام.
- من أين تعرف هاتف؟
- صديق مصلحة. وعلى المرام.
- لا افهم هذه الألغاز!
- خليك في حالك.. ابلع واسكت خالي.

***

## 16

# نادية الحلي

### صباح يوم 28 آب:

أكمَلتْ هذا الصباح زوجتي نادية رَزمَ حقائبها للسفر المؤقت إلى مدينتها الحلة، بعدما أزعجها وضع الكهرباء "الوطنية" القلق في كرادة مريم، تدردم مع نفسها أن الكهرباء حالها أفضل في بلدها بكثير من العاصمة، فبيتهم الكبير محاط بحديقة وارفة تجعله أقل حرارة من شقتي الصندوقية هذه..

كنت في تلك الساعة ممدّدا في فراشي، لم أزل أنزُّ عرقا صافيا. وهي تجمع حاجياها وتحدث جلبة مزعجة ومقصودة، جمعتْ علب حليب (كيكوز 2) المتبقية والماء المغلي في الترمس و"حافظات البمبر" مع كيس الورق المرطِّب "light fisher" وضعتها كلها في حقيبة قماش ثانية. لم يزل سراج ابني الأنبوبي يعوي بصوت متقطع كجروٍ أعمى من الحر وانعدام تيار الهواء في هذا الصندوق الأسمنتي.

فضاء العلاقة الزوجية ومزاجها المتكدّر داخل الشقة يدلّ على عملية زعل وعدم رضا من قبلها وإن لم تعلن ذلك، لم أسالها عن عبوسها في الليل بعد عودتي المتأخرة من قصر دكتور ناعم. مصيبتها

أنها تريد أن تعرف كل شيء بأدق التفاصيل عن مشاريعي. وهـــذا يتنافى مع سرّية العمل مع الدكتور وحفاظا على الوصايا التي كررها لأكثر من مرة وهو يودعني.

- انهض..

نهضت من الفراش أجرجر خطاي إلى حمّامنا البائس، وجـــدتها وجها لوجه خارجة منه ولا من كلمة "صباح الخير". تيقّنت رسميـــا من نوبة زعل جديدة أصابتها هذه المرة. أكملتُ بـــدوري ارتـــداء ملابس غير مكوية لإيصالها إلى كراج العلاوي، وسلمّتها مبلغا مـــن المال وضعته فوق حقيبتها الشخصية. قبّلتُ سراج قبلة على الطائر ثم خرجنا معا أجرجرُ الحقائبَ وهي تضعه على كتفها ورأسه يتـــأرجح إلى الخلف..

نادية في سريرتها المعقدة تريد تحويلي تدريجيا إلى محبس بيـــدها على مقاسها، تديره من يد إلى يد وقت ما تشاء.. معظـــم الـــذين التقيهم يشكون في السر من سطوتهن ما عدا العارف "أبو العـــوف" وخلّه الأبتر. تريد تخفيف جنوني وطمس نوبات تمردي وتحويلي إلى ريبوت يعمل بالريموت كونترول. لا أستطيع التصرف على هواها.. خاصة عندما وصلنا إلى العراق حيث بدأت تصرفاتها تتغير كثيرا.

هي من عائلة عريقة وثرية، معروفة على نطاق واسع في مدينـــة الحلة، كانت هذه العائلة مزهوة بتاريخها على الدوام وسطوة النســـاء فيها على الأزواج. تشعر بالفخر بموروثها الارستقراطي الرفيع، لكنها لا تعترف أنها من سلالة متميزة بمهادنة الأنظمة، بعكـــس عـــائلات أخرى قارعت الأنظمة المتعاقبة و لم تسكت علـــى ضـــيم. عائلتـــها المعروفة هذه تتصور أن السلطة مقدسة، لا يمكن المساس بها. أمـــور

أخرى وما شابه ذلك من الهرطقات التي لا تعجبني شخصيا في بنيـــة هذه العائلة، لكن القدر والإحباطات الكبيرة والوحشـــة القاتلـــة في كندا كانت هي الدافع لزواج المراسلة، حتى توصلت إلى قناعة بعدم جدوى مؤسسة الزواج الربحية هذه.

أبوها كان جنرالا عسكريا مقربا من النظام السابق، لكنه أحيل على التقاعد بعد غزو الكويت، باعتباره ارتكب جريمة الانســحاب قبل إصدار الأمر العسكري من القيادة العامة آنذاك، وبشفرة ســرية حيث كان ذلك الأمر متفقا عليه بسرية يعرفها هو قبل غيره. الشفرة كانت أغنية للمطرب "حميد منصور" تبث عبر الأثير من إذاعة صوت الجماهير، تكون هي الفاصلة ثم البدء في الانسحاب المنظّم، لكن هذا المطرب المذكور قد طوّح بأغنية مغايرة فحـــدثت الفوضـــى، الأب يروي قصة مختلفة تاريخيا عن مروياتِ شعبية شاعت بعد الانسحاب. هل يقف مصير البلد على أغنية؟ تلك قضية محيّرة جدا.

كانت نادية تتوخى الحذر لهذه الرواية بذات الحماس العظـــيم الذي يرويها الأب، حيث ذكر في روايته: "جاءت لي أكثر من شفرة متفق عليها، أمرتني بالانسحاب الفوري لكامل الفرقة المتجحفلة على تخوم مدينة الكويت.. تمّ الانسحاب تحت جنح الظلام بمعيّة المزيد من الفرق المنسحبة، والقصف قد دمّر معظم القوات المنسحبة، أما البقاء في المواضع فكان موتا محققا، بعد أن إستمّكنتنا قـــوات التحـــالف الأمريكي والغربـــي، الانسحاب في تلك اللحظة كان مجازفة كبرى، والخوف من ملاحقة الطائرات الأمريكية التي كانت تحوم في السماء القريبة منا، تركنا طريق المطلاع الرئيس وخضنا نزحف كالسلاحف العُمي في الوحل حتى نجونا بقدرة القادر.. رغم أن القيادة العسكرية

لم تقتنع بروايات معظم القادة الميدانيين المنسحبين".. لم تكن روايته مقنعة. أذكر أن خطاب الرئيس جاء متقطّعا مشوّشا بعد تدمير معظم أبراج البث. غالبا ما تكون خطابات الساسة في اللحظات التاريخية ما بعد الهزائم ملغّمة بالشفرات والألغاز المعقدة، وكان علينا نحن المهزومين لفك شفراته بروح رياضية.

أخي غسان يروي حادثة تخاذل القادة الميدانيين ومنهم اللواء الركن عبد الخالق الحلي برواية واقعية لا يمكن وصفها أو الحديث عنها بعد فوات الأوان وتعاظم عامل النسيان، لكنه يوجز كلامه برواية مغايرة آنذاك: "عيب على العسكري الشريف الانسحاب بالملابس المدنية، اللواء عبد الخالق وأمثاله الكثيرون نزعوا رتب الشرف وهربوا من أهم المواجهات للحفاظ على أرواحهم، من دون أن يصدر أمرا قياديا للانسحاب المنظم.. للأسف تلطّخ تاريخ العسكرية العراقية الذي لا يتشرف بمثل هؤلاء"..

روايتان مختلفتان تمثلان لب الصراع الخفي بين العائلتين، أما أنا فلا أميل إلى كلتا وجهتي النظر، وأعتبرهما محض خرافات عراقية معاصرة أسهمت في رثاثتنا ودونيّتنا.

وافق الأب على زواجي من نادية ابنته، عندما ذهب له أبي وعمي وتخلف غسان عن مرافقتهما، حيث كان معترضا أساسا على التقرب من عائلة اللواء عبد الخالق الحلي، معترضا على هذه الزيجة جملة وتفصيلا..

في أيام قليلة، ورغم اعتراضه غير المؤثر على قرار أبي، فقد تمّت الخطبة، ثم أرسلوا إلي صورا لها بوضعيات مختلفة للمبجّلة "نادية الحلي"، مع سيرة مقتضبة لها.. هي خريجة الدراسة الإعدادية وعلى قدر مقبول

من الجمال العراقي، لها من الطول ما يقارب الـ (150 سم) برشاقة جسم أهيف، ونسب رفيع، هكذا أوجزت لي أختي الكبيرة سيرة نادية وأنا في مهجري الكندي. في الحقيقة كنت في لحظات ضعف عجيبة فقد لعبت بي الوحشة القاتلة وجاد الله والبرد لعبته القاتلة، كانت تمر عليّ أيام بل أسابيع لم أتكلم خلالها، مما جعلني أكلم الجدران كالمجنون، خصوصا في أيام اشتداد قسوة البرد. حتى عقدت صداقة مع الصومالي "جاد الله" جاري المقابل لشقتي، خفّف عليّ وطأة الجنون بأشرطة الحبوب المنوّمة والمهلوسة ممّا طمس في أعماقي جدية مواجهة الحياة اليومية.. انشطرت شخصيتي إلى اثنتين، كلعبة للتسلية والإحساس بالوجود وطعن الوحشة بخنجر مسموم، اخبرني طبيبي الكندي من الاستغراق في الوحشة والتفكير.

وافقت عليها في الحال وأكملت نسخة مكتوبة من عقد الزواج، تمّ تصديقها في الخارجية العراقية، حتى أن القدر عجّل بدفع الأحداث بسرعة، إذ تمت مراسيم الزواج بسرعة خيالية. كان خيالي المريض يرسم بخبل معتمدا على الصور المرسلة رسما لامرأة مختلفة عن نادية الحالية هذه. نادية الخيال كانت رقيقة وتتفهّم الأمور، بل تناقش بعقلية متفتحة، وتفهم ما أفكر به أو أطمح إليه..

بدأت المشاكل الواقعية تتبلور بيننا، لأكثر من مرة حاولت العودة إلى العراق بعد كل خصومة تحدث بيننا، لكنها لا تجيد التصرف في حيثيات كثيرة تخص عودها إلى العراق فتؤجله وتقتنع على مضض بقسمتها.

في أحد الأيام عرفت أسرارا أخرى عن هذه الزيجة البائسة، حيث جاءت رسالة مطوّلة من أختي الكبيرة "رحاب" تخبرني أن أخي غسان

لم يوافق على زواجي من نادية نهائيا، وقطع علاقته بأبيه وبكل العائلة، لكن أبي قبل أن يتوفى كانت كلمته هي الماشية في هكذا أمور.. كان غسان يعرف اللواء الركن عبد الخالق الحلي معرفة شخصية، بل كان ضابطا في سرية صغيرة تابعة لفرقة مشاة يديرها اللواء الحلي أثناء غزو الكويت. يضع معايير الشجاعة والإستبسال للدفاع عن الوطن في المعارك وتنفيذ الواجبات العسكرية ويعّدهما تأتي في مرتبة لاحقة المعايير الأخرى كالأخلاقية مثلا التي على أساسها يتعامل مع المحيطين به.. رغم أن غسان لا يميل إلى الكلام الكثير، يحسم قوله بجملة أو جملتين على الأكثر. إنه شخصية منضبطة جدا في الحياة المدينة والعسكرية. إن قال (لا) فتبقى هذه (اللا) إلى الأبد..

كان يعرف (عبد الخالق الحلي) معرفة دقيقة، بل ويعرف أنه تخاذل منسحبا من الكويت تحت ضربات التحالف الأمريكي لتحريرها. بصريح العبارة يعتبره شخصية "قرقوزية"، ولذا اكتفت القيادة بإحالته على التقاعد ولا يستحق أن يُعدم، يقول: "إن الإعدام في العسكرية مرتبة شرف عليا لا يستحقها الحلي".

الأمور بصراحة كانت ملبدة بغيوم الحقد بين ضابطين كما تصفهما رحاب. آنذاك تحول اللواء المتقاعد إلى شخصية ثرثارة في المقاهي الحلية يتحدث فيها عن بطولات مزعومة، بينما الضابط الصغير غسان لم ينسحب آنذاك وبقي يحارب طواحين الهواء بسيف من خشب، وحصل على تكريم قيادته برتبة أعلى ونوط شجاعة. الذي أعرفه عن غسان شخصيا أنه يهوى التعاليم العسكرية الجدية ويقدسها ويمتثل لأوامرها العليا بشيء من الاندفاع المهني المدروس. كثيرا ما يتأسف على الوضع العراقي ما بعد 2003، بتلك الفوضى

الجارفة لكل القيم التي يؤمن فيها، فتراجعت لدى الكثيرين القضية الفلسطينية ثم تراجع مفهوم الوطن وترابه المقدس، سبحان من جعله الآن في هذا الوضع المأساوي بعد احتلال الموصل..

هذه الملابسات انعكست في أحاديث جانبية بين نادية ورحاب بعد عودتي إلى بغداد، النساء فنانات محترفات في تدوير المشاكل وإعادة تدويرها من جديد بل وتعظيمها.. ففي زيارة خاطفة من زوجتي لبيت أختي تشنّجت فيها الأوضاع من جديد ووصلت إلى قطع العلاقات الدبلوماسية.. وصلت نيرانها إلى العقيد، عندما قدحته نادية بكلمة سيئة أثارت حفيظة زوجته أم محمد التي وصلت لها الرسالة المحبّوكة من رحاب لتنتقم على طريقتها الخاصة، وكنتُ أنا الضحية.. ثم شيئا فشيئا غدت الأوضاع داخل الشقة متوترة ومشحونة، مما اضطرني للعودة إلى معاقرة الأقراص المنومّة من جديد. وقد عاودت إلى معاقرتها والمهلوسة منها تخفف عني الأعباء كثيرا وتسكتني على ثرثرتها.. أما "جاد الله" النائم فبعد صحوته المؤقتة كان يبارك بالمحمول هذه العودة الميمونة. قائلا:

- قلت لك ستعود لي حتما صديقي. فالحياة لا تطاق والنوم أولى يا بني آدم.

كل تلك الملابسات المتداخلة وتاريخ علاقتي الملتبس معها، سواء في كندا أم في بغداد، ساعدها للوصول إلى لحظة قرار لم تعلن عنه أمامي، كان واضحا كل الوضوح في لملمة كل الأشياء الخاصة فيها والتفاصيل الصغيرة لتأخذها معها إلى بيت أهلها.

***

## 17

# زعيم

### 8 أيلول:

في مساء هذا اليوم الصيفي الكئيب، توجهنا من جديد إلى ساحة بيروت حيث موعدنا في جلسة جديدة بعد مرور أربعة عشر يوما على العلاج، في عيادة الطبيب "سامان فريد"، وعلى الموعد المخصص للجلسة الثانية لمعاينة العقيد بعد جرعات متواصلة للدواء لمدة أسبوعين كاملين، لمعاينة أما نسبة التقدم أو حالة الانتكاس.

وصلنا متأخرين عن الموعد بسبب فوضى المرور والازدحام القيامي في شارع فلسطين. كنّا ثلاثة أنا وأم محمد والعقيد الذي ساءت صحته النفسية جدا. في بادئ الأمر رفض العقيد المجيء معنا، لكني تحايلت عليه كثيرا بمحاولة إقناعه لزيارة أحد الأصدقاء. كان يفهم من كلامنا كل ما نقصده لكنه لا يجيب ولا يبادر في الكلام مطلقا، سوى همهمات مقلقة وغير مفهومة، كطفل نحاول إقناعه وترغيبه للدخول إلى غرفة الطبيب مقابل تقديم السجائر له.

ومثل ما حصل في المرة السابقة كانت صالة الانتظار تعجُّ بحالات كثيرة ملفتة للانتباه، ومعظم المرضى هم أيضا من الجنود

والضباط ولكن هذه المرّة بحالات غريبة وغير متشابهة. لفت انتباهي الشاب الذي يبدو عليه أنه عسكري سابق في الجيش، ترافقه كما بدا من أنينها أنها أمه، أما هو فقد كان يضع يديه طوال الوقت على أذنيه: "يمّه من الحرب صار هيجي".

يسمع أصوات زعيق وإنفجارات تجعله يفقد قدرته على النوم حتى مع العلاجات المخدّرة أو تلك المنوّمة التي كتبها له دكتور سامان. أيضا هناك حالة أخرى لفتت انتباهي لجندي كان في قاطع الموصل، لكنه في لحظة الانسحاب ولغاية هذه اللحظة يتصور نفسه باقيا ويتمدد على طول جبهة الحرب التي اتّسعت كثيرا. ينادي على أفراد عائلته بمسميات مرتجلة مستلّة من اسماء فصيله. كذلك لفت انتباهي أحد المرضى المنسحبين حيث أوثقوه بحبل غليظ وأجلسوه في زاوية مظلمة من صالة الانتظار وهو يصيح بكلمات فاحشة غير مترابطة. تعمّدت الاقتراب من الرجل الكبير الذي يمسك الحبل:

- ما به هذا المسكين حجي؟
- مريض.. هو ابني اسمه زعيم، جندي في الفرقة الخامسة المتهيكلة، كانت وحدته في الموصل، عاد إلينا بعد احتلالها بهذه الوضعية.. كما ترى أنه مكبّل بالحبال، من رقبته حتى قدميه، وعندما نخلع الحبال عنه يصرخ ويجن جنونه، لا أعرف لماذا يجب تقييده بهذه الحبال، يقولون أنه مريض الهزيمة وليس مجنونا.

جلسنا طويلا في غرفة الانتظار الضيّقة، حتى حان موعدنا بعد أن دسستُ في جيب السكرتير عشرة آلاف.. ودخلنا مؤخرا إلى غرفة الطبيب.. زوجته (أم محمد) جلست على كرسي وكذلك

جلس العقيد المخذول، بينما بقيتُ واقفا أردُّ على بعض الأسئلة التي تحتاج إلى إجابات من قبلنا. وجّه الطبيب أكثر من سؤال مباشر للعقيد، بعض الأسئلة كانت مثيرة له، حيث لاذ بصمت غريب رغم استفزاز الطبيب له، قدم اعتذارا مسبقا لنا عن بعض الأسئلة المثيرة في الوضع الاجتماعي الخاص له.. لكن غسان غاص في بحر الصمت كالعادة. تولّيت الإجابة عنه ببعض الاستفسارات التي أراد معرفتها عن حالات الاستجابة للعلاج القديم.

وبعد فحص دقيق لأعضاء جسمه والنظر في الأشعة المصورة للجمجمة ومعاينة نتيجة الرنين المغناطيسي وخطوطه وصوره المتتالية، كتب له الطبيب هذه المرة علاجا أكثر قوة من الذي سبقه على أن نعرضه عليه بعد مضي ستين يوما من التواصل مع جرعات الدواء بمواعيدها. قال لي عندما جلبت الدواء له للنظر في تطابقه:

- مريضكم يلزمه الراحة التامة ويفضل أن تكون غرفة نومه بعيدة عن الشارع، أن لا يسمع أي صوت في هذه الفترة، أن يبتعد عن التلفزيون وقراءة الصحف، كذلك تشير الفحوصات إلى أن كل الأجهزة الصوتية من الناحية التشريحية سليمة، سواء في اللسان أو الحنك اللحمي أو اللهاة أو الحنجرة والرئتين والحجاب الحاجز، الذي عادة ما يصاب بتمزق في حالات مماثلة.. هناك مشكلة في إيعاز المجسّات العصبية داخل الدماغ، هي الآن متوقفة بسبب الصدمة التي تعرض لها العقيد.. إنه بصراحة مصاب بمتلازمة مرضية موطنها الأصلي هو العراق، تدعى "متلازمة الهزيمة" يسمونها Syndrome military. هذه المتلازمة

تتكرر عليّ يوميا هنا في العيادة وخاصة بعد خوض المعارك والهزائم الحربية المستمرة. أُكتشفت هذه المتلازمة بعد هزيمة الجيش في غزوه للكويت في مطلع التسعينات، وهزيمته المرة هناك. غير أن منظمة الصحة العالميـــة (WHO) لم تقرّهـــا رسميا ضمن مناهج حصر الأمراض المستحدثة، لكن الأطباء الألمان الذين يعملون على بحوث مشابهة للجيش الألمـــاني اعترفوا بتشابها بحالات مرضية نفسية حدثت في ألمانيا بعد هزيمتها في الحرب.

لم تقتنع "أم محمد" بهلوسة الطبيب: "هذا مجنون"، حاله حـــال أطباء نفسانيين كثر. أما غسان فأشار بأنه بحاجة إلى علبة سجائر، ثم راح يحك ظهره بيده أمام الناس في الشارع. بـــدت أصـــابع يديـــه وشفتيه مصفرّة لكثرة التدخين.

أتذكر الآن مقاطع مهمة من حياته، حين كان ملـــك الأناقـــة والذوق خاصة في أيام الإجازات والخروج عصرا من البيت إلى نادي الضباط بمعية الأصدقاء الذين يتوافدون عليه ويذهبون معا لهذا النادي في منطقة الكسرة. السائق العسكري المنضبط الذي يبقى يرافقـــه في سيارة الجيب العسكرية، وينقله إلى وحدته العسكرية وهـــو يـــؤدي التحية له حتى داخل البيت.

أصبح الآن في هذه الهيئة المخيفة، شواربه المصفرّة ولحيته الكثّة غير المشذبة وقد أختلط فيها الشيب مع بقايا شعر أسود، هذا المنظر لا يدل على صورة غسان الأنيق والملتزم والحاذق، أبدا.

***

# 18

## حيدر دبل

### 10 أيلول:

عدّتُ للنوم وحيدا من جديد في صندوق الشقة بعد ذهاب نادية إلى أهلها في مدينة الحلة.. وفي ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي اتصل بي هاتف الصراف، وكنت قد نسيت إغلاق المحمول ليلا.. في العادة لا أردُّ على المكالمات التي تردني بشكل مفاجئ خاصة في أول الصبح، لذلك غالبا ما أغلقه ليلا ولا أفتحه إلا في ساعات النهار وعند الضرورة فقط، رغم أني أكره كرها شديدا الأصدقاء الذين يغلقون هواتفهم ولا يردّون على المكالمات أو الرسائل لا لسبب إلاّ ليشعروا أنفسهم بالأهمية.. وقد قررت عند عودتي إلى كندا الاستغناء الكامل عن المحمول بشكل نهائي، حيث أصبح مصدر إزعاج لي.

لكن ورود مكالمة من الصراف وفي هذا الوقت المبكر، هي قضية تستحق الرد المباشر. فكّرتُ.. ربما أوعز له الدكتور بتوزيع حاصل الثروة التي طالما حلمت بها والمترتبة من بيع القرص لجهة أجنبية مثلا، أو ربما استطاع بعض العملاء من سحب أو تدوير المبالغ

وتبييضها، أو ربما استطاع المساومة مع لجنة البحث الحكومية بطريقة ثعلبية كما هو معروف عنه.. الدكتور ناعم يستطيع المناورة الذكية لإحراز النجاح في عملية القرص. هذا ما أفادني به هاتف الصراف.

- الووووو. تفضل.
- صباح الخير سلام، انتظرك على رأس كرادة مريم لأمر هام، بالضبط قرب مطعم "حيدر دبل" الآن.
- منْ "حيدر دبل" هذا؟
- إنه مطعم شهير للفلافل على الشارع العام المؤدي لجسر الجمهورية، وقريب من شقتك ومقابل للمنطقة الخضراء ومدخلها.
- خير إن شاء الله خو ما كوشي أستاذ هاتف؟
- ............ انقطع الاتصال أو ربما هو الذي أغلق المحمول متعمّدا ذلك.

قطع الاتصال ووجب عليّ الذهاب إليه، ودارت في رأسي عدة احتمالات منها السيئ المثير جدا، وأقلها الاحتمالات المفرحة.. لكني تعودت على استقبال الظروف الحرجة بصدر رحب، فتلك من وصايا الخالة هزيْمة، ليس لديّ ما أخسره بعد، ومشوار الحياة الذي قطعته تعلّمتُ منه تلقّي الصدمات بصدر رحب، خاصة تلك العنيفة منها التي تقلب مزاجي في الصباحات الباكرة.

شربت قهوتي الصباحية ساخنة على عجل، وتناولت سيكارتي الأولى وبلعت قرصين من "الفليكا".. ثم فتحت الكنتور لأرتدي ما يناسبني.. كانت الفوضى عارمة في عموم الشقة وليس فيه فقط بل في عموم الشقة. بعد أيام من غياب نادية وسراج حدثت هذه

الفوضى. رائحتها تملأ المكان.. اشتقت إليها وإلى صراخ سراج، وقد اكتشفت متأخرا أني أحب ذاكرتي بلوعة كبيرة. لا يمكن أن أتخلى عنها.. هذا مستحيل. أنا هكذا دائما أدرك جنوني وعقلانيتي بأوقات متأخرة.. نصف عاقل ونصف مجنون، كذلك هي نادية نصف عاقلة ونصف مجنونة وعندما يلتقي نصفي المجنون مع نصفها المجنون تحدث الكارثة. لم تكن سلبية أبدا بل أنا رجل مزاجي وأناني ولا أطيق الآخر مطلقا، إلا وفق مقاساتي الشخصية. تف عليّ في كل حين. ربما أتلذذ في مداعبة ذاكرتي أكثر من مداعبة سراج أو نادية في الفراش أو مداعبة الرئيس لخصيته في الأزمات، ذلك لغز من تكويني الملتبس.

في الطريق إلى الحمام وكالعادة أيضا تعثّرت قدماي في الطريق المظلم إلى الحمّام، بسبب انقطاع التيار الكهربائي اصطدمت بدمية سراج، تلك الدمية المبتورة الذراع تثير الفزع فيّ كلما اصطدمت بها، وقد اعتبرتها بمثابة الفأل السيئ والمعتاد في حياتي. دمية مهلوسة الشعر بوجه كئيب. لم أتذمّر وأكفر مثل كل مرة، حملّتها ومسحت بكفي عن وجهها بقايا الأتربة والغبار، ورحت أتلفت في زوايا الشقة الصندوقية لأجد لها مكانا مناسبا أضعها في طريقة تجعلني أشاهدها يوميا..

وصلت إلى مطعم "حيدر دبل"، رغم أني لم أتعرّف على هذا الشهير في بغداد كلها، أهل بغداد يقدسون الأكل وأصحابه الحاتي - قدوري - زبالة - قاسم أبو الكص- جبار أبو الشربت- أبن سمينة - حيدر دبل وغيرها، ولم أعثر على علامات مفكريها ونخبها إلاّ ما ندر.

وجدت هاتف الصراف يتمشى على الرصيف القريب من المطعم، يهز مسبحته بقلق وريبة، واضعا تحت إبطه جريدة مطوية. حدسي أن الأمور بدت أكثر تعقيدا حسب وضعيته هذه. تكلّمَ من دون مقدمات قال: "إن إحدى الصحف كشفت عن فقدان القرص الجيم من مكاتب ديوان رئاسة مجلس الوزراء بطريقة تدل على فساد ولصوصية احترافية.. وصلت الأمور إلى الإعلام. لقد لّمحت الصحيفة في تقريرها بطريقة خبيثة أن الشكوك تدور حول جماعة مقربة من أحد الساسة الذين لهم علاقات طيّبة في تغذية وسحب الأموال من المصارف العالمية، طبعا المقصود به هنا الدكتور شريكنا.. لقد كشفت الصحيفة تكهنات عن مادة القرص السري المُسمّى "القرص جيم"، عزيزي سلام الأمر بالغ الأهمية والخطورة.. الدكتور جنّ جنونه حيث أكّد لي: "أن أحد الشركاء قد سرّب الخبر إلى الإعلام.. ربما يكون أصيل قد تحدّث مع أحد أفراد عائلة عبد الحميد الصباغ، أو ربما ثرثر في المقهى مع أصدقائه، وربما أن سلام الوافي تحدّث لزوجته، حتى أنا متهم أمامه: ربما أنت في مكالماتك المستمرة إلى فرنسا"، هكذا كان يقول، بل حامت شكوكه حتى على أفراد حمايته: "ربما استرق السمع أحدهم ونحن نتحدث كل شيء جائز!.. الاحتمالات كلها حاضرة ومحتملة في بلد العجائب".. احتمالات كثيرة بحاجة إلى تفسير مقنع.. باختصار أن الدكتور وضع خطة طوارئ مدروسة لتلافي الوقوع في المصيدة، كما تعرف هو ليس ناعما سهلا إنما ذئب سياسة واقتصاد.. يوصي الآن بالسفر فورا إلى بيروت نحن الشركاء الثلاثة، وخلال (48) ساعة فقط.. هذا أمر.

- شيء ما معقول، ربما هناك أجهـزة تتنصّـت في قصـر الدكتور. والسفر يحتاج إلى تخطيط وتجهيز، ليس في هـذه السهولة.
- امسك هذه الصحيفة التي نشرت الخبر.. مصيبة عظيمـة، واحتمال القبض علينا في كل لحظة، حاول التخفّـي مـن الآن فصاعدا.. أمّنْ الاتصال بأصيل الآن للحجـز علـى أقرب طائرة للسفر. هذه بعض المبـالغ لكمـا أرسـلها الدكتور كما يوصيكما بكتمان أمر السفر أيضا. بالنسـبة لي حجزت تذكرتي والسفر سيكون اليوم ليلا. الـدكتور سيسافر في مهمة إلى الإمارات غدا ثم يلتحق بنا في بيروت. نختفي عن الأنظار لحين ما يتصرّف الـدكتور بـالقرص. سيحقّق لنا اجتماعا فاصلا في بيروت نهاية هذا الأسبوع أو بداية الأسبوع القادم. هذا كل ما عندي مـن معلومـات وتوصياته واجبة لنا نحن الثلاثة.
- طيب والقرص والمشروع والحصص؟؟؟
- كل شيء في عنق الدكتور. وأنا أتكفّل الرجل. كما تعرف هو رجل جهادي وصاحب تـاريخ مجيـد في المعارضـة والنضال ضد الدكتاتورية. ووضعه السياسي يجعله بمصداقية عالية.
- أخي هاتف أنت صديقي ولا أريد أن أخسـرك. أخـبر الدكتور أني موافق على عرضه القيم بحصة مقطوعة تكفيني من القرص من دون الانتظار. كذلك أصيل موافق علـى نفس الطريقة.

- فات موعد هذا العرض الآن يا سلام، نحن على حافة مصيبة، بل على شفى ورطة عظيمة إذا لم نتدارك الأمر بسرعة فالخطر قادم ومباغت ربما. وحياتكما معرّضة للخطر منذ هذه الساعة.. قوات الأمن توصلت إلى خيوط ستقودهم حتما إليكما في الساعات القادمة.
- طيب.. أنا موافق. بل أنا خائف فعلا.. سنسافر أنا وأصيل إلى بيروت.
- وعلى انفراد، هناك من ينتظركما في المطار ليقودكما إلى مكانيكما.. أمّن الدكتور لكما حتى الحجز في فندقين منفصلين وفق تعليماته..

أنا بعد بيروت سأستمر في عملي بوكالة جوو. أما أصيل فأنا على وشك إقناعه بالالتحاق بأمه سليمة حنظل.. طبعا بعد أخذ الراحة والاستجمام والاجتماع الفاصل مع الدكتور في بيروت بشأن القرص.. ثم أردف قائلا:

- أنا مضطر للذهاب الآن خوفا من المراقبة.. كل شيء -حسب ما ذكرَ الدكتور- محفوظ وفق عقد الشراكة، ليس من حقك التشكيك بالدكتور، فهو رجل تقي ومن أهل الدعوة ورجل أعمال من الطراز الأول، ثانيا هو رجل حافظ للسر ولا يمكن أن يضحّي بسمعته الطيبة من أجل مبالغ تافهة تأتي من القرص، حتى وإن كانت بضعة مليارات تافهة من الدولارات لا يمكن أن يساوم أو يهادن على **تاريخه الجهادي**. لكن الأمر يحتاج بعض الوقت وما علينا إلا السرية والكتمان أخ سلام، لا يريد الدكتور منكما سوى

الكتمان التام، سمعته فوق الشبهات والمتربصون له كثر.. أنا هنا لا أدافع عنه لمحسوبية ما، لكن الرجل في موقع احتـــرام دولي ودبلوماسي عالٍ وله جمهوره العريض مـــن المريـــدين والناخبين، لا يمكن أنً يلعب لعبة صبيانية. وعليك طمأنـــة أصيل وأن توصيه بالكتمان.. بصراحة هو يخطط لضـــمان مستقبل زاهر لك في حال نجاح العملية، هذا البلد بلدنا وهو يحتاج إلى طاقات وكفاءات أمثالنا. قـــال لي: "مســـتقبلكما أنت وسلام الوافي هنا وليس في كندا أو فرنسا".. لم يوضح ما يقصد، لكني اعتقد أنه سينقلنا نقلة تاريخية على الأقل في تسلّمنا موقعين سياسيين رفيعين وهما من حقنـــا.. اغتربنـــا كثيرا وتشردنا وحانت لحظة إعادة الاعتبار لنـــا وتكريمنـــا، تحياتي لك سلام وبلّغ أصيل بالسفر منذ هـــذه اللحظـــة.. وأكرر ما قاله بالكتمان بشأن السفر المنفرد طبعا.

*

عصر اليوم نفسه ذهبت إلى مكتب الخطوط الجوية في شـــارع السعدون لحجز تذكرة السفر في الموعد المحدد، ثم عرّجت على منطقة الباب الشرقي للبحث عن صديقي العارف الحكيم، فقـــد نفـــدت ذخيرة الاستمرار على قيد الحياة. وعليّ أن أتزوّد بأشرطة منوّمة من "الفليكا" الجديدة تساعدني في ساعات السفر بالطائرة وعلى النوم في بيروت من دون قلق ووجع رأس.

لم أجده في الأمكنة المعتادة له حيث الرواقـــات المتعرجـــة في معقل الباب، ليس أمامي سوى سؤال صـــديقه الروحـــي "أيـــوب

الأبتر"، حيث كان يجلس على عادته بعربته رزقه الجديدة، هو بلاّع مضبوط كما يصفه "أبو العوف"، وخبير الغلمان والحلوين، قلت له:

- دلّني عليه..
- ستجده في البتاوين، بالضبط في مقهى عصمان السوداني هناك، اليوم هو في استراحة. سلملي على **توفي**.

ذهبت إلى البتاوين وسألت عن مقهى عصمان السوداني.. وعندما دخلتها واجهتني موجة ضبابية هائلة من دخان أراكيل عملاقة، تنتصب أمام زبائن كبار السن من "النشالة" السوابق والنصابين المحترفين وقوادي الغلمان وآخرين متبرعمين في قيد تعلّم الدرس. وقد عُفّرت الأراكيل بحشيشة "اللبن الحمري" كما يسمونها لتعديل المزاج. وهي من النوع المحلي الذي يزرع في سنديانات البيوت والشقق في البتاوين معقل الحشيشة العراقية الجديدة.

- شلونك صديقي "ابو العوف"..
- أهلا خال سلام شلونك.. شجابك هنا؟ هذا المكان فيه خطر عليك صديقي سلام.. اليوم أنا في استراحة من العمل، لا يوجد بيع عندي، إلا في حالات الإنقاذ الفوري وإسعاف الطوارئ.. خذ هذا الشريط الجديد من باب الضيافة هدية لك، أنه إنتاج هندي جديد يخليك تخلع هدومك في أي مكان. يا أخي يا سلام ما أجمل البشر لو كانوا "مصاليخ" كما خلقهم الباري.
- "أبو العوف" أنا بحاجة إلى كمية كبيرة تكفيني للسفر.. جئت لأودّعك، غدا سأسافر من دون رجعة.

- لا بشرفك! مو خوش خبر، زيـــن والموصـــل؟ والعقيـــد؟ والحُب توفي؟ مو عادي جدا هذه المرة أبدا.

هزَّ رأسه للمفاجأة غير المتوقعة.. لف الأنبوب المطاط للأركيلة على رقبتها وارتدى قبعته ونعاله المتهرئ، ثم أشار لي برأسه للخروج من جو المقهى الخانق.. ذهبنا إلى حديقة الأمة ليـــؤمن لي الكميـــة المطلوبة من مخزنه المتنقل عند رجل أعمى. انحرفنا نتمشى نحو ساحة الطيران حتى دخلنا في شارع النضال، بعيدا عـــن الزبـــائن الـــذين يلاحقونه في يوم الاستراحة بحثا عن ساعات التنويم الإضـــافية. راح يتحدث لي عن حياته الداخلية ومعاناته التي جعلته أكبر نوّام في بغداد و"بلاّعا أصليا" يُعد الرقم الأول للنوّامين الاسطوات:

- هل تعرف أن أمي اشهر قحبة كانت في تـــاريخ بغـــداد يا سلام. قحبة أصلية غير مغشوشة وبنت قحبة.. نعـــم لا تستغرب فهذه هي الحقيقة، لأنك أصـــبحت صـــديقا لي، كذلك أنك مسافر غدا فلابد من مصارحتك بحقـــيقتي.. اكشف لك ما يعاني منه هذا الشخص الذي أمامك..

تزوجت أمي ابنة الكلب عشرات المرات وهذا **عادي جدا**، حالها حال الكثيرات من أرامل الحرب.. مـــن مصـــريين وسودانيين وعرب آخرين منهم أشكال وأنواع، "البولـــة- الدنبك- البربوق" حققّت الوحدة العربية بحذافيرها، خاصة في سني حرب إيران عندما غاب العراقيون في الجبـــهات، تصور تزوّجت حتى "واحد باكستاني".. تزوجته ثم عافتـــه لتلحقه بزوج هندي تتطاير منه رائحة التوابل الهندية، وربما لي أخوة في كل أرجاء العالم من دون علمـــي. هـــي الآن

عمياء تكفّر عن ذنوبها القومية والعالمية بالصلاة المستمرة. لا ألتقي بها مطلقا فهي لم تحدد لي من هو أبي بالضبط. وبالحقيقة أخجل من تاريخي المشوّه كلما شاهدتها.. كلما أتذكرها أبلع على الفور شريطا كاملا "أبو الخمسين" من حبّة الحاجب حتى أنسى.. أنسى العراق كله بطوله وعرضه.. تصوّر سلام كل رجل كبير يقابلني في الباب الشرجي أشك أنه أبي. نام معها كل جنود الجبهات في أيام الحروب بالمجان وبمجهود حربي.. ربما كان أحدهم أبي الملعون. الوالدة أكبر بلاّعة في بغداد.. كيف تريد مني أن أستقيم يا سلام وهذه المأساة تلاحقني حتى في المراحيض. أصبحت كل مشكلات البلد عادية جدا في نظري. أنت تعاني من ضياع الموصل وأنا أعاني من ضياع نسبي.. اسمي "أبو العوف" فقط من دون اسم الأب. لا جواز ولا هوية ولا مستمسكات رسمية. كل شيء مزوّر عندي.. البلع هو تاريخي المجيد.. أتمنى على كل عراقي معذّب مثلي أن يأتي للباب "الشرجي" ويأخذ كفايته من الحصة وعلى حسابي الشخصي.. ولو كنت وزير التجارة سوف أدخل الفيلكا ضمن مفردات الحصة التموينية، أمنحهم ما يكفي من أشرطة البلع، أصيح بهم "النوم يا عباد الله" ينامون في الشوارع أو على الأرصفة.. أنا مكتشف "الخلطة العجيبة" للبلع بعد سقوط الموصل يا صديقي. تصوّر حتى هذا أيوب الأبتر أكثر المرات أشك أنه ربما يكون أخي أو ابن عمي أو أبن خالتي، فهو ضائع

مثلي، ينام في فندق الرحاب قرب المـــراحيض المشـــتركة لجميع غرباء الفندق.. إنه مسكين لا أحد يعرفه مثلي. ربما ستعود لك الموصل ولكن أنا من يعيد لي أبـــي؟؟

- لا عليك ستستقيم الأمور يوما ما.. الله كريم.
- كل العراقيين يقولون الله كـــريم إلاّ أيـــوب وحضـــرتي. بالمشمش ستعود. تدري أن العراق عبارة عن نكتة سخيفة وحزمة كلاوات، لا تصدق ما يقال. عادي جدا.. عليك أن تسافر وتنسى البلد.. حياك الله وسلملي على "أبـــــي التوف" صاحبك.
- ابو العوف ما قصة توفي هذا؟
- هههههه بلاع من جوّة.. يخرط اللباس بسرعة. يمعود عيش وشوف. تحياتي.

***

# 19

## تشارلز برنس

### 12 أيلول:

وصلتُ إلى مطار الحريري في بيروت ضحى يوم جمعة حارة ورطبة.. بارزا جوازي الكندي لموظف الجوازات، لأتخلّص من الحجز الفندقي ومبلغ التأمين المُسبق في الجواز العراقي المكروه عربيا ودوليا، تنبّهت بعد ما انتهى الآن مفعول حبّة السلطان قرب ضابط الجوازات، كان التوقيت مناسبا بحساب مدة سريانها وانتهاء مفعولها.. بدا أن مفعول حبّة السلطان التي أهداني إياها "أبو العوف" كافيا لامتصاص كل مصائب الدنيا العراقية، بل وتصريفها لطردها خارج الروح الملتاعة.. نمتُ في الطائرة من دون رؤية الغيوم البيض، غيوم شهر أيلول الخجولة، لا تصلح إلا لكراريس الرسم في مرحلة الطفولة، عندما كنت أرسم غيمة بيضاء بشحم الباستيل وأمسكها بيدي ثم أفركها بحثا عن الماء، بيد أن رغبتي القديمة حضرت بقوة في التمتّع بالنظر إلى مؤخرات المضيّفات في ممر الطائرة، تلك هوايتي المفضلة، غلبني النعاس وأنساني مؤخراتهن والغيوم التي تصطدم بجسد الطائرة.. سيكون الحديث مع الشخص الجالس قربي وإغراقه في

بحر الكذب عن بطولاتي المفتعلة طريقة مثلى لنسياني عادتي القديمة. لكن النوم كان اسرع. إذن فالنوم هو الفضيلة الوحيدة المتبقية لي إزاء ما يحدث في صندوق الطائرة.

في ممر استقبال الوافدين وجدت أحد الأشخاص يرفع ورقة مدوّن فيها (سلام الوافي)، أخذني الشاب العراقي من مطار الحريري إلى "تشارلزبرنس هوتيل"، فندق مرموق في شارع خلفي وضيق تحيطه غابة وارفة من العمارات المتسامقة، وهو ليس بعيدا عن مرأى البحر، ثم انسحب تاركا لي مبلغا من الدولارات الأمريكية والليرات اللبنانية:

- هذه لك من الدكتور.. الليرات محروقات نهارية والدولارات محروقات ليلية.. أتمنى لك طيب الإقامة في بيروت صديقي، خلفك شارع الحمرا مدينة واسعة، والأسواق والمقاهي والنوادي، وعلى يمينك جونيه معقل صيد الحسناوات، هذا البحر أمامك بكل أنواع السمك الحي اللابط،، ضحك الشاب وانسحب مودعا..

بقيت طيلة الوقت اتصل بشريكي المفترض "هاتف الصراف" على برنامج الفايبر ولا من فائدة فالإشارة تخبرني أنه (غير متصل)، ولا أعرف مكان أصيل الذي سبقني بالقدوم إلى بيروت.. مللتُ من التجوال في الشوارع والمحال والمقاهي المتراصة.. شبقتُ كثيرا لرؤية الفتيات المتحررات أكثر من نساء ادمنتون وحزنت على صورة بغداد وفتياتها الملطخات بالسواد في فضاء مُغبر ودامٍ، عدتُ مسرعا إلى الفندق خائبا ضجرا ومتضايقا من زخم الرطوبة العالية.

عادت من جديد نوبة الكآبة الحادة وعدم الرضى عمّا فعلته.. لذلك عمدتُ إلى تناول كمية وافية من الحبوب المنوّمة نوع

"بينزوديايين" الجديدة هذه المرة، سويدية لم أجربها من قبل، لأتخلص من الضجر والإرباك والإحباط.. النوم هو الوسيلة الوحيدة التي أتخلص فيها من التقريع وضغط الذاكرة.. النوم عالم متكامل وفق مقاساتي الشخصية أصنع فيه أحلامه وفق مقاساتي، وأرسم مديات الأخيلة الشاسعة في بقعة حبة العدس الشاحبة وأكون بطلها الوحيد، متخلصا من حِدّة التفكير بالقرص والمخاوف مما سيصنعه بنا دكتور ناعم.

هذه المرة نمتُ نوما مخلا باليقظة.. ساعات طويلة يتساوى فيها الليل والنهار عندي.. عادت فيها الأيام متشابهة لا فرق بين جمعتها وسبتها، هذا النوع من الحبوب يبدو أفضل من حبوب "السلطان" ذات التسمية الشعبية، حيث تبين أنها من مشتقات "الهيسباتيين" وفق النشرة المرفقة، فبالإضافة إلى كونها منوّما مدهشا مريحا، يأتي النوم فيها على دفعات متناوبة، فيها أيضا صفة الانتشاء الروحي للسعادة، لأنها تشحذ الخيال بأفكار جديدة وتطعن الاضطراب بالخاصرة، بل تزيد من الشعور بنشوة "اللامبالاة" التي أبحث عنها طيلة الوقت في بغداد. وبعد انتهاء مفعولها أشعر بالتخلص الكلي من الهموم والمشاكل والتفكير المُخلّ بالشجاعة الكافية دفعة واحدة.. "عزيزي المواطن: عليك بالسلطان أينما كان".. شعار رفعه السيد خبير الأقراص المنوّمة وصديقي العارف الحكيم الذي يحتفظ بأكثر من ثلاثين نوعا فاخرا، حتى أنه نقش وشما أزرق على زنده الأيمن بمفردة (السلطان)، ثم نقش وشما آخرا لخريطة عراقية قديمة، تتجلّى فيها منطقة الحياد واضحة.. وثمة دهليز طويل على يسار الخريطة.. خريطة قديمة بموصلها وجنوبها الصاخب بالتخيل:

- أنت شريف يا "أبا العوف"..

ردّ عليّ من دون أن أعرف في بداية الأمر ما يعنيه:

- قمْ به وخذ البطولة معك. الشرف ممنوع في الباب الشرجي.
- نعم!!! ماذا تقول؟
- ما كوشي صديقي.. **عادي جدا**.
- أنت تنوّم المدينة كلها. أنت فعلا سلطان النوم الهادئ مثلما يطلق عليك صاحبك "أيوب الأبتر"، تبقى لدي آخر الأسئلة، ما قصة أصابع يدك المبتورة هذه؟ أشاح بوجهه، كأنه لا يريد تكرار الجواب فمن المؤكد قد سأله عن ذلك غيري من الكثيرين الذين عافهم النوم:
- أخوك سلطان النوم عندما جدّ الجد قاوم الأمريكان.. إكتفى بهذه الجملة اليتيمة وأشاح بوجه عنّي، وملتهما واحدة بسرعة البرق.

ليس من المعقول أن يكون بطلا في مقاومة مسلحة تستهوي الكثيرين في خاصية التمرد المرغوبة جدا، رغم فلسفتها التي لا يدركها "أبو العوف" كما أظن.. ربما قاوم الأمريكان بمقاطعتهم لبيع وشراء الأقراص المهلوسة في العلن، ورغم أن جنودهم هم الذين جلبوا الفيلكا وبيعها في الباب.

تذكرت أني لم أودّع زوجتي نادية وابني سراج، كان من الواجب أن أكلمها بالمحمول وأعيد الأمور إلى طبيعتها وأزيل مسحة "الزعل" المتلبّد في سمائها، "أنت لا تعرف الأصول" غالبا ما تقول عني ذلك.. بعدما أصحو من النوم سأحاول تصحيح المسارات الخاطئة وتحريك المفاوضات..

لكن هاتف الصراف لم يمهلني كثيرا بل أخافني وصـــوّر لي أن كل شرطة بغداد تبحث عني في تلك اللحظة.. حتى أخي غسان أيضا لم أودّعه، ترى كيف هي أوضاعه الآن؟ خاصـــة مـــع العلاجـــات الجديدة، هل نطق أم ما زال مصرا على تحمل جبل الصمت الـــذي يلوذ تحته؟ الأفلام الوثائقية لم أنجز منها سوى القليل غير المكتمـــل، رحلتي إلى بغداد لم تحقق أهدافها قط. ليس في تفكيري الآن ســـوى دكتور ناعم والقرص والثروة العظيمة.. ماذا فعلت يا أخي؟؟ لم أفعل شيء إنما الحياة في العراق هي التي تفعل بـــي، وما أنا عليه الآن هو نتيجة الظروف القاسية والخسارات ومشاهد الخراب والفساد الـــذي يزكم الأنوف.. ثم نمتتتتتت، أني أغرق في بحر النوم الثقيل.

*

لا أعرف كم الساعة الآن.. فحم الظلام وغبار عتمته يخيّمـــان في منجم هذا المكان الدامس، أين أنا الآن؟ أنت في هذه الأرجوحـــة العملاقة المعلّقة بين جبلين.. الحياة رائعة في لحظات قصيرة مـــا بـــين النوم واليقظة، تتأرجح جيئة وذهابا بين السماء والأرض التي أنـــت سلطانها وحدك.. أين أنا؟؟نمْ.

تدريجيا استطعت غواية الذاكرة الأرضية وترويضها.. قرصـــت خدي قرصا قويا متتاليا، فتذكرت أخيرا أني داخل غرفة في فنـــدق "تشارلز برنس" في بيروت.. كم من الوقت مضى عليّ وأنا نائم هذه النومة الطويلة؟ احب تلك اللحظات ما بعد غياب النشـــوة، كـــأني خارج من حمام ساخن. لا أعرف ماذا أريد تماما.. كثير من الأسئلة التي لا أحد يجيب عنها تبقى معلّقة في خزان الذاكرة.

فتحت زر الضوء فهجم عليّ البياض هجوما مباغتا. بياض هائل من الضياء الأبيض.. أغطية وسرير والبلاطات وسقف وبانيو الاستحمام ومغسلة بلورية كل هذه الأشياء تنعم في البياض، ابحث عن بقعة سواد أستلّها من ذاكرة الفحم لأجمّل اللوحة البيضاء المحيطة بي.. لا قيمة تذكر للبياض إذا لم يحتضن بحر سواده قطعة البياض ويحجّمها لتكتمل اللوحة، ربما ستهب عاصفة ريح سوداء وتغسل الوجه الملوث في البياض.

داخل الحمام الأبيض الأنيق أمارس لعبة الغطس في ماء البانيو، لكن موجة نوم داهمتني من جديد.. نمت ما يقارب الساعة في الماء مترجرجا كالغريق.. قطفت زهرة السعادة من بستان الاسترخاء التام، أعرف أنها ستزول بحلول الساعات القادمة.

خرجت بعد أن عمّت السكينة روحي.. استلقيت على الفراش ورحت أقلّب القنوات الفضائية وحاولت التعرّف على تاريخ يومي الحالي، لم أفلح. اتصلت بالاستعلامات مستفسرا عن يوم الأسبوع.. تبّين أذن أنه يوم الاثنين.. هذا يعني أني نمتُ ليومين متتاليين، هذه الحبوب جيدة في مفعولها: "استمر عليها هي أفضل من حبات **السلطان/الخليفة** السابقة".

عصر هذا اليوم زارني شاب آخر جديد، نزلت بعد مكالمة عاجلة من الاستعلامات فوجدته ينتظرني متكئا على كاونتر استعلامات الفندق، شاب عراقي أنيق ووسيم جدا، سلّم عليّ بحرارة لينقل لي تحيات الدكتور ناعم، جلسنا في بهو الفندق، حاول الشاب تلبية ما أحتاجه من الطلبات اليومية، ثم قدّم لي دعوة لحضور سهرة خاصة في برنامج مُعد سلفا من طرف الجماعة، وعندما ذكر لي

كلمة "الجماعة" أدركت أنها لعبة خطرة لا أحبّذ خوضها، فرفضت رفضا قاطعا، ذكر في معرض حديثه أنه حضر بتوصية من الدكتور ليلبّي طلبات ضيوفه.. لكني أيضا أصررتُ على الرفض مجددا.. ثم سألته عن أصيل، فقال أنه يعرفه، وعندما سألته عن مكانه أو رقم محموله، حاول بطريقة ملتوية التملّص من الإجابة للحصول على عنوانه أو رقمه. لكنه نقل لي رسالة شفوية مفادها أن الدكتور سيكون موجودا في بيروت خلال أيام قليلة جدا لاجتماع هام معنا وسيحضره أصيل حتما..

*

مرّت الأيام التالية ثقيلة مملة، لكني قتلت رتابتها بالتهام وجبة أخرى من الحبوب نفسها، في اليوم الرابع حانت لحظة الاجتماع مع الدكتور ناعم، هكذا أخبرني موظف استعلامات الفندق بمضمون رسالة مستلمة تخصّني من الدكتور.. مع سيارة تكسي مرسلة لي تنتظرني قبل الموعد بساعتين لتنطلق بي إلى فندق Intercontinentei Phoenicia (فايف ستار) في منطقة راقية جدا من بيروت لا أستطيع تحديد مكانها بالضبط..

كل الأطراف كانت حاضرة في الاجتماع، بالإضافة إلى شخص أجنبي لا أعرف بالضبط لماذا أحضره الدكتور معنا، وهو الذي يوصي بالسرية التامة، كان المكان عبارة عن سويت سياحي خاص، من المؤكد هو مكان نزول واستراحة الدكتور، في الزاوية البعيدة يجلس شخص آخر يبدو أنه لبناني عندما ردّ على تحيتي له.. الدكتور كان ناعما جدا أكثر من ذي قبل، يرتدي قميصا أزرق

فاتحا وربطة عنق حمراء، واضعا أمامه حزمة أوراق وأقلام وجهاز لابتوب.. ثمة شخص آخر يقوم على خدمة الدكتور وضيوفه..

سلمّت على الجميع وجلستُ بالقرب من أصيل وقد صافحني المسكين بقوة وعانقني بحرارة، وكان هاتف يوزع ابتسامات غامضة بين الجميع. لقد غيّر من شكله كثيرا بعد أن أزال لحيته وغيّر هيئته. هذا الرجل اللعوب "**توفي**" له قدرة على تغيير شكله حسب المنطقة والبيئة والفضاء، مرتديا (T شيرت) أسود وبنطلون جينز وحذاء رياضيا أبيض.. ساورتني شكوك كثيرة في حركاته الغريبة هذه والتي تزيد الانطباع لديّ في عدم الاطمئنان إليه بعد الآن، وفي لحظة تركيز وجدت نفسي سائرا في الطريق الصحيح. الدكتور تبيّن أنه الثعلب الماكر في القراءة الخلدونية وهاتف الكلب المطيع، لعبها لعبة خبيثة باتفاقات غير معلنة مع الدكتور ناعم، هذا ما تدل عليه همساته بأذنه بين حين وآخر، أما الدكتور فكان يهز رأسه موافقا على ما يقوله الصراف.. كان من المفروض منذ البدء الانتباه إلى حركات الصراف الصبيانية، لكن الحبوب جعلتني مسطولا طوال الوقت بل حرفت مسار تفكيري.. نعم أعترف بهذا. ربما ضعتُ وضيّعت أصيل معي في إدخاله شريكا معنا.. ربما سنتحول تدريجيا إلى ضحية هذا القرص الملعون.. كنت أنا السبب في "بهذلته" وما ينتظره، سيكون أكثر بؤسا في هذا المأزق الحرج..

رحّب بنا الدكتور آملا لنا طيب الإقامة في بيروت، وتمنّى علينا أن نستثمر الوقت في التسلية والجولات ونزهات الترفيه المُعدّة سلفا لنا. كانت شاشة قناة العراقية تبث جلسة محتدمة لمجلس النواب العراقي.. يبدو عليه القلق رغم لباقته وحماسته في الحديث، حيث كشف لنا عن حيثيات خطرة للغاية عن القرص جيم:

- إخوان بصراحة هذا القرص يحتوي على أسرار دولة مرعبة للغاية، وغالبا اللعب مع أسرار الدول الكبيرة هو الخطر الأعظم، هذه الدولة هي بلدنا كلنا. إن كشف أسرار العراق أو المتاجرة بها ستوفر بعض المبالغ للمتاجرين، لكن بالمقابل ستهتك أسرار بلد كامل وتعرضه إلى مشاكل اقتصادية خانقة خاصة بعد ضياع الموصل، بحيث تتوقف عجلة البناء والتطور.

نحن الآن نجتمع على تقرير مصير بلد من الناحية الاقتصادية، علينا أن نختار أحد طريقين. هذا الشخص كما ترون هو خبير مصارف إلكترونية من بولندا، أخذ عمولة كبيرة على كشف مادة القرص. والذي تبين أن بعض قنوات الإعلام كشفت المخطط المرسوم لسرقته، باتت قوات الأمن بكامل طواقمها تتابع خيوط تلك الجريمة الاقتصادية كما يسمونها، لكنه حذّر من المتاجرة فيه، ثم أن السلطات العراقية مستمرة في البحث عنه بعد تسرّب الخبر للصحافة كما أخبركم الأخ هاتف، وحاولت الاجتماع بكم هنا في بيروت للتحدّث بحرية أكبر بشأن ما تؤول إليه أمور القرص.

نعم كلنا نشترك في هذا القرص لكن بالمقابل علينا أن نتحمل المسؤولية الوطنية أيضا.. أقصد في السلب والإيجاب نتحمل الأعباء. هناك مشكلة ما زالت قائمة لغاية هذه الساعة، أن نظام المصارف العالمية وخاصة في التعاملات المصرفية الالكترونية تعمد إلى تغيير شفرات الدخول على

نظامها حفاظا على حسابات العملاء وسرية المخاطبات الالكترونية كل أسبوع تقريبا، والاختراق الالكتروني ليس طريقا سالكا في أغلب الأحيان. كذلك برزت لدينا مشكلة قائمة لغاية الآن، هي في المفتاح السري الأخير للملف الأهم داخل القرص، لم يُكسر لحد الآن وبحاجة إلى مزيد من الوقت.. وهناك ملاحظة مهمة أن القرص يحتاج مني شخصيا كل يوم في تغيير الأرقام السرية زيادة في الأمان، فالمفتاح بيدي ولا أحد يستطيع السيطرة عليه غيري، وبصراحة لا فائدة من نسخه نسخا إضافية.

على العموم هناك طريقان فقط لا غيرهما أمامنا.. الطريق الأول وهو **الطريق الوطني**.. يتمثل بفض الشراكة وإنهاء العقد المبرم بيننا وتسليم القرص إلى السلطات المختصة مقابل ضمان خطي بعدم المساءلة القانونية والملاحقة من قبل السلطات العراقية. صاحبة القرار ستجيز لنا مجتمعين فتح مصرف استثمار أهلي لبيع العملات مجازا ومدعوما من السلطات العراقية والبنك المركزي، من خلاله نستطيع بيع وشراء العملات في صفقات مدعومة، بما فيها استثمار مبلغ المكافأة، كل هذه الإغراءات قدمتها لجنة البحث والتقصي عن القرص..

أما الطريق الثاني وهو **الطريق التجاري** المختلف المتمثل في بيع القرص على أحد الأشخاص وهو يتصرف به بطريقته، أما أن يكمل مشوار الاختراق والقرصنة أو يتاجر به بطريقته. هذا الشخص موجود وحاضر بيننا وهو رجل

"**بيزنس مان**" من الطراز العالمي لا يمكن أن يتسبب لنا بمشاكل جانبية وهو لبناني وتاجر مصرفي كبير ومعه هذا الرجل الأجنبي خبير المصارف الإليكترونية.. بالنسبة لي أنا أوافق على ما تتفقون عليه أنتم من حيث التصويت الديمقراطي الحر أما الطريق الأول المسمّى الوطني أو الثاني المسمّى التجاري.. بصراحة لا مجال للاختلاف في الرأي والذي يسبب لنا ضياع مستقبلنا ومستقبل أولادنا جميعا، الطريق الذي نتفق عليه الآن هو الطريق المناسب لي. مع العلم أني أنصح كل أطراف القرص بالابتعاد عن بغداد هذه الأيام وهذا شرط ضروري.. سألته:

- دكتور كيف توصّلت لجنة التقصّي الأمنية إلى التعرّف علينا؟
- عزيزي أحدهم سرّب إلى الصحف خبر سرقة القرص، ربما كان هذا الشخص من مكتب المستشار الأول، وهذا هو الراجح عندي الآن.

بدت خيوط اللعبة تتضح شيئا فشيئا، ولكن ماذا نستطيع أنا وأصيل أن نفعل مع حيتان بدت ضخمة ومتمرّسة، لم يدر في خلدي يوما أن يكون هاتف الصراف بهذه الخسّة والضعة، تبين أنه يرتبط مع هذا الثعلب المسمّى دكتور ناعم ارتباطا عميقا.. ناعم هذا محسوب على جهة إسلامية متنفّذة بصناعة القرار والحكم، وقد لعب على أكثر من خيار بين الأحزاب.. للأسف أصبحنا ضحية بيد ثعلب متمرس وكلب غادر بحاجة إلى كيّ مؤخرته ليستريح. كان علينا اليوم بل هذه الساعة إنهاء اللعبة والذهاب بعدها إلى كندا أو العودة إلى بغداد. قلت مقاطعا:

- دكتور سأختصر الطريق عليكم. بالنسبة لي، أجد أن الطريق الثاني هو الأسلم، ولعنة الله على حركة البناء والتطور والأعمار، ربما سيؤدي الطريق الوطني - حسب قولك - بالقرص إلى جماعة أخرى للمتاجرة به. أنا أكره شعارات الوطنية التافهة وكنت دائما ما أرسب في درس الوطنية.
- إذن هذا الأخ الحاضر معنا سيشتري القرص.
- وهو الذي يتصرف به على معرفته. وأعتقد أن أصيل يوافق على هذه الخطة.. ولنترك الطريق الوطني جانبا لأنه غير سالك هذه الأيام يا دكتور..

سادت موجة من الضحك والقهقهة عمّت المكان. قال الدكتور بعد أن عاد للتهامس مع **الكلب توفي**:

- إذن أنتم تختارون طريق البيع، وأنا موافق على مضض.. هذا الرجل يقدم لكل طرف من الأطراف (50) ألف دولار لا غيرها، أما الأخ الأجنبي وقد عمل جاهدا على كسر مجموعة الشفرات وسيواصل عمله لكسر الشفرة الأخيرة، سيأخذ حصة مثلنا كشريك خامس، يعني يقسم المبلغ على خمسة، باختصار الرجل يشتري القرص بـ (250) ألف دولار نقدا.. طبعا هذا المبلغ جاء بعد عدة جولات من المفاوضات المضنية التي أجريتها مع الرجل، والسيد هاتف كان مطلعا على بعض جولات التفاوض المضنية.. طبعا الصكوك الآن تستلموها لكن موعد صرفها سيكون بعد مضي ستين يوما بالاتفاق معه لضرورات

يجدها مناسبة. إذن على بركة الله ومبارك لكل الأطـــراف هذه الصفقة.. قاطعته قبل نهاية الجلسة:

- لكن دكتور يقولون إن عجلة التطور الوطنية مثقوبة؟
- هههههه وما أدراك أن هذا الرجل ربما يكون مفوضا من الحكومة العراقية لاسترداد القرص. لا تقترب مـــن الهـــم السياسي يا سلام. خذ حصتك وأرحل إلى كندا.
- بالنسبة لي أنا أعتبر أن هذا المبلغ هو بعـــض مـــن حقـــوقي المهدورة منذ سنين، أنت توصفها بخدمة جهاديـــة مباركـــة ومشروعة. وأنا أعرّفها استحقاقا. لديّ طلب أخير دكتور..
- تفضل سلام.
- دكتور أبيع الصك الآجل ب"الكاش موني"، حاجتي كبيرة للمال الآن.
- اشتريه منك لحسابـــي بطريقة المرابحة التجارية.. عن كل يوم تأخير (200) دولار. وبما أن موعد الصك ســـيتأخر ســـتين يوما.. ستكون نسبة الاستقطاع اثني عشر ألـــف دولار.. إذا كنت موافقا سيسلمك المحاسب مبلغك المتبقي غدا.
- خلاص موافق.

الدكتور ناعم بان على حقيقته، عندما لعب لعبته المُحكمة والتي اعدّ لها إعدادا مسبقا، عاد القرص لأهله، بعدما بان ســـر الارتبـــاط الخفي بينه وبين هاتف الصراف، لم أكن مغفلا كما يتصور الدكتور والصراف.

***

# 20

## أم محمد

### 6 تشرين الأول:

تبدّدت الأحلام في رأسي، مثلما تتبدّد غيـوم شـهر أيلـول الخجولة وحلول غيوم تشرينية ضاحكة وصلفة، وهي تُرسم بأصابع طفل صفحة سماء بعيدة على كراسة الرسم الممزقة. أصبحت الثـروة في متناول اليد وماذا بعد؟. الثروة الحلم تحولـت إلى مبلـغ صـغير متهافت في جيبـي، مرة أخرى أكتشف مقدار تفـاهتي لأزيـد في مقت نفسي. مسكتُ عصا رفيعة وبدأت أضرب على مؤخرتي بقوة. ماذا فعلت بنفسك يا ابن الوافي؟ أما تستحي الآن مـن وجهـك في المرآة؟ تف عليك.

- لكن هذا المبلغ هو استحقاقنا من هذا البلد الذي أضرَّ بنـا كثيرا. وهو كافٍ لعلاج العقيد على الأقل.. لـن نتقبّـل التقريع بعد الآن.. بلدنا الآخر كندا سيحضنني من جديـد ويقّبل أيدينا.. لا، لست نادما أنت ولا أنا على ما فعلـه الدكتور معنا تماما.. القرص جيم إن لم يكن معنا سـيكون لغيرنا حتما.. فهو لقية نادرة وكنز مخبوء وجدناه وكفى..

كانت الخطوة اللاحقة أن نجتمع مرة أخرى، أنا وأصيل لننـــزل في فندق بسيط بعيدا عن أعين هاتف وأعوان الدكتور.

باع أصيل صكّه بالنقد الفوري أيضا، حيث قبض من محاســـب الدكتور (38) ألف دولار في اليوم التالي.. كان من الضروري ترتيب الأوراق من جديد. حيث قسمّنا ثروتنا البسيطة على مصرفين لبنانيين للضرورات الاحتياطية.. وخيّرت أصيل أما بالسفر معي إلى كندا بعد انتهاء علاج غسان أو السفر قبلي بعد حصوله على الفيزا الكنديـــة. لكن أصيل فضّل البقاء معي حتى إكمال كافة أعمالي، خاصـــة وأني فكرت بعدم العودة مطلقا لذلك الجحيم البغـــدادي المتـــدفق علـــى الدوام. ما نفع الثروة والأرض تحترق من حولي. بعد أن رفضت نادية الحلي رفضا قاطعا العودة لكندا في كل الأحوال، لكنها لم تجرؤ على طلب الطلاق الرسمي، ولم استطع قولها في المحمول لها، ربما ســـتفكر مليا وتغيير قرارها.

كان هدفي منصبّا في معالجة أخي غسان، الهدف الأسمـــى لي في حياتي كلها، غسان هذا الكائن الذي يمثّـــل لي عنـــاوين مهمـــة في خارطة تاريخ الحياة المثالية.

من السهولة في العراق أن تتحول إلى رجل أعمال أو من ذوي الثروات الطائلة، لكن من الصعوبة أن تحافظ على خيط إنسانيتك قبل القطع في خضم بلد كل خيوطه ملتبسة. كل ما في البلد يدفع نحـــو طعن الإنسانية والوطنية في الصميم ولا احد يكترث لذلك.. عـــادي جدا مثلما يقول "أبو العوف" العظيم. وبالعكس أيضا فلـــيس مـــن المستغرب إفلاس الأثرياء أو قتلهم أو جنونهم. غسان نمـــوذج فريـــد ومختلف في حبه المثالي للعراق بطريقته الكلاسيكية التي جلبـــت لـــه

الويلات، قيمه البالية ما زال مصرا عليها، أتصوره النموذج البائـــد الذي يصلح للمتاحف أكثر من العيش في بغداد تحت هذه الظروف، لكني بالمقابل أحترم وجهة نظره التي تمنيتها لنفسي.

اتصلت مرة أخرى بزوجته، وأخبرتها أن كل مصاريف السـفر والعلاج مدفوعة من منظمة عالمية تعنى **بضحايا سـقوط الموصـل.** كذّبت عليها حتى لا تتعرّف على وضعي الاقتصادي الجديد، كلمتها عن دكتور أمريكي يدعى "لويس" يدرّس العلوم النفسية وحـالات الذهان صباحا في الجامعة الأمريكية في بيروت، وفي المساء يذهب إلى مصحة المعالجات النفسية يقدم فيها الاستشارات اللازمة للمرضـى بجلسات معالجة نفسية أخرى للتأهيل الطبيعي.. دكتور لويس شهير هنا في بيروت، مستشار الأمراض النفسـية واضـطرابات العصـر المستحدثة.

شكرتني كثيرا على اهتمامي بزوجها، كذلك أخبرتني أن حالته ازدادتترديا، ولا منفعة تذكر في كل العلاجات إلاّ المهدّئة منـها والتي بفضلها ينام لأربع ساعات من الليل فقط. فجرا يجلس في غرفة الاستقبال التي يتصورها قبره، ويقفلها عليه من الداخل، يبدأ مشوار يومه بالنحيب والبكاء أيضا من دون كلام أو صوت عال.. وبـين كل نوبة وأخرى يستريح قليلا ليشرب حزمة من السجائر.. يتصور نفسه ميتا وما نحن إلاّ مجموعة ميتين بقربه، حتى العلاج أصبح يأخذه مذابا في الماء.

هذه المكالمة جعلتني أنزل من الفندق وأبدا مشوار البحث عـن هذا الدكتور في أرجاء بيروت، حتى حصلت على عنوانـه مقابـل خمسين دولارا دفعتها كأجور نقل لسائق تكسي يدعى صباح، رجل

جبلي مسيحي بشوارب كثة، يعرف دهاليز ودروب بيروت كلها.. تستهويني طبيعته الجبلية في الحديث ونسج الحكايات حتى البذاءة التي يلوكها لسانه كانت بطريقة فكاهية متهكّمة..

في الأثناء بدأت "أم محمد" بإصدار جوازي سفر لهما، على أمل أن أكون بانتظارهما في المطار في اليوم والساعة المحدّدين. كذلك أخبرتها أن تصطحب معها العلاجات والفحوصات الدماغية الأخرى، مؤكدا لها أن المنظمة تنتظرهما على باب مطار الحريري. الأمر الذي شجعها كثيرا للإسراع في رحلة العلاج الخارجية هذه، بينما كنت أنتظر قدومهما إلى بيروت، كنا نمضي الوقت أنا وأصيل في التجوال وممارسة بذخ الحياة المترفة والتمتع بالثروة المتواضعة. الثروة الحلم التي تخيلتها في بعض الأحيان تصل إلى ملايين الدولارات.. وبفضل هاتف ودكتور ناعم تبخّرت وأصبحت بضعة آلاف من الدولارات فقط.

كنت مع أصيل من الصباح حتى المساء نجوب الشوارع والحانات والمقاهي، لا نكاد ننفصل طوال اليوم، حتى انغمس أصيل في اللذائذ الليلية وترك التديّن، خاصة عندما وضع يده على ملمس الدولارات المغري. بالنسبة لي كنت حذرا من الإسراف والتمادي في السهر مع حسناوات الليل في حانات بيروت ونواديها الليلة المتنوعة، في الأقل يجب عليّ أن أحتفظ بمبلغ وافٍ لعلاج العقيد.

كنت في كل يوم أقدم النصح لأصيل من الوقوع في فخاخ المحتالين، وهو يجوب الأمكنة السرية في الحانات والفنادق بحثا عن النساء.. على الأقل عليه أن يحافظ على مبلغ يكفيه للسفر إلى كندا:

– أصيل عزيزي، دير بالك على نفسك من الممارسات الليلية. الأمراض تبدأ ولا تنتهي. أنت في باريس الشرق.

وغنج النساء وطعم أنوثتهنَّ الشهي يذيب الرجال، والإغراءات هنا كثيرة. للأنوثة هنا معنى حقيقي لم تألفه نسوة بغداد، أنوثة مائعة تستقطب بمغناطيسها السحري الرجال، فلا تنجرف خلف روائح تتبخر مع أول لقاء.

- لازم سليمة حنظل اتصلت بك وأوصتك عليّ.
- بنفسي أن تنطق كلمة أمي. أصيل أنت صديقي رغم فارق السن بيننا، هي أمك الحقيقية التي نذرت كل حياتها لبلوغ لحظة اللقاء المرتقب بك، منذ هذه اللحظة لا تنطق كلمة. سليمة أمامي. هذه المرأة عظيمة بكل معنى الكلمة. فقط تصور الأيام التي مرّت بها في قطر وهي تنتحل شخصية غير شخصيتها، مرغمة ومجبرة على ممارسة عمل يخالف شريعتها.

ثم رحت أسرد له تفصيلات جديدة من رحلة العذاب التي رافقت حياة سليمة حنظل سواء في بغداد أم في المدن الأخرى قبل استقرارها النهائي في ادمنتون الكندية.

لم يطّلع أصيل على الجانب الخفي من شخصيتي، لم يتعرّف بعد على حياتي الخاصة والسرية سواء في البلع والتعاطي. لم يكتشف الرجل ذا الشخصيتين المتناقضتين بعد.. الأول تافه جدا بأحلام القطط الجائعة، والآخر شاعر فاشل تحول إلى صحفي متجول يتصيّد الفرص في البلدان الساخنة لينتصر على الآخر داخله.. بعضه من رجل مدمن، وبعضه الآخر ضائع في تيه واسع يبحث عن عناوين لنجاح مرتجى. الاثنان حرصا على عدم فضح الأسرار كلها أمام أصيل ضمنها برنامج التعاطي للمنوّمات، في حين أن تعاطي الأقراص

المنومة لم يكن علنيا، يحتاج إلى سرية تامة تلافيا للأسئلة اللجوجة، حتى أن أصيل كان يتصور هذا الخدر في جسدي وحركات يدي ولساني هو الجزء المضمر من "**شخصيتنا**".

أما نادية الحلي زوجتي فلم تعرف شيئا عن إدماني وهوسي في هذا النوع من التعاطي.. كل مرة أحاول فيها الامتناع عن تعاطي الحبوب، أعود وأخلف كل أنواع الالتزامات أمام نفسي المنشطرة بين الرافض الكلي لها والشطر الآخر الذي يباغت الأول ليلتهم له قرصا "سويديا" فاعلا يعيد الأمور إلى نصابها المرتقب. هذه الوصفة من هذا النوع تخبرني أنها تعطى للأشخاص الذين يحجزون في مشافي معالجة إدمان المخدرات.

*

وصلت "**أم محمد**" إلى بيروت في هذه الساعة، لمحتها عن بعد تجرجر خلفها هيكلا آدميا متداعيا كلوحة لوجه أفريقي متداعٍ، تدفقت دموعي اللعينة من دون سيطرة عليها في لحظة يتوجب عليّ التماسك فيها. بودي أن أتماسك في تلك الساعة ولا أظهر ضعفي أمام أصيل وزوجته. نزلت دموعي حين شاهدتُ غسان، بعد هذا الغياب وبهذا المنظر المرعب والمثير للشفقة، كمجنون رسمي بملابس متواضعة بقميص جديد أبيض عريض جدا وما زالت طياته تفضح جِدّته مع بنطلون رمادي غامق من غير حزام. كان عبارة عن مشروع لهيكل عظمي متداعٍ.

سارا في ممر انتظار الوافدين في مطار الحريري وهي تجرجره بقوة، رغم أنه يحاول الإفلات منها في اتجاه معاكس. تذكرته في

بغداد عندما أجبرته للذهاب إلى الطبيب، أمسك بيده بقوة خوفا من إفلاته ويعمل لي فضيحة أمام الناس، يحاول التملّص من يدي كلما ضغطت على يده التي تمسك السيجارة. اقتربا كثيرا مني، لم تتعرف زوجته عليّ، أما هو فكان يبحث في جيوبه عن علبة سجائره، لحيته الشعثاء شائبة وقد طالت كثيرا وغزاها بياض مصفر. بلعتُ ريقي وثمة غصّة متكسرة لا تغادرني، طفرت فجأة من عيني دمعة منفلتة أخرى مسحتها على عجل، لا أستطيع مناداتهما فتظهر بحّة البكاء بصوتي المتكسر..

انهالت عليّ في لحظة خاطفة عشرات من صور متناثرة من حياة غسان.. الرياضي والتلميذ المجتهد والعسكري المنضبط، بعنفوان الشباب والإقدام والالتزام والطيبة والأخلاق التي كنت أنا بعيدا عنها أصلا. كان مثالا مرسوما بدقة مثلما تبتغيه السلطة لمواطن غير منفلت.. السلطات دائما على وفاق مع نموذج غسان الملتزم والمطيع، كل تلك الصفات تبخّرت في تلك اللحظة. ماذا فعلت بغداد بهؤلاء النخبة من الأبناء النُجب الذين لا يتكررون مطلقا ما بعد الموصل؟

مرّا أمامي و لم يتعرفا على "سلام الوافي" أشحتُ بوجهي جانبا عنهما.. كان أصيل واقفا بقربي لكنه لم يتعرف أيضا على غسان وزوجته. تركتهما يمران ثم تبعتهما حتى أستطيع السيطرة على دموعي. بالقرب من كاونتر ضابط الجوازات الذي أنجز الختومات المطلوبة بسرعة، أومأتُ لها بيدي فابتسمت وأشارت بيدها الممسكة بالجوازين. تقربت منهما لأسلّم عليها.. التفتُ إلى غسان وسلّمت عليه بالإشارة، لكن الشيء نفسه يحدث، ولا يزال مصرا على الصمت الأبدي.

- شلونك أخويه غسان
- ....................
- يمعود الخاطر الله شلونك.. أكيد تريد تشرب سجائر.. انتظر لنخرج من الصالة وفي الكافتريا الخارجية هناك قاعة للمدخنين وسأشرب سيجارتي معك.. هذا أصيل عراقي من بغداد صديقي جدا.
- أهلا وسهلا.. قالت له أم محمد.
- أهلا أم محمد.. خو ما تعبت من السفر؟
- لا والله تعبني أبو محمد وضعيته بدت تتعقّد يوما بعد يوم. في الأثناء تحرك أصيل ليأخذ حيزه ويصافح غسان، لكن يده بقيت ممدودة من دون أن يحرك غسان يده له، حتى تدارك الأمر بالكلام ويسحب يده تدريجيا:
- سلام صديقي الوحيد، وحكى لي كثيرا عن وضعية غسان، إن شاء الله سيعالجه الدكتور الأمريكي لويس.. رجل شهير وخبرة عظيمة.

أم محمد "**خديجة عبد الوهاب محيي البياتي**" هكذا مكتوب في جوازها، أول مرة أعرف اسمها، هي زوجة أخي والكل يناديها أم محمد، تركت ابنها في البيت مع أخته، ومحمد الابن الوحيد لهما، الذي بلغ من العمر (17) عاما، لقد بانت على الفتى علامات الحزن والقلق لوضعية أبيه المقلقة. أخبرتني أمه أنه بعد مرض غسان لازم البيت ولا يخرج إلا قليلا، ليتخلص من إلحاح أصحابه من فتيان المحلة أو المدرسة. كان يلوذ في غرفته لساعات طويلة من دون أن يفصح عما في داخله. أما البنت **هدى** المسكينة فقد كانت أكثر قلقا على

أبيها.. خائفة عليه أكثر من خوفها على مستقبلها الدراسي بعد أن تركت المدرسة.

- لا أريد شيئا من هذه الحياة التافهة، إلا شفاء غسان، ليس لي غيره في الدنيا، لا أب ولا أم، هو كل شيء لي، أين أذهب بعده؟ هل أعود إلى كركوك مجددا؟ أم أبقى هكذا لا أعرف مصيره ومصير أولادي؟

اخترقتها الأحزان المتراكمة دفعة واحدة، وراحت تهتم بغسان، أكثر من اهتمامها بنفسها، حتى جفّت مثل تينة وضعت تحت الشمس العراقية. صدرها ذبل وعينيها أحاطهما سواد الأحزان، هملت مظهرها الخارجي، وكأنها ليست من النساء. كانت وفيّة له فعلا. قدّمت لي باقة من آيات الشكر والعرفان لاهتمامي بغسان، قدمت كذلك شكرها للمنظمة الوهمية التي ابتدعتها ووافر امتنانها.

* * *

# 21

# دكتور لويس

## 14 تشرين الأول. بيروت:

لم يكن موعد الدكتور لويس موعدا تقليديا في جدولة المواعيد المعتادة لدى الأطباء.. حيث كتب في ورقة الحجز الطبي وقت حضور المريض بالساعة والدقيقة.. الثامنة والنصف مساء يوم الثلاثاء (يرجى الالتزام في الموعد المحدد). "صباح" اللبناني الجبلي سائقي الخاص سيتكفل بإيصالنا إلى مكان العيادة. كان هذا الجبلي بمثابة عرّابنا في كل التفاصيل والأمكنة البيروتية بالإضافة إلى التنقل بسيارته المارسيدس القديمة.

وصلنا فعلا في الموعد المحدد وكانت بانتظارنا شابة لبنانية غاية في الرقة والرشاقة، أراقبها بحذر ومتمنيا أكلها كفاكهة محرمة طرية وطازجة. كانت تسير أمامنا مثل فراشة الحدائق التي لا تُمس مطلقا. كنت خائفا عليها من الخدوش الأرضية ربما تعرضها للكسر والذوبان حتى من الهواء الذي يلامسها.

هذا النوع من النساء هو حتما من **النوع السماوي** المقدس المذكور في كتب التراث العالمي، لكن هناك قصدية غيبية في زراعة هذه النماذج على الأرض لتطعيم وتحلية نكهة الحياة المرة وكسر حدّة

وحشتها.. لا أحب لها أن تتكلم فالكلام يفسد سماويتها ويفسد ملائكيتها. غالبا ما يفسد الكلام طعم المرأة السماوية فتتحول إلى قريناتها الأرضيات.. السماوية نموذج خاص زُرِع في هذه الأرض، ليذكرنا دائما بعظمة خالقها، فهي تمتلك عصمتها الخاصة عن كل الفعاليات والغرائز البشرية، لا تأكل ولا تشرب ولا حتى..... لتثبت بذلك سماويتها. بدأت المقارنات بينها وبين نادية الحلبي عندما تنهض الأخيرة من الفراش بشعرها المنفوش وثرثرتها المرة في كل صباح.

تنبهت على شطح الأفكار في داخلي فهززت رأسي، يبدو أن هذه الحبوب السويدية تعمل على دغدغة الحواس وترطيب المخيلة المتصحرة أيضا. كنت أحسب نقرات قدميها على البلاطات فتضرب إيقاعاتها في قلبي، حتى أوصلتنا القديسة السماوية عبر الممرات البيض الصقيلة إلى غرفة الدكتور لويس.. بقي أصيل وأم محمد في غرفة الانتظار ودخلت أنا مع غسان.. كنت قد أنهيت نهارا كاملا في تشذيب لحيته وحلاقة شعر رأسه وشعر عانته الكثّ مثلما أحلقت له شعر أبطيه الطويل، ونتفت شعيرات بيض انتصبت كغابة محروقة على شحمتي أذنيه وقمة أنفه ومنخريه..

أما دكتور لويس فهو رجل خمسيني طويل ونحيف جدا بوجه محمر، يتحدث باللهجة اللبنانية المتكسّرة رغم حضور المترجمة الملائكية في المكان نفسه.. يجلس الدكتور على كرسي دوار، وعندما تفلت الكلمات من قاموسه يلتفت إليها لتتبنى الترجمة بديلا عنه. ثمة شاشة زرقاء من قماش رقيق أمامنا وكرسي فارغ، أجلستُ عليه العقيد بالقوة فبدا متململا في كل لحظة يحاول النهوض. استمر الدكتور في أسئلة وفحوصات عينية مباشرة ما يقارب الساعة، طرح أسئلة بدت بعضها

غريبة وبعيدة بطبيعتها عن تخصصه، ثم قرّب مصباحا أحمر صغيرا من رأس غسان وراح يتحدث معه.. كان الحوار عن بغداد القديمة، حجارة الجبل الأصم تتحرك وغسان لا من حركة تدبّ منه في تلك الساعة الحرجة، سادرا في صمت رهيب، مبهورا في الضوء الأحمر، تارة يلاحقه بعينيه وتارة أخرى يحني رأسه إلى الأرض هاربا من شدة الاحمرار.

- عزيزي أخرجه "**آوت**". "وكم هير يو اكين" نتكلم شي كلمتين معاك.
- اوكي دكتور..

راح يشرح لي طريقة العلاج الوحيدة المتبقية بعد تفاقم "متلازمة الهزيمة".. إنه علاج الصدمة بالصدمة وليست هناك من علاجات أخرى. وكل انواع الحبوب تعمل عمل المهدئات المؤقتة.

- ماذا تعني دكتور؟ هل ندخله في حرب جديدة ليُهزم منها وتحدث الصدمة بالمماثلة الطبية؟؟

لم يفهم ما قلت مستفهما من ملاك الترجمة فترجمت له كلامي.. ضحك الدكتور ثم راح يشرح لي كيفية طريقة العلاج في الأسبوع القادم. وأوصى بالخروج إلى البحر وترك غسان يمارس السباحة والاستجمام مع تشديد الرقابة عليه وملاحظة التغييرات الطارئة على تغيير سلوكه. في نهاية الجلسة كتب له بعض الأقراص المهدئة من مشتقات "الموكاديين" لعلاج الكئبة الانفعالية وموصيا بتناولها بانتظام ودقّة المواعيد حتى موعد الجلسة القادمة.. كذلك أوصى بابتعاده في الفترة القادمة عن متابعة نشرات الأخبار وأية أخبار عراقية أخرى من ضمنها طبعا معاودة سماع خطاب الرئيس أو تفسير خطاب الخليفة للتخلص كليا من إدمان الخطابات.

***

# 22

## مَلاك

### 21 تشرين أول بيروت:

بعد مضي أسبوع من العلاج الجديد، حضرنا نحــن الأربعــة بسيارة السائق "صباح" إلى العيادة الاستشارية للدكتور لــويس، ولا من تحسّن ملحوظ على حالة غسان، رغم تطبيقنا الدقيق لتوصــيات الدكتور بالتنويع المطلوب في أمكنة تواجده، كذلك طبّقنا وصــيته الأخرى بإشاعة وطغيان اللون الأبيض في ملبسه وسريره وجــدران غرفته، التوصيات كلها باءت بالفشل، و لم يحرك حتى البحر شيئا في أعماق العقيد الحزين. و لم تحل زرقته وتقلباته عقدة من لسانه.

تعتبر هذه الجولة حاسمة من حيث العلاج، مثلما أخبرتنا الفتــاة الملائكية عندما حضرنا في الموعد المحدد للتوجــه الفــوري إلى رواق خلفي يؤدي إلى مركز معالجات الصدمات النفسية حيــث ينتظرنــا الدكتور.. نطقت مرة أمامنا فتساقطت الدرر من فمهــا محســوبة حساب البخيل، فأقسمت مع نفسي التعبانة.

كانت خائفا على هذه الملائكية من تنكسر أو تتبخر، لو كــان الأمر عائدا لي لوضعتها في قفص زجاجي مفرّغ ممــا هــو ارضــي

وواقعي. أنها لا تمارس مطلقا ما يمارسه البشر العاديون من الغرائز العادية، أظنها لا تأكل ولا تشرب مثلنا ولا تستخدم المراحيض كالبشر.. صوتها موسيقى منوّمة من دون العقاقير التي يوصي بها صديقي "أبو العوف":

"لا أبدا يا "أبا العوف" ليس عاديا جدا هذه المرة".

كنّا خائفين على مصير غسان في هذه الجولة العلاجية الخطرة، فقد كان واضحا من توصيات ملاك والدكتور، في الحضور بالموعد الدقيق والنوم الكافي والعميق لمريضنا المسكين.. هو الوحيد الذي لا يعرف أن أمرا ما يدبّر له، وعلاماته تدور من حوله في تلك الساعة. و لم تعد الحياة محض سيجارة ستنتهي بعد حين.

عندما دخلت على الدكتور بالموعد المحدد نهض من مكانه ليصافحني، وقد بدا متحمّسا في شروحات جانبية وجدها ضرورية للتعريف بمعالجة الصدمات النفسية، والتي قسّمها كما الحروق لثلاث درجات، لقد كانت وضعية غسان حسب تصنيفه من الدرجة الثالثة وهي الأصعب والأخطر، ثم راح يشرح خطة العلاج المرسومة لهذا اليوم:

- **عزيزي** قبل الشروع بتنفيذ خطة العلاج الحاسمة لهذا اليوم، فالصدمات ستة أنواع تتدرج على ثلاث فئات. صدمة بركانية قوية ذات عنصر مفاجأة غير متوقع. صدمة ممارسة أعمال العنف الدموية ومعايشة الحروب/صدمة الشعور بالفقدان والهزيمة/صدمة الخلل البايلوجي المصاحب للوقائع والاستثارة. ثم تندرج تحت اضطراب ما بعد الصدمة النفسية (PTSD). هذه تدخل في باب Trauma أي

عندكم في العربية ما يدعى بالجرح النفسي الغائر غير المندمل..

من المحتمل أن يشفى مريضكم بشكل نهائي، سنراقب بحذر حركة عينيه واستجابتهما (EMDR) أثناء الجلسة، وإن استجابتا ستمرّان الإشارة للعصب الدماغي المتوقف عن الاستثارة ليوم الصدمة الأولى للسقوط.. سينطق بمرور يوم واحد إلى سبعة أيام من لحظة الصدمة، هكذا أثبتت التجارب الميدانية.. وقد شفي من هذه المتلازمة الكثير من عساكر سوريين ولبنانيين وإيرانيين وعراقيين. في الحالة النادرة جدا بعدم الاستجابة لـ (**صدمة الصدمة**) و لم يعد للحياة الطبيعية وينطق خلال أسبوعين، فهذا يعني أن هناك مشكلة في تقبّلها، وسيبقى على حاله للأسف، لكن هناك نقطة يجب الالتفات إليها، هناك احتمال "ثلاثة بالمائة" فقط من أمثال غسان في تعاملهم مع الصدمة سيقدمون على إنهاء الحياة بطريقة ما. أوصي بالرقابة الكليّة عليه خلال تلك الفترة، وإن كنت موافقا على إجراء الصدمة للمريض وقّع لي على هذه الورقة، لنبدأ العلاج في الحال..

ثم أمرني بالخروج فاعترضت معلّلا اعتراضي بملازمة غسان أثناء الجلسة فهو بحاجة إلى من يمسكه. وافق على إبقائي في الداخل.. حيث قامت ملاك الملائكية مبعوثة السماء بفتح شاشة العرض البيضاء، ثم قامت تشغيل جهاز "الداتو شوو"، الذي أنار ببياضه السحري شاشة العرض وبعضا من فضاء القاعة، ثمة كلمات انكليزية مترادفة بدأت

تتراقص على الشاشة.. قال لي دكتور لويس:

- بالنسبة لك ما سيحدث لاحقا لا يحق لك التدخل فيه إلا بإشارة مني. فكل شيء محسوب بدقة.

بدأ عرض الفيديو بطقة من أصبعيه للملائكية التي لم تحجب الظلمة بياض وجهها النوراني.. بدأت المأساة بفيديو وثائقي لرعب جحيم عراقي عن يوم 2014/6/10 اليوم الذي سقطت فيه الموصل سقوطا مدويا. صوّر الفيديو صباح اليوم المشؤوم في أرجاء المدينة التي لم أزرها في حياتي.. كان المصور جالسا بجنب السائق وفي سيارة مدنية كما اتضحت بعض ملامحها، ينقل صور المدينة المتناثرة من خلال المرآة الجانبية، كانت الصور تترى بصور متلاحقة، تبدأ بتراكم سيارات عسكرية زرقاء في عرض الطريق وهمرات محترقة ونقاط عسكرية قد مزقتها القذائف، وعبث الوحوش البشرية بأشلائها، ملابس عسكرية متناثرة من بداية الجسر الرابع حتى الجسر الرئيس الرابط بين الساحلين وتجوال الكاميرا بينهما، وبين أزقتهما ومبنى المحافظة والفندق السياحي المنيف.. لكن لا أثر لغسان وفوجه العسكري المتدرّب في الفيديو حتى حدود المدينة الخارجية.. كنت أنظر لحركاته وتمطّيه وهو يحاول النهوض من كرسيه وثمة همهمات مكبوتة بدأت تنز من أعماقه.. غسان في كل لحظة يحاول النهوض وأجلِسه على الكرسي بقوة. الرعب العراقي المدفون في نفسه بدأ ينصهر وتخرج روائحه في صالة المركز المظلمة. ينتهي الفيديو ويبدأ عرض فيديو آخر يصوّر بعض اللقاءات مع الجنود المنسحبين يتحدثون بذعر عما حصل ويقذفون باللوم على كبار الضباط الذين هربوا ليلا وتركوا من تبقى من المراتب لملاقاة مصيرهم. ماذا حدث

بالضبط؟ منْ الذي أوعز بالسر لما حدث؟ لا إجابات قاطعة، حتى ما حدث بعد خطاب الرئيس.. وقد تعمّد الدكتور في عـــرض مقطـــع ملتبس منه، حيث صاحب المقطع حركات عنيفة من غسان وصراخ هستيري مرير.. أوعز دكتور لويس للملائكية بالتوقف حـــالا عـــن البث. والبدء بالمقطع الثالث الأكثر هدوءا مع تبديل مصدر الضوء في الزاوية المقابلة لغسان باللون الأزرق. كان المقطـــع أشـــبه بصـــور متلاحقة ترويحية لبندول يحمل كرة حمراء يتأرجح مع انهمار صـــوت موسيقى رقيقة. ثم استقر في منتصف المسافة الفاصلة بـــين الـــذهاب والمجيء.. في تلك اللحظة تتوقف حركة عينيه عن المتابعة، لتســـتقر خرزتا عينيه على البندول المتوقف عن الحركة.. فيشير الـــدكتور إلى ملاك بإبهامه علامة نجاح التجربة.. ولا شيء غير ذلك.

***

## 23

# الكلب المبلّل توفي

### 25 تشرين الأول بيروت:

ممدّدا كالعادة على فراشي أتأمل ما تبقى لي من أيام مبتورة من رزنامة الأيام المتكررة في حياة بائسة، في رحلتي من بغداد إلى بيروت، بانتظار العودة الأخيرة إلى كندا بعد أيام قليلة، عندما جاءت مكالمة هاتفية بعد منتصف الليل، حاولت معها جعل المحمول على "الوضع الصامت"، لأتخلص من المفاجآت الليلية المزعجة، بعد أن دَبّ دبيب "**السويديات الثلاث**" في رأسي. كنت في تلك مشرّع الأبواب والنوافذ مطلا على واحة الخيال، بعد يوم شاق من التجوال بصحبة غسان وأصيل وزوجة العقيد في الأسواق العامة. بدت النتائج تعطي ثمارها في تحسّن ملحوظ لحالة غسان وللمرة الأولى، بعد مرور أقل من أسبوعين على **صدمة الصدمة** العلاجية... بدأت الزوجة بالتهيئة للعودة إلى بغداد مع العقيد الذي نطق بغمغمة غير مفهومة لأول مرة بصوت منخفض..

- أين أنا؟
- في بيروت أخي غسان جئنا للنزهة والراحة.

- والموصل؟
- ....... ما بها؟
- همممممممم مستحيل. رأسي يؤلمني، مطارق تطرق فيه، بحاجة إلى حضن أمي الآن. آخخخخخخ.

الغريب في الأمر اكتشفت أنه كان على دراية لما يجري من حوله، احتضنني بقوة واضعا رأسه على كتفي، ثم راح يبكي وبدنه يهتز في بكاء مر وصامت:

- آه سلام، أنا تعبان جدا يا أخي، لا تلمني عما حدث، أرجوك.

ليس سوى الدموع تبلل كتفي، كان يعاني صعوبة بالغة في تذكّر الحوادث والأسماء والأماكن.. أحس بخجله أمام زوجته خديجة، لا يستطيع النظر إليها مباشرة، عندما سألها عن محمد وهدى والبيت.

- ليس الذنب ذنبي فيما حصل خديجة.

أكّد لنا دكتور لويس أنه وبالتدريج سيعود إلى سابق عهده، إذا لم يكن من عارض مفاجئ: "في الوقت الحاضر لا تذكّروه بانسحابه من الموصل، وما دار بعدها من أحداث درامية، كذلك أبعدوه عن النشرات الإخبارية العراقية والأحاديث العامة في الأسواق والمقاهي".

وميض المحمول أزعجني جدا. وقبل محاولة إغلاقه توقف سيل المكالمات، وبعد لحظة جاءت رسالة sms فصار لزاما عليّ أن أقرأ مضمونها على عجل.

تحققت المفاجأة، إذ كانت الرسالة مزعجة، قادمة من هاتف الصراف، توفي الكلب كما توقّعت ذلك:

***"هلو صديقي سلام أعذرك كثيرا لأنـك لم تتصـل بـي لانشغالك طبعا مع العقيد ومرضه.. وصلت إلى باريس قبل يومين، أفتحْ صفحتك في الفيس بوك، بعثتُ لك رسالة مهمة وضـرورية على الخاص، تحياتي.. أخوك هاتف الصراف"..***

ماذا يريد هذا الكلب المبلّل؟ بأي وجه سوف يقابلني؟ كيـف سيتحدث معي؟ إنها (صلافة العين غير المكسـورة) بعـدما بانـت خسّته، هذا الخنثي التافه لا يستحق حتى الرد عليه.. ختمه "أيـوب الأبتر" بختم تاريخي لأكثر من مرة، باعني الكلب بحفنة من دولارات، قيلت من قبل لا تتعامل مع المنيوك، كيـف لي أن أستحضـر روح أيوب الأبتر؟

تجتاحني موجة قلق عارمة لتبخر مفعول السويدية مـن رأسـي وجسدي، لا أدري.... ماذا يريد وجه البومة هذا؟

سأحاول فتح اللابتوب الآن.. بعد أن طلبتُ الـرقم السـري لمنظومة الانترنيت من استعلامات الفندق في هذه الساعة المتأخرة..

دخلت على حسابـي فوجدت صفحتي مغلقة تماما ليس بفعل إهمالها، بل بنسيان الرقم السرّي، حيث تركت التواصل من خـلال صفحتي منذ قدومي إلى بغداد. الصفحة لم تفتح بعد عدة محـاولات يائسة للتذكّر، هكذا خرّبت الحبوب السويدية ما تبقى من ذاكرتي، وذلك أفضل في كثير من الأحيان إلا في هذه الساعة، مما اضـطررت لإرسال رسالة من المحمول أخبره بما حدث بشأن الصفحة، ثم أجابني بضرورة فتح الإيميل فثمة رسالة تنتظرني." لا يا كلب يا ابـن سـتة عشر كلبا.. لديك أجوبة سريعة لكل شيء.. المناويك أذكياء سريعو البديهية، ماذا تريد؟ و لمَ هذا الملحّة الفجة؟".

كانت الرسالة بعد تحميلها ووضعها على سطح مكتب اللابتوب طويلة:

- أخي سلام الوافي: تحية طيبة.. أرجو أن تكون بخير وعسى أن تعيش حياتك بأجمل صورها في بيروت، ففيها دهاليز وأماكن غاية في الروعة.

**صديقي:**

بعد الجلسة الحاسمة مع دكتور ناعم والتي تمّ فيها فض الشراكة، ذهب كل منّا إلى حال سبيله، عملتُ بطريقتكما أنت وأصيل، فقد استلمت ب"النقد الكاش" حصتي من الدكتور، فهي أفضل من الانتظار لستين يوما، وقبل سفري عملت صفقة هامة مع بعض الشباب المؤيدين للدفاع عن حقوق المثليين في لبنان، والمفاجئة كانت في الحراك والثقافات القديمة ومعرفتهم بغايات الجسد وحريته ورفع تابوات الأخلاق والقدسية والممنوعات عنه، أخلاق الموقف والمبدأ وتحقيق الطموحات أهم بكثير.

طرتُ بعدها مباشرة إلى باريس في أول طيارة مغادرة من بيروت. مكث دكتور ناعم لقضاء بعض الأعمال الخاصة به في برنامج حافل لاستقبال رجال أعمال من شتى الأصناف، وقام بزيارات مترادفة لشخصيات المجتمع اللبناني والجنوبي خاصة في مقر إقامته.

علمت من مصادري الموثقة ومن أحد رجاله المقربين ما يلي:

إن دكتور ناعم وبعد أسبوع فقط لم يعد إلى بغداد كما كان يعلن ويصرح للمقربين منه، بل سافر إلى عدة دول أجنبية بإيفاد

رسمي من الحكومة العراقية، ومن ذات المصدر علمت أنه عقد عـدة جولات من التفاوض ومع جهات نافذة في مصارف عالمية للمتاجرة بالقرص جيم بطريقة احترافية، وهذا من حقه فنحن قبلنا بهذا الأمـر و لم يفرضه علينا، لكن القضية تكمن في ما يأتي:

يوما ما أثناء تواجدي في قصره ببغداد، طلب دكتور ناعم مني تصوير هوية الأحوال المدنية وصفحة الجواز الأولى لضرورات أمنيـة لتسهيل دخولي وخروجي للمنطقة الخضراء. وعدني أنه يعمل جاهدا لإعدادي بتسلّم مسؤولية ما داخل المنطقة الخضراء وفي ديوان رئاسة الجمهورية تحديدا، تبيّن فيما بعد أن طواقمه السرية المتوحشة أنجزت بسرعة قياسية باسمي معاملة العائد من الهجرة (**هاتف برهان عزيز**)، مع استلام الحقوق المادية المترتبة عليها كافة.

إن المبالغ التي حازها من حقوقي المهدورة كانت جيدة كمـا علمت، حتى وصلت به النذالة إلى بيـع قطعـة الأرض للموظـف المختص نفسه في دائرة الهجرة والمهجرين، ومـن دون الحاجـة إلى مراجعات إضافية وبوقت قياسي، تلك واحدة من طرق دكتور ناعم في حسم الأمور، كان المبلغ المتحقق أضخم من كل المبالغ التي دفعها لنا في بيروت.. حقوقي التي تاجر فيها من دون علمي بل واستغفالي بطريقة حقيرة.

ناعم هذا مجرم وفاسد بحق البشرية يا سلام.. ليس له علاقة في الدين سوى مظهره وطريقة كلامه وسياسته الخبيثة، فعلا هو ذئـب متوحش متنكر بلباس الدين والبراءة، يعمل في حقل محفوف بالمخاطر من حقول السياسة والاقتصاد العراقيين، أما أنتما أقصد أصيل وأنت فيترتّب عليكما مساعدتي بإرجاع حقوقي في قطعة الأرض. المبـالغ

التي استحوذتما عليها هي بعض من حقوقي وأكتفي بإعادة نصفها لي، هذه حقوق يا صديقي، ومن جانب آخر أطلب رأيك ونصيحتك بشأن رفع دعوة قضائية على الدكتور للمطالبة بحقوقي.. أريدك شاهدا أمام المحاكم يا صديقي. وأتنازل لكما عن حقي الذي قبضتماه، ماذا تقول؟ ماذا تشير عليّ؟ ماذا أفعل؟ انتظر ردك.

**هاتف**

ماذا تفعل يا هاتف الكلب!؟ تستحق والله أكثر من هذا. هل نسيت حركاتك في الاجتماع الأخير مع الذئب الناعم الكبير؟ كنت منبطحا أمامه بطريقة مذلة.. كلكم كلاب،، لن أردّ عليك مطلقا.. ثم ماذا تفعل له وهو يستطيع بلحظة من نسف حياتك وحياة أجدادك كلها. احترم نفسك وأبلع الخازوق وصمًّ ثقب مؤخرتك المنخورة والتي حوّلها الأبتر غلى كراج. إن كان كلامك صحيحا، باشر عملك في الجمعية المثلية المرتقبة.. فهي حقلك المريح ومستقبلك فيها مضمون، هل تذكر المسبحة واللحية والحركات التي عملتها عند وصولك إلى بغداد؟ أما الحقوق فهي تحتاج إلى رجال، وأشك أنك أحدهم أيها الخنثي المتلوّن.. "قُمْ به – مثلما يقول أبو العوف"، أفضل لك من إقامة الدعوة لاسترداد حقوقك.

لا أستطيع إرسال هذه الرسالة له، خوفا على مستقبلي مع الوكالة. طز.

*

## 27 تشرين أول:

في هذا اليوم سافر أخي غسان عائدا إلى بغـداد، ودّعتـه إلى مطار الحريري. كانت علامات الراحة النسبية بدت واضحة علـى وجهه، رغم الجرح الغائر في نفسه لفقدان مدينة الموصل، وقد تعـوّد في اليومين الأخيرين على ممارسة شؤونه الشخصية بنفسـه للمـرة الأولى، فقد عاد للاستحمام بمفرده وحلاقة لحيتـه ورش الكولونيـا على خديّه الذابلين، وارتداء ملابسه بشكل طبيعي.. يقـوم بكـيّ ملابسه قبل خروجه متمعنا بمنظره في المرآة لأكثر من مرة، ثم يسـير في الأماكن العامة في "شارع الحمرا" من دون الحاجـة إلى مسـك ذراعه.. عاد الهدوء النسبـي إلى حياته من جديد، فرحـت بحـذر شديد للتقدم النسبـي في علاجه متمنيا عودته للحيـاة الطبيعيـة، رغم الاستمرار المكثف لتعاطي العلاجـات المصـاحبة في أوقاتهـا. لا يتكلم إلاّ عند الضرورة القصوى، واضـعا زمنـا طـويلا مـن الفواصل بين الإجابة والسؤال، وبعض الأسئلة لا يجيب عليها مطلقا، يحاول تجاوزها بالضغط على جفنيًّ عينيه. وعندما استدرجته قلـيلا عما حدث في يوم الانسحاب المشؤوم، متجاوزا نصـائح دكتـور لويس، أطرق إلى الأرض لفترة من الزمن، ثم رفع رأسه وقد تغـيرت سحنته، دمدم بصوت خفيض: "خريطة البلـد أصـبحت مبتـورة الذراع، مثل معاق يخجل من عوقه. الموصل بنت باكر لا تستحق ما جرى لها من اغتصاب.. للأسف"، حينها بكى بصوت متقطّع حـتى سقطت دمعته اليتيمة لتبلل شواربه، لم يمسحها فقد نسـي منديلـه هناك في بدلته العسكرية، ثم سالت على رقبته حتى وصلت متعرّجـة إلى الأرض..

لوّحت له بيدي ثم أدرتُ ظهري عائدا إلى الفندق.. أعدّ نفسي أيضا للسفر، مقتنعا بما أنجزته له.. أشعر للمرة الأولى بأنني تحررت من الأنانية التي لازمتني طوال حياتي.. اشعر بعودة المياه إلى تراب إنسانيتي القاحلة.. أصبحت الآن مختلفا كثيرا عن هذا المثلي بن المثلي هاتف الصراف.. لقد فعلتُ شيئا مقنعا للبشرية وقد اتفقنا عليه "نحن السلامين" بالإجماع الكلي..

الآن لم يتبق لي في بيروت إلا السفر نحو مسقط الأحلام الجميلة أدمنتون المدينة-الفتاة الكندية اليافعة.. مدينة شقراء يافعة وبريئة وحديثة حتى بالسلوكيات العامة، هناك الناس الذين اشتقت إليهم بصدق، سليمة حنظل امرأة الخيال الملبّد بالحلم الجميل، وسالي البراءة والرقة التي سيصطحبها أصيل يوما ما نحو حلمها المؤجل لزيارة بغداد، جاري الباكستاني العجوز" جاد الله" الذي يحب **أكل الجزر** يوميا وبشراهة، عندما يصحو من نوبة النوم الطويل

هناك حيث الراحة التامة مع أنواع مختلفة لأشرطة الأقراص المنومة، وأمور أخرى اشتقت إليها.. سوف أنسى جرح الموصل، أنسى جعجعة الحرب.. سأعمل جادا هذه المرة على الاغتسال والتطهر مما علق بذاكرتي.. نسيان الأحداث التي جرت لي أو نسفها تماما، سأعيش ما تبقى لي من حياتي من دون ذاكرة أو تاريخ أو ماضٍ، كل تلك السخافات هي من وحي عراقيتي الجريحة. الماضي جرح سيندمل بكل ما تنتجه المعامل الطبية من حبوب منوّمة.. أين أنت يا "جاد الله"؟؟ أنت الوحيد الذي يلخص معنى الحياة بكل بساطة وعمق ساحرين.. سواء كنت في الصومال أو في العراق فالمصائب تأتي من الثقوب يا صديقي، يكفينا أرض بحجم حبة العدس للنوم العميق عليها.

سوف أستمر في العمل مع وكالة جوو رغما عن هاتف الكلب المبلّل، وسوف أزوّدهم بالتسجيل الكامل عن جولتي في بغـــداد، ولا أعتقد أنه سيؤثر على طبيعة عملي في الوكالة.. وإلاّ سأفضـــحه في باريس وبغداد بما فعله به "أيوب الأبتر" بشهادة موقّعة من "أبـــي العوف" رسميا..

لم أعرف النتائج المتحققة بعد، والتي كان مـــن المفتـــرض أن يرسلها لي الناطق الرسمي لرابطة كفى للانتحار الجماعي.. كانـــت آخر رسالة من الوكالة تطـــالبني بالاســـتمرار في إكمـــال المقـــاطع الفوتوغرافية "إنسيرتات" تظهر كل العاملين في الرابطة.

إنهم منذ زمن ليس بالقصير يستعدون لإقامـــة حفلـــهم الأول والوكالة على علم في التأخيرات التي حصلت، لكنهم يلحون كـــثيرا في متابعة تصوير الحفل الأول، ولم أعرف السبب في هذا الاهتمام.. أرسل لي الناطق باسم الرابطة رسالة (sms) قصيرة على المحمول: "لا تهتم أستاذ سلام، سأزوّدك بتفاصيل مصوّرة بشكل وافٍ". ما كـــان عليّ إلا تهيئة كل المستلزمات اللازمة لاستقبال الفيديو، عندما أصل إلى كندا سأعمل مسحا لجهاز اللابتوب، وسأدفع أجور الانترنيت، سأراجع المصرف بشأن الإيداعات في حسابـــي ومخاطبـــة الوكالـــة برقم الحساب.

**بعد حين:**

قبيل موعد السفر بساعات قليلة، اصطحبت أصيل في جولـــة حرّة وأخيرة، أتقلّب في الشوارع المحيطة للفندق، أحاول قضاء مـــا تبقى من الوقت في التجوال الحر، في مولات بيروت الأنيقة ومحالهـــا

الأنيقة، وتزوّدت ببعض الأمور اللازمة لاستمرار الحيــاة اليوميــة، اشتريت عبوتين من قهوتي المفضلة "**كلاسيك كوفي**" بنكهتها المعتّقة والتي أفضلها على كل الأنواع. واحدة لي وأخرى لجاد الله الغاطس في النوم. بينما غاص أصيل في النبش في المكتبات للبحث عن كتاب أو كتابين عن تاريخ المندائية وجذورها، وقد عثر على ما يريد مــن مكتبة الرافدين في شارع الحمرا.

***

# 24

# جزرة "جاد الله"

## 30 تشرين أول:

لم تظهر في بيروت أية تغيرات طارئة جوهرية على نفسية العقيد المتآكلة سوى حادثة تحفيز ذاكرته حتى لحظة تفجير الصدمة لمعرفة ردود الأفعال المحتملة، لكنه في الأيام الأخيرة راح يطيل النظر من نافذة الغرفة المعلّقة في الطابق السابع للفندق الذي نسكن فيه، المطلّة على تمثال لجندي متآكل يحرس بناية متداعية. أينما ولّيت وجهي ثمة جنود وتماثيل، وبقدر ما يسمح به الوقت كنت أراقب حركاته خاصة عندما أصحو من غيبوبة النوم الاصطناعي.

أنتابع ما يطرأ على سلوكيات العقيد في الأيام الأخيرة بعد معالجته بالصدمة المزدوجة. المسكينة زوجته كانت قلقة عليه رغم ملامح الفرح المرسومة على وجهها لتحسّنه التدريجي. هي امرأة بسيطة من عائلة ريفية، بعينين صغيرتين ذابلتين وصدر ضامر وجمال فطري آفل.. لا أعرف لماذا تضمر لها الحقد زوجتي المتعفرة نادية الحلي.. أقول لها: "لا عليك سيعود من جديد للحياة". فترد عليّ:

- بكيف الله خيي.

دسستُ ألفي دولار إضافية في محفظة أم محمد قبل أوان سفرها بيومين، كهدية أخيرة من المنظمة الوهمية التي ابتدعتــــها، وأوصــــيتها بالاهتمام به حتى خروجه سالما من محنته. فالعقيـــد يمثـــل لي رمـــزا لعراقيتي المهدورة التي بددّتها السلطات المتعاقبة ومنتهكة من الآخرين، خاصة عندما غدا البلد مجرد خريطة تقرض فيها الفئران لتكون كحبة عدس شاحبة. أين منطقة الحياد على حدودنا مع الســـعودية؟ أيـــن مجرى الشط وحدود الــ UN القديمة في رسم مجراه؟ أيـــن الجيـــب الشمالي المهلهل على الحدود مع الأردن؟ ونحن نرفع إلى يومنا هـــذا راية النصر لخداع المستمر الجماهير المغلوبة. حاولت الحفاظ على ما تبقى لصورة الحلم بخرطته التراثية ومن خلال صورة العقيد في رأسي:

- أشكرك أخويه على وقفتك معي.
- لا شكر هذا واجبــــي. وما هذا الذي بيدك؟؟
- هذا نسر الجمهورية.. شعار كان موجودا على "بيريتـــه".. كان دائم البحث عنه لأكثر من مرة.. يلحُّ في الاحتفـــاظ به، لا أعرف بالضبط ماذا سيفعل به.

أما أصيل فقد حزم حقائبه وتجهّز للسفر معي إلى كندا.. بـــدا فرحا في هذه التجربة الجديدة، لكنه كان يعيش حالات من القلق بين فترة وأخرى خوفا من وضعية جوازه المزيّف الذي جلبه له هاتف من دكتور ناعم باسم شاب كويتي..

في الخفاء بعثت برسالة sms إلى سليمة حنظل أخبرتها فيها أني سأكون في ادمنتون خلال أيام، وفي آخر فرصة قبل الإرسال حذفت المقطع الذي أخبرتها به أني احمل لها معي مفاجأة.. قـــاطعتني هـــي برسالة أخرى:

"وما هي أخبار أصيل؟؟؟ أرجوك سلام أريد صورة له..
أرجوك أرجوك"

في ظرف أيام وعند نهاية هذا الشهر سأكون هناك، كندا العظيمة موطني الهادئ الجميل، تبين أن الوطن ليس الأرض.. كنت واهما كثيرا. كندا قدّمت لي على طبق من ذهب وطنا بديلا محاطا بالسلام والأمن والحنان. عادت لي إنسانيتي من دون مقابل، العطاء مقابل الإنسانية المجردة. تغيرت النظريات الحماسية بخصوص فكرة الوطن.. أرض الآباء والأجداد، هو مسقط رأسي.."**كلاوات عراقية**".بمعنى وهم عظيم. بدت كأنها فلم أسود وأبيض من بطولة محمود المليجي – فلم الأرض – مثلا. باسمه مات الكثير وسيموت المتبقون أيضا.. الأرض البديلة التي تمنحني الشقة والحياة الكريمة دونما أن تأخذ مني إنسانيتي. أخيرا وصلنا مطار تورنتو في ساعة مبكرة من صباح 30/ت1، وتوجهنا حالا إلى بوابة رقم (14) للطيران مجددا إلى مدينة ادمنتون.

أصيب أصيل بالدهشة لرؤية تورنتو الجميلة بكل بذخ عمارتها الناعمة المتّناسقة مع الطبيعة والذوق الجمالي والرقي الحضاري وجمال ناسها المتحضرين المسالمين، حتى العمارة الناعمة المتناسقة كانت متناغمة مع ذوقهم البشري الرفيع.. الأجواء الباردة تبعث على القنوط والدفء المحبب، مبتعدة عن كل أشكال العنف الذي يتناغم مع حر بغداد الأسطوري وبقايا عماراتها الكونكريتية الصماء..

لم يصدق أصيل انتقاله السريع من عامل شاي في المنطقة الخضراء ببغداد إلى تورنتو، حاملا معه كل تلك الدولارات.. كنت بين الحين والحين أراقب دهشته لأنتشي بمنجزاتي الجديدة.

علينا قطع مسافة أكثر من ألف كيلومتر للوصول إلى أدمنتون. وسأعد لزيارة خاطفة ومفاجأة بعد غد لإيصاله سالما إلى بيت أمه.. من بغداد إلى كندا ومن عامل خدمة بسيط في مكتب مستشار الرئيس إلى جنّة الأمان الباردة، بم يفكر؟؟ من دون أن يفصح رأسه الصغير الآن، كنت أخمّن بما كان يفكر وفيض مشاعره المرتبكة.

**بعد حين:**

تراجعت عن فكرة إخبار سليمة بشكل مفاجئ خوفا عليها من الصدمة.. الصدمات تؤثر سلبا على حياتنا وتقّصر أعمارنا هكذا ينصحنا دكتور لويس، ولم يعلم ماذا يدور من صدمات كفر في بغداد.

اتصلت بها وقلت لها أن أصيل سيأتي في زيارة إلى كندا لاحقا.. لم تصدق الخبر، قالت فلبي دليلي أنه معك في الشقة، لكن المصيبة أنها لم تمهلني كثيرا.. وما هي إلا ساعة وإذا بها مع سالي تطرق باب الشقة بخبل وجنون وهي تصيح "أصيل.. أصيل.. ابني أصيل حبيبي".

ماذا أفعل في تلك الساعة؟ لا أعرف وهي تحتضن أصيل بشدة، تمدّدا على الأرض وراحا يبكيان، بعد أن تشابكا بقوة، حتى سالي أخذتها نوبة حادة من الصراخ الهستيري المخلوط بالبكاء على الطريقة العراقية، في تلك اللحظات تخرج التصرفات عن نطاق معقوليتها وتتغير سحن الوجوه وترتجف الأصابع وتذرف العيون أمطارها الباذخة.. ماذا أفعل يا ربي؟ أصيل الهادئ المتماسك أنخرط أيضا بنوبة بكاء صاخبة مجلجلة، يحاول إزالة جبل الكبت الذي جمعه هناك محاولا التطهّر من آثام سرقة أسرار الدولة في القرص جيم.. حتى جاد

الله المسرف في النوم فتح باب الشقة على أثر الصراخ والبكاء ثم عاد ليغلقه من جديد.

أبعد نفسي دائما عن هذه المواقف المحرجة التي لا أجيد التعامل الحماسي معها.. تركتهما على حالهما حتى استنفدا كل تلك العواطف الجياشة بسقف ساعة أو أكثر بقليل، ربما هذا الموقف قد تكرر كثيرا وخاصة عند العراقيين والسوريين والأفغان، لكني لم أكن مطّلعا عليه بتلك الحميمية وبهذا القرب، في تلك اللحظة أنقذ الموقف بذهابه لجلب قنينة ماء ويغسل وجه أمه التي أصابتها إغماءة عميقة.

**بعد حين:**

مساءً عادت الأمور إلى طبيعتها القديمة في شقتي، بعد أن لملمتْ سليمة حنظل حقائب ابنها ونزلا من الشقة تتبعهما سالي، قدمت سليمة لي المزيد من الشكر...... "حقا يا سلام لا أعرف كيف أردّ لك هذا الدين الذي طوّقت رقبتي به طول العمر عيوني أنت أشكرك جدا.. **أنت وفي** يا وافي فعلا".

نزلتْ على كف يدي لتقبلها لكني سحبتها مستغفرا مثلما يفعل رجال الدين: "أصيل صديقي الفعلي رغم فارق السن بيننا".. ثم ودّعني أصيل شاكرا لي جهودي وثمة دمعة سالت من عينه مسحها على عجل.. سالي بدورها قدمت الشكر لي أيضا، ليخلقوا مني بطلا كارتونيا متآكلا من الداخل ومتماسكا بصورته المرسومة بصفار البيض، ثم عادوا جميعا إلى شقتهم. وعدت إلى الوحدة من جديد.

من جديد عادت غيوم الوحشة تتلبّد في سمائي الغائمة أصلا، وتمطر أحزانا خرافية، كآبة ليل الجنود في الجبهات خيّمت على

المكان بعد أن ذهب الجميع.. أين أنت يا جاد؟ لقد جلبت لك القهوة الكلاسيكية.

الوحشة ممزوجة ببرد أزرق، ماذا سيكون طعمها؟ أقلب بعض الحاجيات المتروكة من نادية الحلي، أتشمّم بعضا من ملابسها، فتنتابني غصة حارقة في "الزردوم" يرتعش على أثرها بدني.. ثمة رائحة وملاعيب وأغراض متكركبة فوق بعضها وملابس متروكة، لم تتحرك من مكانها و لم تنطق و لم تعاتبني عمّا فعلته بها.. لكنها تربك حواسي المتصدعة. إنها وحشة الأمكنة الصدئة تعود مجددا، تطبق على صدري لتعمُّ في المكان كله الآن، فهي الطعم الذي لا طعم له مطلقا. البرد الأزرق الذي يلامس العظام ويداعبها بشراسة. أشرب الماء المُحلّى بعد التهامي للحبات الثلاث معا.

وجدت في الثلاجة النوع المفضل عندي من أقراص LSDالتي كنت أتناولها قبل السفر إلى بغداد، أتذكر أني جلبتها من جاد الله قبل سفري، الحبة الكندية هذه مخصصة للمصابين بنوع مخفف من الجنون الفطري.. تعمل على شطر الدماغ لنصفين. الأول يحاول النوم والاسترخاء، والثاني يحاول رسم لوحة خيالية للعالم على طريقة "أبو العوف" ليختصر المواضيع بعادي جدا، كلها تعطي النتيجة نفسها. الخيال ينشط كلما مر الوقت. فأرسم صورة الجنون المتلبّس في شوارع بغداد من جديد..

"بغداد لا أعتقد أني سأرى وجهك المدمّى بعد اليوم مطلقا".

سراج ونادية الحلي أنتما الغصّة المتوقفة في "الزردوم"، كلما أتذكركما يختل توازني من جديد، أشعر أني اقترفت جريمة ما، أجهش كالتيس المجذوم في كآبة رمادية، أنتما ليسا من الماضي أبدا..

من قال ذلك؟ بل بالعكس أنتما الخيط الوحيد الذي يربطني في دهليز الماضي. سأبعث لكما من المبالغ ما يكفيكما.. لم يكن الأمر مدبّرا كما تقول نادية، لكن عدم الانسجام الغالب على حياتنا هو الذي جعلنا نرضى في هذا المصير.. الخلل بي أنا وليس بك يا نادية.. أبدا لم أفكر يوما في كراهيتك، لكن صلاحية الحب في داخلي منتهية، أنا لا أكرهك مطلقا، لكني في الوقت نفسه لا أحبك، لأنني بصراحة لا أحب حتى نفسي فكيف أمنح حبا لغيري.. العراق هو الذي "**بهذلني**" يا نادية.. أفقدني القدرة على التوازن حتى في عواطفي ومشاعري.. كل شيء في الشقة يبكي على فقدكما الآن، أنا ابكي يا نادية.

قال الأول للثاني الغاطس في القاع: "كفى عواطف مجانية.. خذ من الأقراص ما يكفي للنوم الطويل وانكب".

أذعنت لنصيحته مضطرا، الدفعة الواحدة من هذه الحبوب تعمل بسرعة على معدة فارغة، تتفتّق المخيلة بسرعة لتطوف بي في أمكنة مرسومة بدقة، تأتي السعادة من خرائب الذاكرة، عندما تتحول إيقونات الحزن إلى مراكب فرح تسبح في أنهار جارية. أنهار فيها خمر وليس فيها لبن لا أتذكر بالضبط أين ومتى مررت بها..

طرقت الباب على شقة صديقي "جاد الله" في ساعة متأخرة من الليل، وكالعادة لم يفتح الباب إلاّ بعد مرور ربع ساعة تقريبا، وعندما خرج لي كانت آثار النوم الطويل بادية على وجهه:

- هلو صديقي أبا الجود. شلونك، هذه هدية لك تفضّل.
- أهلا بالعراقي.. كيف كانت زيارتك إلى كابل؟
- جيدة. ولكني كنت في بغداد.

- ....... هههه. صحيح. لقد نسيت ولا يوجد فرق بينهما.

جلسنا لساعة في شقته المهلهلة حيث قضبان الجزر في كل مكان، ثم راح يتحدث لي عن صنف جديد من الحبوب الدنماركية، التي وصفها له طبيب العائلة. ومن جانبي حدثته عن خلطة سحرية جلبت أسرارها من بغداد، **"خلطة السعادة"** مكتشفها البغدادي السعيد العارف "أبو العوف"، لها قدرة فائقة في اصطياد بذرات السعادة، تناولها على الفور ونام على كرسيه حالما بجنّة مزروعة بطولها وعرضها في بستان الجزر، تركني كـ "الطنطل" المخذول وحيدا في شقته النتنة. ثم خرجت إلى شقتي من دون أن أفهم شيئا عن جاد الله.

أطوف في الأمكنة التي حلمت بها في لحظة عراقية خالصة. هذه الشقة برسومها المرعبة لرابطة كفى، هذه مقهى رضا بن علوان في الكرادة، هذه شقتي الصندوقية في كرادة مريم، تلك بيوت الغجر على حافات بغداد القصية، أقرض بأسناني غاضبا على الخريطة التي قرضتها الأرضة، لم يبق منها سوى الأطلال.. أطعن عنفوان الرجولة الذي قُتِل أصلا في داخلي. ملامح الرجولة القاسية مرسومة بملامح بارزة في وجه أخي غسان قبل صدمته المحيّرة. انقلب للجهة الأخرى حيث النافذة، الجهة التي أشعر معها بالأمان.. أخلع ملابسي على شاطئ مجهول وانزل النهر بهدوء.. أصابع يدي بدأت ترسل الإشارات لسريان المفعول، جفنا العينين يتعانقان، أغمضت عينيّ مودعا الدنيا كلها خلف ظهري.. أنام الآن ملء العين.

***

# 25

## نظير الملا
## عن "العَشرة الموعودة"

### 22 تشرين الثاني: الورقة الأخيرة

بعد مرور ثلاثة أسابيع لا أكثر من شهر تشرين الثاني من السنة نفسها، صحوت من نوم عميق، استمر لفترة لا أستطيع تحديدها، ربما كانت يومين أو أكثر.. وجدتُ جملة من الرسائل والمكالمات المتراكمة على سطح شاشة المحمول، ثلاث مكالمات من أصيل، وخمس رسائل من الوكالة، ومكالمات أخرى غير معروفة المصدر من غير أسماء معلومة.. حانت لحظة الاتصال بالناطق الرسمي للرابطة بعد إلحاح مكثّف من الوكالة.. اتصلت مستفهما عن التوقيت الدقيق وعن موقع المكان السري الذي سيتم فيه افتتاح باكورة عملهم، لتتويج الوجبة الأولى في ربيع حفلهم السعيد.

أخبرني أن الحفل سيقام في مكان سري للغاية وبطريقة كرنفالية لا يجوز فيها الإفصاح عن موقعه لضرورات سرية تتوافق مع توجّه رابطته.. فالسلطات الأمنية بدأت حملة واسعة لملاحقة القائمين على

الرابطة، حيث تحولت إلى العمل السري الخيطي غير العنقودي.

- كيف سيكون شكل هذا الحفل؟
- إنه حفل عظيم وباذخ سيدافع المحتفلون عن فكرهم الرهيبة في حقل الموت الجماعي.. كانت التجهيزات والاستعدادات قائمة على قدم وساق.. يقول: "الموت فكرة مقدسة وعظيمة عندما نذهب إليه بأنفسنا، لا أن يأتي إلينا على حين غرّة.. يتحول لحظتئذ إلى عرس تاريخي لمعنى البطولة في آفاقها المحدَّثة.. وليس بطولة المتخلفين في طريقة قتل الآخرين، لنا نظريتنا الخاصة"..

لم يكشف لي من الناحية الزمنية والمكانية عن موعد الحفل وموقعه، لكنه لمّح أنه قريب جدا ويحمل الكثير من المفاجآت الرهيبة في انضمام شخصيات بارزة ومهمة من المجتمع البغدادي تحت شعار (مقبلون لا مدبرون)، بحيث سيكون الشعار مطرزا بتقويسة هلالية تحت علم ورمز الرابطة ما يعرف بالماركة، مع العلم أن مديرها سيكون من العشرة الأوائل في حفل التتويج:

- صديقي ما يهمني هو التصوير الكامل للحفل، بإمكانك أن تستدعي المصورين المحترفين وكل الأجور سأتكفل بدفعها، ومن الأشخاص المؤتمنين على الأسرار. الوكالة مهتمة بأمركم جدا.
- لا عليك في هذا الجانب.. كل شيء مضبوط.. وتذكّر أن الواقع العراقي المزري يعطي العالم نماذج جديدة لأنواع مبتكرة من الموت الجماعي صديقي.. **لا للفردانية بعد اليوم**.. فهي موحشة كيوم الحشر، ونحن ندحض الرأي الذي يقول إننا

نكرر التجربة اليابانية ما بعد الحرب في الانتحـار. الفكـرة عراقية خالصة يا صديقي وغير مستلّة مـن كتـب التـاريخ الإسلامي في الاستشهاد، أو في الموت الحضاري المُشع، كما أشيع في الصحف الغربية عن موهم الرحيم. نحن باختصـار **شعب الله المُهمّش** لكل أنواع المآسي منذ "انكيدو" ليومنـا هذا. حروب واحتلالات وقتل جماعي ومجاعات وحصارات وفقدانات، كل شيء وحسب ما تشتهي النفس من ضـيم. سننقرض حتما ونبقى مجرد حكاية في بطون التأريخ.

كانت الوكالة من جانبها تلحُّ عليّ برسائل مكـرّرة يوميـا، لتصوير الحفل كاملا وعن آليات التصوير وموعد التنفيذ. ثمة الكـثير من الأسرار صارت بالنسبة لي عصية عن الإدراك. لماذا تلحّ عليّ كل هذا الإلحاح؟؟ لا جواب عندي في هذا الوقت بالذات. مـا زاد في حيرتي هو هذا الناطق باسم الجماعة، حيث كان يرفض الإدلاء بأيـة معلومات إضافية، سوى أنه يؤكد أقواله السابقة عـن الحفـل: "أن الحفل حامل لمفاجآت كبرى".

- سأترك الأمر للرابطة في تسجيل الحفل وبثلاث كـاميرات ومن زوايا مختلفة، التصوير لم يعد مشـكلة، ثم أبعـث لي الفلم عبر موقعكم. بصراحة أنا حاليا خارج بغداد.

بالمقابل رفضت وكالة جوو بعض الأفلام الوثائقية التي عملتها في بغداد، ومنها الفلم القصير الذي سجّل الحياة (العادية جـدا) في الباب الشرقي من خلال شخصية صديقي العارف الحكـيم "أبـو العوف" وعن تزايد التعاطي بأشرطة الحبوب المخدرة والأنواع القاتلة منها لكنها أخذت بعض المشاهد وضمنّتها في الفلـم الوثـائقي "لا

مناديل لدموع العقيد". لا أعرف بالضبط السبب الجوهري وراء رفض الفلم رغم نجاحه من الناحية الفنية.

*

بعد خمسة أيام بالضبط من آخر اتصال لي بالناطق باسم الجماعة، حصلت المفاجأة، حيث وصلتني رسالة sms على المحمول، يخبرني فيها عن وجود فيديو خاص يصور الحفل كاملا عبر رابط سري على موقع الرابطة، وفي ذيل الرسالة وضع الرقم السري للدخول الآمن إلى الموقع المغلق أمام العامة، حيث لا يُفتح إلاّ بالاشتراك الرسمي فيه، وضعت الرابطة جملة من الشروط للعضو الجديد للانتساب الفخري للرابطة، كان أهمها الإيمان الكلي بمبادئ الرابطة والتوقيع على قسيمة الاشتراك.

في تلك اللحظة توجّب عليّ تحميل الفيديو كاملا ثم إرساله إلى الوكالة. إنها الفرصة التاريخية لتتويج عملي من خلاله. متمنيا أن يكون طويلا، فكل دقيقة تصوير خام بـ (3000) يورو، إذا كان طول الشريط ساعة من الوقت، وساعة أخرى منجزة في بيوت الغجر أُقرّت رسميا، فذلك يعني سأحصل على مبلغ مهم، أتربّع فيه على عرش الثروة. ترى ماذا أفعل بالثروة؟؟ لست بحاجة إليها، ومن غريب الأمور أن الباحث عنها لا يحصل عليها بهذه السهولة.. لكنها تستطيع طعن الوحشة في خاصرتها وردم فجوة الفقر الجبارة، على الأقل سأبعث إلى "أمّ محمد" مبالغ تساعد غسان في شراء العلاجات له، ثم أني بالثروة وحدها سأعمل وكالة إعلامية عالمية، لأمارس هوايتي وكشف الملابسات العظيمة التي حدثت في بغداد.

بصعوبة بالغة وبمحاولات متكررة قمت بفتح الرابط عبر الاشتراك الرسمي في الموقع، حيث أصبحت إيقونة الفيديو كاملة وجاهزة للمشاهدة الآن رغم القشعريرة التي طغت على جسمي كله..

اللقطات التعريفية الأولى تثبت فعلا أن التصوير جيد إلى حد كبير، يدور باحترافية عالية وبكاميرا فائقة الدقة، خلفها مصور ومخرج يختار لقطاته بأكثر من زاوية وبثلاث كاميرات فيديوية.

الحفل في أولى لقطاته بدا أنه مصوّر في لحظات الفجر المبكرة، فتلك العصافير النشطة على الأشجار أوشت لي بذلك.. أُقيمَ في ساعة مبكرة جدا بعد طلوع الفجر بقليل، هذا الطقس الصباحي للموت يتكرر كثيرا في ذاكرتي العراقية.. فكل عمليات الموت المقصود والجماعي على وجه التحديد كانت تجري في هذه الساعة المبكرة. أذكر وجبات إعدام العسكريين المعاقبين خلال ساعات الصباح الأولى في ميادين الرمي لمعسكرات التدريب والرماية. حضرت واحدة منها مجبرا عندما كنت جنديا متقزّما، على حين غرة جلبوهم بملابس نومهم، آثار النوم ما زالت على عيونهم ووجوههم الصفر الباهتة، لا يعرفون إلى أين يجرجرونهم إلا حين كتّفوهم وربطوهم على أعمدة الشواخص في ميدان الرمي، ما يقرب من الخمسين نفرا منقسمين إلى وجبتين.. كان أحد الضباط يتلو عليهم بعجالة قرار الإعدام، ثم يتم فورا ربطهم على الشواخص، وفي مكبر الصوت يصدر أمر التنفيذ (**إذا كنت حاضرا على الهدف أرمِ**). يتم التنفيذ فيخرون سريعا إلى الأرض يلعقون من رمل الأرض الملحية وصوت الاطلاقات في اختراقها الأجساد، ما زال رنينها في أذني

لغاية الساعة رغم أني فقدت الكثير من ذاكرتي هناك لكن بعض ما حدث يحضر أمامي في الوقت المناسب.

ثمة تواجد لجمهور من المتملقين الخائفين في هذا الحفل الغريب، ولا وجود للنساء فيه مطلقا.. اللقطات المتلاحقة كانت تعريفية بالرابطة، وبالمبادئ العامة لعملها، المنصّة كانت بسيطة ومغطاة بالفرش الملونة، جدرانها سود قاتمة وثمة نقاط حمر على كل جدار من جدرانها الثلاثة. استعرضت الكاميرا كل أرجاء مكان الحفل برشاقة وخفّة قبل البدء، المكان فعلا يبعث على التقزز والغثيان مع شكل الموت في لحظات الصباح الأولى. الشمس تتسلل من خلف الأشجار لتغسل وجه المكان بالضياء.. عشرة خرفان كبيرة تُنحر بأياد رشيقة، ثم تترك ممدّدة على حشائش الحديقة، لم أدرك ما تعنيه تلك المجزرة ومنظر الدم التمهيدي هذا.

ما هذا؟ فلم رعب رهيب يدور في هذه الحديقة المسيّجة بغموض ملامحها، ما هذه الشعارات الغريبة؟ اللون البرتقالي هو رمز الرابطة كما يبدو ومنتشرا بتنسيق لرسم الشعارات على الجدران.. لا توجد أجوبة لكل الأسئلة التي بدأت تتجمّع في رأسي، ما هي علاقة صورة الرجل الموضوعة على مائدة إلى يمين المنصة وقريبا من الصف الأول للجمهور؟ كأني أعرفه!! في الصورة يبدو أنه بالغ النعومة جدا، يشبه......... ربما!: "لا أنت غلطان.. يخلق من الشبه أربعين".

بدأت مراسيم الحفل الآن، تحت تأثير أصوات الدفوف والأبواق المبحوحة والأناشيد الغريبة غير المفهومة بمعانيها، لم تكن دروشة ولا تهيئة لموكب تطبير، عبارة عن آهات وأنّات تصدر من الأعماق السحيقة للمنشدين، مع صوت الدفوف بوجوه عُجِنت بكل دمع

المأساة العراقية. أين رأيت هذا من قبل؟ أضغط على رأسي لشحذ ذاكرتي ولا من فائدة. لعن الله تلك الحبوب.

الأشخاص العشرة راحوا يستعرضون المبادئ على شكل أشعار مرسلة، وهم يدافعون عن فكرة الرابطة بطقس مسرحي تمثيلي، هم ليسوا كما يبدو من سير الفلم الأشخاص الذين ينفذون بذواتهم فعل الموت.. ذلك واضح من فقرة التمهيد والوجوه الأخرى المقنّعة التي تستعد لدخول المنصّة، والتي أصبحت جاهزة هي الأخرى لاستقبال المزيد كالمقبرة. يبدو من الشريط أنهم يستعدون لمناسبة قادمة أيضا، هم الممهدون إذن ببدلات عمل سود.. ثمة علامات من جماجم محاطة بزهور برتقالية تطرّز صدورهم، بدت كأنها شعار الرابطة وماركته، كانوا منغمسين حد الهوس في الرقص الطقسي على إيقاع الدفوف. تمر اللحظات بصعوبة ومازالوا داخل الطقس يهزون رؤوسهم مع صوت الدفوف، فتهتز الكاميرا المفزوعة في عمق الحديقة، حتى دخل صاحب البوق الذهبي لتتوقف الدفوف في تلك اللحظة عن النقر، ثم ينقسمون إلى فريقين كل فريق بخمسة أفراد، الممهدون ينسحبون الآن خارج المنصة.

طوال دقائق مشاهدة الفيديو كنت أراقب عداد الوقت في مشغّل تسجيل الفيديو. إذ تجاوزت حاجز العشر دقائق، ومن الناحية الحسابية فأن العداد كان يعدُّ لي ما يتجمّع من حصيلة كبيرة من المبالغ في وكالة جوو.

*

## بعد خمس دقائق:

يبدأ المشهد اللاحق بدخول العشرة المبشّرة ببدلاتهم البرتقالية يرتدون الأنقبة، يتقدّمهم المنتحر الأول وهو كما يبدو من مكالمة الناطق الرسمي، ذاته السيد مدير الرابطة والرقم (1) منقوشا على صدره وظهره: "**أنا نظير الملا**".

يستعرض جانبا من حياته بكلمات مختصرة مع البوق، بعض الكلمات لم تكن محكمة الصياغة، يبدأ بالتمايل على صوت همهمات يقترب شيئا فشيئا نحو الرجل الأبيض في مقدمة المنصة. يفتح ذراعه ويسلمها إلى الممرض.

يجلس هذا في الزاوية الشمالية من المنصة مرتديا صدرية بيضاء وقد لفّ رأسه بقطعة قماش بيضاء أيضا. كانت مهمته تنحصر بحقن المتقدم له إبرة واحدة بالوريد، يعود المحقون إلى التمايل مع الدفوف التي أسرعت من إيقاعاتها.. يمضي مفعول الحقنة في جسد الرجل بدقائق معدودات، لتبدأ فيزياء التغيرات المصاحبة لوقف عمل الأعضاء البشرية بسرعة جنونية وأمام الجمهور مباشرة.

أوقفت الشريط إيقافا مؤقتا، ذلك لالتقاط الأنفاس والتفكير بصورة الرجل الناعم المحاط بشريط من الزهور الصناعية، ما هي علاقته برابطة كفى؟؟ هل يستطيع هاتف الصراف الكلب المبلل أن يجيب عن غموض تلك العلاقة بين الرابطة وهذا الناعم جدا؟؟ الفيديو حتما سيصل إلى هاتف عبر وكالة جوو، وربما هو من خطط لكل تلك القضية. دختُ... لا أستطيع حل هذه الألغاز المعقدة.

*

أعود من جديد لمتابعة الشريط..

بعد مضي دقائق أخرى، يحل الصمت الموحش، لا أبواق ولا دفوف ولا همهمات.. يرفع المنتحر النقاب، فيكشف عن وجه مصفر ومحتقن يحمل علامات الخوف من الموت. كنت مندهشا من تفاصيل النزعات الأخيرة لكل واحد منهم.. لم تكن الحالات متساوية في تقبّل الجرعات المميتة، كل واحد يتقبل فعل الموت بطريقته الخاصة. كانت عبارة عن مشاهد رعب آدمي مصوّرة بحرفية تستفز المشاهد ليرتمي أما في حضن الرابطة والسفر إليها من كل الأصقاع أو ترك مشاهدة الفلم.

يتحول لون البشرة تدريجيا إلى الأصفر الفاقع، العينان هما اللتان تصوران هذا الفزع العراقي كله في تلك اللحظة العصيبة، كانت إحدى الكاميرات تركّز على حركة العينين بلقطة زووم لكل منتحر، ثم تبدأ بالفتور وتميل إلى السكون المميت. البؤبؤ ينزوي إلى طرف كل عين ليعم بعدها البياض الموحش في مساحة العينين.. الموت يبدأ بالسريان التدريجي ليشل عملهما. تنتقل لحظة الشلل في حالة رهيبة لتوقف عمل الأعضاء، العضو تلو الآخر. كنت أشاهد المنتحر يعاني من صعوبة التنفس كلما مرَّ الوقت عليه فترتبك أطرافه وتتصادم. قدري الأسود هذا يجعل لعنة بغداد تلاحقني إلى هنا، وأنا أتأمل موتا جماعيا مصورا بكل تلك التفاصيل المرعبة. كان بودي البصق على نفسي لهذا العمل الذي أرتزق منه لكني لا أستطيع. ليست لي القدرة على النظر لعداد الدقائق، أتمنّى أن ينتهي هذا الفيديو الأسود ولتذهب وكالة جوو إلى الجحيم.

من المنتحر الأول حتى التاسع يمرون أمام الكاميرا بالطريقة نفسها، يبدأ مشهد الانتحار الجماعي بمشهد فردي، عندما يتقدم

تحت تأثير غمغمة النشيد وصوت الدفوف وصراخ البوق، الممـــرض يربط ذراع المنتحر المتطوّع بشريط بلاستيكي ليبرز له مكان الوريد الأزرق، ثم يحقنه بمادة صفراء.. ينهض المنتحر ليكمل مشوار الرقص حتى يسري مفعول المادة القاتلة في الجسم بدقائق معدودات.

تمر الدقائق أمامي بسرعة البرق.. كل منتحر جديـــد أشـــاهده يتلوّى وهو ينازع في لفظ أنفاسه الأخيرة.. يرفس رفساته المتتالية، ثم يحاول خلع ملابسه ليمهد لخروج الروح، غمغمات مبهمة تتطاير من فمه. إنه لا يستطيع التعبير.

تصوير لحظات الموت الأخيرة تثير الرعب حقا وقـــد أصـــابتني بالفزع، ثم تتلاحق الصور المتعاقبة باســـتمرار حركـــات الأجســـاد المنتحرة وهي تعيش في آخر لحظات العمر بعد أن وضـــعت نهايتـــه برغبة عارمة لوقف موجة الحياة..

ماذا فعلت بنفسك يا ابن وافي؟؟

فعلا أنه التحدي الأكبر.. تخمد حركة العينين ثم تبـــدأ شـــهقة قوية مخيفة مصاحبة بصوت عميق يخرج من البطن، يرتفـــع الصـــدر ويهبط لمرتين وينتهي الأمر بنصف إغماضة فاترة من العينين. يخـــرج الزبد الأبيض من الفم ثم يغطّي البلل نصفه السفلي.. يخـــرَّ صـــريعا كجثة هامدة، يحل السكون التام مع عودة صراخ البوق الذي بـــدأ بالنعيق الطويل المر.. بدني يرتعش وزغب يدي ينتصب، تتملكني في تلك اللحظة صرخة عظيمة مؤجلة إلى نهاية الشريط، سأطلقها لتـــهز هذا الكون الضيق..

أسمع في خلفية المشهد الدرامي مقطوعة لموسيقى تصويرية، إني سمعتها من قبل.. أين ومتى؟؟......... الآن تذكرتها:

((أيها الشعب العظيم.. العظيم عظمة لا تنتـــهي وو ثم وو.. ثم وو.........))، حتى تقيأت زبدا أصفر من معدتي. إنـــه الخطـــاب التاريخي للرئيس وبعد خطاب الخليفة يكلكـــل في أطنـــاب اللغـــة الحجرية.

يبدو من المشهد أن المنتحر لا يعاني من ألم المصل المحقـــون ولا من ألم الموت. إنه مجرد سكران منتشي بفعل الموت.. تمر الدقائق ليبدأ بعدها السريان والخدر النهائي ليغطي الجسم بحاله.. تنتـــهي هبـــوط الصدر واعوجاج الساقين والأصابع المصمومة، أشخاص من كافـــة الأعمار مروا عبر زمن الشريط، وما زالت الدفوف تـــدق وتـــدق والبوق يعوي. يأتي اثنان من خلف المنصة يرتدي كل واحد منـــهما صدرية بيضاء.. يقومان برفع وحمل المنتحر ويذهبان بـــه إلى داخـــل البيت المظلم، وصل الشريط إلى الشخص العاشر لتحدث الصـــدمة غير المتوقعة:

- من هـــذا...............................................!!!؟

هذا العاشر كأني أعرفه.. شكله ليس غريبا وهيئته قد ألفتها من قبل.. نعم أعرفه..

قال المنتحر العاشر في التعريف بعد أن خلع النقاب عن وجهه:

**"أتقدم بالشكر لرابطة كفى، لتوفيرهم الأجواء المريحة لتعبيد الطريق نحو الموت المُختار، أتقدم مرة ثانية بالشكر لأخي المغتـــرب الذي أعادني إلى حالتي الطبيعية لأختار طريقي الصحيح.. أهـــدي هذا النسر إليه.. أنه نسر الجمهورية هدية مني له، وأخـــبره إنهـــم يرفضون عودتي إلى قيادة قوة الفوج، بحجة عدم سلامتي النفسية.. شكرا لرابطة كفى، أهلا بالموت الجماعي وتعسا لحياة الهزيمة".**

يحقنه الممرض حقنة النهاية. ويزيل لثامه عن وجهه.

- لااااااااااااااااااااااا.. صرخت من فزعي تلك الصرخة التي اهتزت لها أرجاء الشقة. اهتزّت الصورة المحنطة في الحفل، هذه حقيقة إذن، مؤامرة كبرى ضدي.

ما هذا!!!؟ لَم فعلت ذلك؟

لا تفعلها أرجوك، من أجلي أنا، من أجل محمد وهدى وزوجتك المسكينة، من أجل المدن التي غادرت الخريطة.. ترى مَنْ سيعيد خريطة البلد العرجاء إلى وضعها؟ مَنْ يعيد البهاء للروح المفقودة؟ مَنْ يحذف تلك الهلوسة المملّة من خطابات الرئيس.

لم أرَ في حياتي ميتة كهذه.. هل يبكي الميت من دون دموع؟ تلك مهزلة عراقية كبرى تضاف لمجموعة المهازل.

ماذا تقول الآن يا صديقي "أبو العوف"، حتما ستكرر قولتك الشهيرة المعتادة:

- عادي جدا.. فأنت في بغداد يا صديقي.
- أليس كذلك؟ هذا ما توقعته منك أيها العدمي. لن تجد أباك مطلقا بعد الموصل. وداعا.

***

**انتهت**

كُتبت هذه الرواية بظروف بيئية مطعونة في الخاصرة، وطقسية متطرّفة جدا في لبّ العاصمة بغداد.. بين درجة حرارة عبرت حاجز الخمسين مئوية في الظل طبعا، وتحت رحمة نسائم متقطّعة لمبردة الهواء بكل عنف أصواتها المزمجرة، لتضخ هواء رطبا لا ينعش الفضاء من حولي فحسب، بل تلد الأفكار ولادة قسرية مؤلمة.. كتبتُ هذه الرواية في زاوية من غرفتي المتطرفة هي الأخرى، حيث تناقض الأثاث فيها ميزة أخرى إضافية، أشم لزوجة **لأنفاس زيتية** ورطوبة صمغية، حيث تلتصق فيها أوراق الكتابة ويذوب حبر الكلمات.. ثمة صيحات للزوجة تعيدني من مخيلتي السابحة في الفضاء إلى الكنبة التي تسمّرت عليها لحين الوصول إلى السطر الأخير من الرواية. لم يكن لي سوى التخيّل منفذا للعيش، عندما ترتفع درجة التطرف إلى أقصاها، نحو برودة تصل فيها إلى ما دون الثلاث درجات مئوية، عندها تتيبّس الأصابع النحيلة وترتجف الأفكار العارية المتلاطمة في بحور جنون الكتابة وعبثها. تتمزق المسودات لأكثر من مرة. ورغم ذلك كنت حريصا كل الحرص لأبعد شبح التطرف والانفعال بنسخته الأخيرة هذه.

**نهاية شتاء متطرّف آخر لعام 2016**

**خضير فليح الزيدي**